

امین یوسف خاں



8

آغا علی الشاف



أمّين يوسف غراب

❶ فلاح ولد في القرية ، ونشأ في القرية وذاع اسمه وانشأ أدبه ، وهو ما زال في القرية . .

❷ النقي بقراءته على نطاق واسع على صفحات آخر ساعة أيام ان كان يملكها الاستاذ محمد التابعي ، وما زال يكتب فيها الى اليوم . .

❸ تخصص في الكتابة عن القرية ، والريف المصري ، وتصوير حياة سكانه تصويرا دقيقا ، مما جعل قصصه تترجم الى عدة لغات ، وتذاع في أكثر بلاد العالم .

❹ كتب عنه عميد الادب العربي الدكتور طه حسين فقال : «وهو بشتق أحبا دونه من حياتنا المصرية اليومية فيحسن اشتقاقها ، ويرفعها من طور الواقع المبتذل الى حيث يجعلها أدبا فيه عبرة وعظلة، وفيه إثارة لعواطف الرضى والسخط والسرور والحزن والامل واليأس ، وهو من أبرع الناس في تصوير البؤس والنفقاء والحرمان ، سواء كان مصدا هذه الخصال هو سوء النظام الاجتماعي ، أم هو الانحراف عن جادة الفضيلة وطريق الخلق القويم» ❺ عرف بأدبه الصريح عن المرأه وتحليل نفسيتهما تحليلا دقيقا وتعتبر كتبه « هتاف الجماهير » و «أرض الخطايا» و «نساء في حياتي» و «يوم الثلاثاء» من أهم الكتب التي تناولت هذه الناحية .

❻ بدأ يتجه الى المسرح فكتب مسرحية - ست البنات - التي افتتحت بها دار الاوبرا المصرية موسمها لعام ١٩٥٣ ، فنجحت نجاحا منقطع النظير مما جعل جميع الصحف المصرية تتحدث عنها وتصفها بأنها أروع - كوميديا - قدمت للمسرح بعد وفاة نجيب الريحاني .

اهداءات ٢٠٠٢

المهندس/محمد إبراهيم شهابيك

الاسكندرية

أُمِّينَ يَوْسُفَ عَزَاب

آثَارُ عَلَى السَّفَاه

الْكِتَابُ الذَّهَبِيُّ

العدد السادس عشر - سبتمبر سنة ١٩٥٣
يصدره نادي القصة

تعريف بالكاتب

لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين

أريد اليوم أن أتحدث عن كتابين من كتب شبابنا القصاص، هما « يوم الثلاثاء » و « أرض الخطايا » للاستاذ أمين يوسف غراب .

وأحب قبل كل شيء أن أسجل اغتباطي بأنى استكشف فى آثار الشباب أدبا خليقا بالعناية والرعاية حقا ، لست أدري أهمله غيرى من الشيوخ كما أهملته أنا أم انفردت . . أنا بهذا الإهمال المعيب ، فقد صرفت عن هذا الادب الخصب الرائع الى الأعمال العامة أحيانا وإلى الادب القديم أحيانا أخرى ، وإلى الادب الاوربى والأمريكى طورا ثالثا ثم الى أدب الاتراب والنظراء مرة أخرى ، وأهملت ما كان الحق على أن أمنحه من الوقت والجهد ما هو أهل له .

وأكاد أعترف لهؤلاء الشباب بأن من حقهم أن يغضبوا وأن يعتبوا بل أن يلوموا وأن يشقلوا فى اللوم ، فهم يكدون ويجدون وينتجون فيحسنون الانتاج ثم لا يجدون صدق جدهم وكدهم ، وانتاجهم الا ما يكون من هذا الصدى الخفى الذى يتردد فى نفوس القراء حين يقرأون فيرضون أو يسخطون ثم لا يعربون عما يجدون من الرضى والسخط لانهم ليسوا نقادا ولا كتبا وإنما هم قراء يأخذون ما يقدم اليهم فاذا فرغوا منه انصرفوا الى غيره وانصرفوا الى أعمالهم ونسوا ما قرأوا كما ينسون ما يأكلون ويشربون .

وأحب بعد ذلك أن أهدي الى الاستاذ أمين يوسف غراب أصدق الشكر وأخلصه وأجمله لاني قرأت كتابيه فلم ترهقني قراءتهما من أمرى عسرا ولم أتكلف فيهما ما أتكلفه فى قراءة غيرهما من الكتب التى يكثر فيها التخفف من اجادة اللفظ واتقان التعبير وتخير الاسلوب والمحافظة على منزلة متوسطة بين

الغريب الذى لا يساغ والمبتذل الذى لا يطاق .
 فالاستاذ أمين يوسف غراب كاتب يعرف لغته حق المعرفة ،
 ويحسن التصرف فيها غير متكلف ولا متصنع لا يخرج عن ذلك
 الا حين يضطره الفن الى هذا الخروج حين يروى نكتة عامية أو
 يدير الحوار بين رجلين أو امرأتين أو رجل وامرأة من أهل
 الريف فأما حين يعرب عن ذات نفسه فهو يؤدي ما يريد فى لغة
 نقية وأسلوب صفو ، ولفظ يتخير فيه يحسن تخيره وهو يرتفع
 فى كثير من الاحيان الى ألوان من التشبيه الرقيق الدقيق الذى
 يبعد قى غرابته حتى يفاجأ القارئ فجأة حلوة ويقع من نفسه
 أحسن موقع ويترك فيها أحسن الآثار ، والكاتب على ذلك لم
 يتخرج فى الجامعة ولا فى الأزهر ، ولم يختلف الى المدارس ولم
 يجلس الى الاساتذة والمؤدبين ، وإنما علم نفسه فأحسن تعليمها
 وأخذها بفنون من العنف حتى انقادت له فأحسن الانقياد
 وقرأت ما أرادها على أن تقرأه فعرفت كيف تقرأ وكيف تفهم ،
 وكيف تسبغ ما تقرأ وما تفهم وكيف تتمثله ثم ترده بعد ذلك
 أدبا طريفا فيه كثير من روعة وفيه كثير من جمال لأنها أضافت
 اليه من خلاصة طبعها ما أسبغ عليه سذاجة حلوة وأجرى فيه
 روحا مصرى عذبا .

وهو قد قرأ أدب المعاصرين من بنى وطنه ، ثم قرأ أدب
 القدماء ، فأكثر قراءته ، ثم هو لم يتعلم لغة أجنبية ولكنه رغم
 ذلك قد تأثر بما قرأ ومما نقل عن اللغات الأجنبية لم يكدر يترك
 منه شيئا . وأتيح له من هذه القراءة المختلفة المتنوعة فن من
 الادب لا شك فى أصالته وفى طابعه المصرى الخالص ولا شك
 مع ذلك فى أنه متصل بالحياة العامة التى يحيها الناس على
 اختلاف أجناسهم ولغاتهم فى هذا العصر الحديث

ولست أزعم أن الاستاذ أمين يوسف غراب قد وصل الى
 أرفع منزلة من الادب فبينه وبين هذه المنزلة أمد لا يزال بعيدا
 وأى الناس يصل الى هذه المنزلة حتى حين يتاح له ما لم يتح
 لهذا الكاتب الاديب من وسائل الاجادة والاتقان ، وإنما أزعم
 أنه دليل أى دليل على أن فى النفس المصرية من الخصب ،
 وجودة الطبع وصفاء الذوق ، واعتدال المزاج ما يتيح لها أن
 تشارك فى الادب الرفيع فتحسن المشاركة

والاستاذ أمين يوسف غراب قاص مقصر الى الان لم يحاول
أن يطيل القصص فيما أعلم وأكبر الظن أن الوقت لم يتح له كما
لم يتح له فراغ البال وانه انما يكتب هذا القصص القصير
مستجيبا لفنه من ناحية ولضرورات الانتاج السريع المنتظم من
ناحية أخرى .

وأحسب أنه لو فرغ لفنه . وقدر له أن يجنب ما تفرضه
الحياة اليومية من العسر لاتيح له انتاج أكثر امتاعا وأغزر مادة
وأقدر على طول البقاء وهو يشتق أحاديثه هذه القصص من
حياتنا المصرية اليومية فيحسن اشتقاقها ويرفعها من طور
الواقع المبتذل الى حيث يجعلها أدبا فيه عبرة وعظة ، وفيه اثارة
لعواطف الرضى والسخط والسرور والحزن والامل واليأس ،
وفيه ميل شديد الى التشاؤم ، فهو يجيد أكثر ما يجيد تصوير
الامال الخائبة والظنون الكاذبة والالوهام التي تدفع أصحابها الى
التورط فى الخطأ الذى لا سبيل الى اصلاحه واقتراف الاثم
الذى لا أمل فى استدراكه ، فهذا الفتى يضطرب بين البؤس
البائس والامل المختلط النزق حتى يقترب جريمة القتل
والسرقة ، ثم لا يلبث أن يستكشف أنه لم يسرق الا وهما لان
النقد الذى سرقه وقتل فى سبيله نقد أجنبى لا يغنى عنه شيئا
الا أنه يسلمه الى السلطان ليقتص منه . وهو مع ذلك قد
اضطر الى الاثم اضطرارا ، وقاوم الاثم ما استطاع ان يقاومه .
وهذا الرجل الذى يقرأ كتباً فىرى فيها حبا آثما قد تورطت فيه
امراته فيخرجه الغضب عن طوره وتسيطر الحفيظة على أمره
كله ويستيقن أن امرأته تلك التى تلد فى المستشفى انما تلد
نتيجة الاثم والفجور . فلا يكاد يردا ويرد معها الصبي الى
داره حتى تنتهى به الغيرة الى خنق هذا الصبي البريء . ثم لم
يلبث أن يتبين أنه لم يقتل الا ابنه لان تلك الكتب الاثمة لم
تكن موجهة الى امرأته وانما كانت موجهة الى الخادم التى طردت
من الدار حين استكشفت سيدتها هذا الاثم

وهذا الرجل الساذج من أهل الريف كان يرعى الغنم على
عمدة القرية فزوجه العمدة من ابنة خادم تعمل فى داره . وهو
محب لزوجه محسود على أنه قد تزوجها ولكنه يسمع تعريضا

جأن امرأته أثيرة عند العمدة فيقتلها ثم يستكشف بعد دقائق
بأنها لم تكن أثيرة العمدة الا لأنها كانت ابنته من خادمه
والكتاب لا ينتهي بقصصه دائماً الى الاثم المقطع المبهط الذي
تسيل فيه الدماء وتزهق فيه النفوس ولكنه ينتهي في كثير من
الاحيان الى خيبة من الامل ليست أقل شنعاً وبشاعة من ذلك
الاثم . وأسلوبه في تصوير خيبة الامل هذه يشبه كثيراً
ما تألفه عند الكاتب الفرنسي موباسان فأكبر الظن انه قرأ ما
ترجم الى العربية من هذا الكتاب وقرأ كاتبنا العظيم محمود
تيهور فأحسن الانتفاع بما قرأ .

وهو من أبرع الناس في تصوير البؤس والشقاء والحرمان،
سواء أكان مصدر هذه الخصال هو سوء النظام الاجتماعي أم
هو الانحراف عن جادة الفضيلة وطريق الخلق القويم على أن من
الاسراف أن يقال أن كاتبنا يجيد دائماً ، ويوفق دائماً الى ما
يجب فما أكثر ما يخطئه التوفيق فينتهي الى غير غاية . وما أكثر
ما يضطر أحياناً الى التزيد والاغراق في الوصف ولا سيما
حينما يصف الترف والمترفين وجسم المرأة وجماله وفتنته
المغرية .

وكاتبنا من أقل الكتاب كلفاً بالابتذال في اللفظ ولكني مع
ذلك أحب له ألا يغلو في وصف الطعام على هذا النحو المتهالك
الفج الذي يجب أن يشير اليه الادب دون ان يمعن فيه .
أما بعد فاني أهني كاتبنا بأدبه هذا الخصب الرائق وما
أشك في أنه اذا أمعن في القراءة وراقب نفسه حين يكتب
واشتد في مراقبتها سينتهي بأدبه الى غاية بعيدة من الاجادة
والاحسان .

طه حسين

الاهرام في ٢٩/١١/١٩٥٢

إهداء

سيدي العزيز الدكتور طه حسين
كل ما في الحياة أخذ وعطاء حتى الحب ، وأنا قد أحببتك ،
لذلك أخذت منك الكثير ، وأخذت منك الكثير جدا .
فهل تسمح لي اليوم أن أعطيك القليل ، وأن أعطيك القليل
جدا ، اذ أهدى اليك هذا الكتاب . . .
انها قلة قليلة ما في ذلك شك ، ولكن ثق يا سيدي انها قلة
تزيد على كثرتك . . لانها كل ما أملك .
أمين يوسف غراب

خيوط لا ترى



كنت فيما مضى أحفل كثيرا بالافكار الجيدة ، وأعيرها قدرا كبيرا من الاهتمام واحاول جهدى أن أستفيد منها الى أكبر حد ممكن ولو كلفنى ذلك ما لأطيق . وذات ليلة واقتنى ، فكرة جيدة . . فكرة جميلة للغاية . . قلت لنفسي لماذا لا أهجر هذه المدينة الصغيرة التى أنفقت فيها كل هذا العمر . وارحل الى المدينة الكبيرة ، لعلى هناك أظفر لنفسي بالهناء الذى تنشده ، والذي لم أستطع أن أحققه لها فى مدينتنا الصغيرة هذه . ولا سيما أن الهناء الذى أطمع فيه ليس بالشىء الكثير أو الكبير أو من العسير تحقيقه لانه ليس معجزة من المعجزات أنه أيسر مما تظن بكثير أنه فى متناول كل انسان . ومع ذلك لم أظفر به برغم محاولاتى المتكررة ومتاعبى الكثيرة التى بذلتها فى سبيله .

كانت كل آمالى لكى يتاح لى هذا الهناء ، هو أن أظفر كل يوم . أستغفر الله - فهذا كثير - بل كل أربع وعشرين ساعة

برغيف واحد من الخبز أمسك به رمقى

وفجأة وجدت نفسى فى العاصمة ، ولكن فى مركز حرج لل غاية ، كنت فى الطريق اليها قد انفقت كل مايمكن انفاقه حتى المعطف البالى الذى كنت ارتديه ، والذى كنت أستتر به ماتمزق من ثيابى الداخلية وما ظهر عاريا من جسدى المرتعش .
المقروور . كنت قد بعته بثمانية وعشرين قرشا، ركبت القطار بعشرين منها ثم قطعت مابقى من المسافة على قدمى لان مدينتنا الصغيرة كانت بعيدة جدا عن العاصمة بحيث لايمكنك أن تقطع مسافتها هذه الطويلة على قدميك ، ولا سيما اذا كانتا كقدمى هزيلتين معروقتين مقرورتين دائما . وابتعت بالقروش الثمانية الباقية جميعها خبزا حملته على يدي ، وحرصت عليه حرصا شديدا ، ورحت بين اليوم واليوم ألقف ذلك الشعبان الكبير الذى يسمونه امعائى رغيفا واحدا ، وكنت حذرا جدا ، حريصا الحرص كله ، بحيث كنت لا ألقفه الرغيف فى الوقت الذى يريد هو وانما فى الوقت الذى تكون فيه آلامى قد بلغت أقصى حدودها ، وهكذا الى أن ألقفته آخر رغيف قبل أن أبلغ العاصمة بليلة واحدة .

كانت العاصمة كبيرة جدا ، واسعة جدا، وكانت من البهجة والروعة واللفظ بحيث اننى رميت خيالى بالقصور وبالعجز ، واتهمته بضيق الافق، لانه لم يستطع يوما أن يتخيل العاصمة على حقيقتها ، أو يتصورها بهذه الروعة التى استحوذت على مشاعرى . وقد سرنى هذا الذى رأيت سرورا لاحد له وطمأننى كثيرا ، حتى اننى نسيت ما انا فيه من حرج ، ونسيت شيئا آخر كان يهمنى جدا أن أنساه ، نسيت ذلك الشعبان الكبير النائم فى بطنى فلم أعد أحس به كلما تلوى أو تمطى فيكاد يمزق أحشائى كما كان يفعل .

وانطلقت فى قلب العاصمة كطفل ناعم يسير بين آلاف اللعب وتبهجه صنوف الحلوى وتأخذه ألوان الثياب الموشاة وأنا أرقب بعينى رأسى الشوارع النظيفة والسيارات الانيقة التى تروح فيها وتجيء والابنية الفخمة والعمارات الشاهقة التى تنبعث منها الاضواء مختلفة ألوانها فتشتم لها رائحة

حلوۃ تداعب عينيك • والنساء الجميلات اللواتي يسرن على الطوار ، أو تعطر ضحكاتهن الطريق ، أو يقفن في ثيابهن الداخلية في النوافذ والشرفات يتماوج شععرهن مع هواء الليل الخفيف •

كان هذا كله يطربني كثيرا ويلذ لي أن أراه • ويجعل عقلي الذي كان قد تبلد وراوان عليه البؤس كما يرين الصدا على الحديد فيشعل تفكيره • يرجع ويفكر من جديد • ويفكر تفكيراً حلوّاً جميلاً مستقيماً متزناً فيه ما يطمئن النفس ويبهجها ويصور لها الآمال العذاب في صورة مجلوة واطار مزخرف ثم يقربها اليه حتى لتكاد تتحسسها بعينيك وتلمسها بأصابعك وظلمت هكذا أسير من شارع الى شارع ومن ميدان الى ميدان • ومن حى الى آخر حتى هدأت الحركة وأقفرت الطرقات وأغلقت الشرفات والنوافذ • ورحت لأرى الا شبح الجندي العملاق في الليل كالمارد الجبار • ولا أسمع الا أزيز سيارة تمزق من جانبي كالسهم أو صوت حذاء الجندي الثقيل الضخم يدق به الارض دقا بغيضاً مزعجاً • فرجعت الى نفسي ونسيت سريعاً الارض دقا بغيضاً • عجا • فرجعت الى نفسي ونسيت سريعاً ما كنت فيه من لذة • ووجدتني في حاجة الى التفكير السريع والرأى السديد والفكرة الصائبة • • اذ لا بد لي فوراً ومن غير إبطاء أن أخلق لي مكاناً آوياً اليه الى أن ينقضى الليل •

ونظرت حولي وكنت أقف في ميدان فسيح تحف به الابنية الانيقة كأنها العرائس في الليل • وتطلعت الى البناء الجميل الذي أقف بجواره ، ورحت أنظر الى الطوار العريض الممتد أمامه • ولاحت لعيني بعض الظلمة تكتنف نهايته فسرني ذلك ورحت أنقل قدمي نقلاً هيناً وكلما غمرتني الظلمة زاد سروري لانى سأجد مكاناً لا يرانى فيه الجندي • فأنا لا أبغض شيئاً مثلاً أبغض رؤية هذا العملاق في الليل • وبينما أنا كذلك أسير حذراً على مهل ، رأيت شبحاً مستلقياً على الطوار بجانب الحائط فاقتربت منه وتأملته فوجدته شحاذاً مسناً قد خانتته قسواه فاستلقى على الطوار متهاكاً وقد أخذته اغفائة غير جادة ، فهو لا ينى يفتح عينيه بين الحين والحين كما لو كان يفتحهما في النهار للمارين يستجدي بهما العون كما يستجديه بقلبه ، ولسانه ويديه • ويقدر ما ألمتني شيخوخته المريضة التي تهالكت

على الارض عظاما يمسك بعضها بعضا من الخوف • سرنى أنه وجدت لى زميلا استعين به على الليل وعلى الجندى وعلى ما أنا فيه من حرج شديد ، فدنوت منه وحييته فى أدب رقيق ، وأنا أتجسس الارض وأجلس بجواره على الطوار وأقول بصوت خفيض جدا :

— السلام عليكم

فنفض الرجل عنه اغفائه ، سريعا وفتح عينيه المتعبتين ، ومد لى يده المرتعشة وشفته تهمهان ببعض الادعية ، فأسقط فى يدى وشعرت بالخزى والتورط الشديد اذظن الرجل اننى موسر سأصدق عليه • وآلمنى هذا • وآلمنى أيضا أننى انقلت له شيئا من الحقيقة فسأطفىء سريعا تلك الفرحة التى أنارت وجهه المتخضن • ومرت لحظات شعرت فيها بعرق الخزى يتصبب من كل جارحة فى ، فتركته وانصرفت صامتا أحث الخطى وتشيعنى حفنة من الشتائم والنعوت التى نعتنى بها الرجل ظلما اذ حسبنى مخمورا يتندر به • أو لاهيا يسخر منه • وفى الطريق وكنت قد قطعت شوطا كبيرا وسط الظلام رأيت صبيا صغيرا يحمل فى يده كوزا عرفت منه أنه جامع الاعقاب ، فتبعته مؤملا الخير فيه • اذ لابد أن يكون الصبى الصغير فى طريقه الى مكان ينام فيه • ولا بد أن يكون هذا المكان فى حى غير هذه الاحياء النظيفة التى يغمرها النور • وسار الصبى وسرت خلفه ، وراح المسكين يقطع عدة طرق فى الليل وينتقل من ميدان الى آخر • ومن شارع الى غيره وأنا خلفه أجر ساقى جرا من فرط الاعياء • وكلما خارت قواى ووقفت لأستريح وأحسست عيني بأنها ستفتقد الصبى فى الظلام أسرع خلفه لاهثا متقطع الانفاس • الى أن بلغنا شارعا أملت فيه الخير الكثير لان الظلمة كانت تغمره وتفيض عليه رائحة الفاذورات العفنة التى تكدست على جانبيه ، وكانت نفاذة بحيث تشعرك فى الظلام أنك فى حى من تلكم الاحياء البائسة التى لا ترد أمثالى أبدا ولا تلفظهم • ورحت والصبى أمامى أقطع هذا الطريق وكان طويلا جدا • الى أن لاح لنا نور من بعيد راح ينبعث من مكان قريب منا • فبحث الفتى الخطى فرحا كأنه قد عثر على شيء ثمين • وما ان بلغناه حتى وجدناه

حانة ما زالت عامرة بالرواد فى الليل ، وقد فتح نصف بابها فقط فانبعث منه الضوء الشاحب واستلقى على الطوار أمام الحانة فى الليل كالرقعة الصفراء . ورأيت الصبى يدلف اليها غير هيب أو متردد . أما أنا فوقفت على الطوار فى الظلام أحاصره بعيني حتى لايفلت منى . فرأيته غير الصبى الهزيل المتعب الذى كان يسير أمامى من لحظات . فقد رأيته نشيطا معافى ، سريع الحركة غماز اللفتة . ينقض فى سرعة خارقة على الاعقاب فيلتقطها بأصابعه . وكلما اعترضته مائدة أو مقعد كور جسده تكويرا غريبا حتى ليكاد يطويه كالجبلى ، ومرق من تحت المائدة أو المقعد . يقفز ويتريث حيناً . كأنه الكلب الصغير المدلل ينتقل من تحت مائدة الى أخرى . وظل كذلك يظهر حيناً فتراه عيناى ويختفى حيناً فأفقدته الى أن اختفى فجأة وطال اختفاؤه حتى ساورتنى الشكوك وركبني الخوف لانه لابد أن يكون قد خرج من الباب دون أن أراه . وقد تحقق هذا عند ما اقتربت فى حذر من باب الحانة وتلمسته فى قلبها فلم أجده . فأحزننى هذا كثيرا وهممت أن أغادر هذا المكان . ولكن الامل الذى يحلو له أن يسخر بالناس أحيانا فى وقت الجد . راح يغرينى بالانتظار لاننى لابد واجده .

ووقفت على الطوار فى الليل انتظر الصبى ، الى أن جاء رجل ضخيم الجثة زرى المنظر ووقف على الطوار فى النور أمام الحانة ووضع أمامه مايشبه الشئ الدائرى قد صنعه من الجريد ووضع عليه صينية كبيرة من الخشب عليها بعض صنوف من الطعام وراح ينادى عليها قائلا : على الله ، وما أن سمع من فى الحانة هذا النداء حتى ابتهجوا وهلموا وراحوا ينادونه باسمه هذا يطلب لسانا وهذا يطلب لحما من الرأس . . . وهذا يطلب جزاهر - وحتى الان لم اعرف ماهى هذه الجواهر - وراح الرجل بسكين كبير فى يده يقطع لحما ، ويكسر عظاما ويضع هذا كله فى أطباق صغيرة ، وكلما ملأ طبقا نادى بصوته الاجش : على الله ، وكلما خرج من الحانة بطبق فارغ نادى نفس النداء . وكلما ألقى الى كلب صغير أقعى بجواره عند الصينية بشئ من العظم ردد نفس النداء ، فينهال الكلب الصغير على تلك العظام فى شوق وفرحة يلعقها حيناً ، ويمسح

عليها حيناً آخر • وأحياناً «يعضعونها» بأنيابها الرقيقة المدببة
فذكرني هذا بالجوع وما يصنعه بصاحبه • وما أن ذكرت هذا
حتى وقعت في شقاء كبير • فقد تحرك فجأة وعلى غير انتظار
ثعباني اللعين • وراح يتمطي في أحشائي فيكاد يمزقها
تمزيقا قاسيا • وهممت أن أنصرف بهذا الأذى الذي أحمله
لولا أنني رأيت مصادفة • أو على الأصح ثعباني اللعين هو
الذي رأى قطعة كبيرة من اللحم قد سقطت من الرجل على
الأرض دون أن يراها • ودون أن يراها الكلب أيضا • وكان
هذا من سوء الحظ • إذ على الرغم مني تعلق عيني بها
وتشبثت بها تشبثا غريبا حتى لكأن قطعة اللحم هذه هي
حياتي • وهي دنيائي • وليس من السهل على الإنسان • أي
إنسان أن يفارق حياته لذلك وقفت أتطلع اليها وأصغى إلى
دقات قلبي وهو يكاد يقفز من بين جنبي هلعا وجذعا كلما
أبصرت بالكلب ، ورأيت يتلفت ذات اليمين حيث هي فقد
كان أخشى ما أخشاه أن يراها الكلب فيحرمني منها • وهكذا
وجدت نفسي مرة أخرى في مركز حرج دقيق • فأنا إذا اقتربت
منها ومددت لها يدي فسيراني الكلب ، وسيراني الرجل
وسيراني أيضا من في الحانة من السكران والمخمورين • وأنا
أحتمل كل شيء إلا أن يراني واحد من هؤلاء • كيف أحتمل
أن يراني الكلب وأنا أختلس منه شيئا ، وكيف يراني إنسان
مثلي وأنا أختلس شيئا من كلب • وأنا إن تركتها فسوف
لا يغفر لي الشعبان اللعين هذا أبدا ، لابد أنه سيميتني • وأنا
لا أريد أن أموت ، لأنه لا يوجد الإنسان الذي يريد أن يموت •
وفكرت • • وفكرت جيدا وجيدا جدا • وانتهى بي الأمر إلى
أنه ليس في استئاعتي أبدا أن أتغلب على عين إنسان أو عين
كلب • وبدأت في تقطيع حبال نظراتي التي شددت على ذلك
المنظر الجميل الذي اعترف بأنني أفارقه مرغما • ورحت فعلا
أقطع بعد تلك الحال وأخاس ما تشبث بها وانعقد عليها •
وبينا أنا كذلك ، كلما قطعت حبالا انعقد حبل آخر ، إذا بي
أفاجأ برجلين خرجا من الحانة تسبقهما رائحة الخمر الرخيصة
التي عبا منها كثيرا وأقبلا على في ثيابهما الانيقة • وما أن
أبصرا بي حتى مد لي أحدهما يده وصافحني في حرارة وشوق

زائد • وهو يقول فى سرور وابتهاج وفرحة غامرة :

— ازيك ياسى محمد •

فأسقط فى يدي • وقلت متلعثما وانا أنظر اليه مشدوها :

— ليس اسمى هو محمد ياسيدى •

فقال وهو لايزال يهز يدي بقوة :

— ياسيدى كلنا محمد • ومع ذلك فنحن أصدقاء • • ألا تعرفنى • • أنا محمود • ألا تعرف محمود •

ثم اقترب منى فى الظلام يترنح من فرط الخمر وهمس فى أذنى وهو يلوى لسانه بين شديقه :

— اصغ الى • • سأرضيك هذه المرة • • سأعطيك جنيهاً

أجل جنيهاً كاملاً • • فقط تصدق الوعد وتأتى لنا بشيء • •

أى شيء • • اجل أى شيء •

فقال الرجل الثانى على الفور • وكان على الطوار بجانب الحائط يترنح فى الظلام :

— شيء صغير • • صغير • • صغير جداً أنا لا أحب الا لشيء الصغير •

فقاطعه الذى يده فى يدي وهو ينظر اليه مغتاضاً وقال :

— ياسيدى اسكت أنت • •

ثم التفت الى وقال :

— قلت لك اى شيء • •

ثم لوى لسانه مرة أخرى وقال وهو يضغط على يدي ويهزها بين يديه فى حرارة وقوة :

— قلت جنيهاً • • جنيهاً • • أسمع سأعطيك جنيهاً •

فلم أفهم شيئاً من كل هذا وقلت هى الخمر • وهممت أن أسحب يدي من يده وانصرف بيده أننى لمحت من بعيد شبحاً يقبل علينا فى الظلام يسير على مهل وهو يتلفت حواليه ، فارتعدت فرائصى وارتعش جسدى خوفاً فقد حسبته المارد اللعين • •

وقلت أتريث قليلاً حتى أحتسى بهذين الرجلين المخمورين برغم ما هما فيه من سوء حال • • حتى ينصرف هذا المارد الجبار بيده أننى فجأة رأيت الرجل الذى أمامى والذى يدي فى يده يقفز من مكانه منتفضاً كمن لدغته حية وهو يقول :

— هاهى • • هاهى • • قلت لك جنيهاً ، جنيهاً •

ثم أخذ يهزنى من يدي وهو يقول مبهوراً :

— هاهى .. انظر . انظر .. انها امرأة .. امرأة سأعطيك جنيها ...

وكان الشبح قد اقترب منا فاذا به امرأة تمر بنا وتنظر إلينا فى الظلام وتسترق السمع وهى تسير متخاذلة حتى لكأنها تقتلع قدميها اقتلاعا من الارض . وما أن مرت بنا وابتعدت عنا خطوات حتى رأيت الرجل الذى أمامى يدهس يده فى جيبه سريعا . ثم يخرجها سريعا أيضا ، وبها جنيه حقيقى وضعه فى يدي وراح يطبق أصابعى عليه وهو يدفعنى خلفها دفعا قويا فى يدي وقد تدهورت أنفاسه وتدهورت معها أيضا الكلمات من بين شفتيه :

— هاهى .. انظر .. انظر . انها امرأة . امرأة . اذهب إليها ، اذهب . اذهب . يا محمد ، قلت لك أنا محمود . وفجأة رأيتنى أسير فعلا . وانقل قدمى خلفها نقلا ، وأنا أشد ما أكون دهشة من هذا الذى لأعرف منه شيئا ، ولكن فجأة رأيت المرأة تقف أمامى وتنظر الى فأسقط فى يدي وارتبكت ارتباكا شديدا بيد أن هذا كله لم يدم طويلا اذ رأيتها تقترب منى وتهمس فى أذنى وهى تضع يدها على كتفى كما لو كنا صديقين من زمن بعيد .
— أوافق أنت منهما .

ولما عجزت عن تحريك شفتى . قالت ويدها مازالت على كتفى تربت عليها فى رفق :
— ألم يقول لك كم سيدفعان ؟

فجحظت عيناى واصابنى مايشبه الحمى وراح جسدى ينتفض تحت راحتها التى وضعتها على كتفى ، وفجأة رأيت الرجلين معنا وأمامنا سيارة وهما يشيران إليها بأن تركب فركبت وركنا معها بعد أن مد لى أحدهما يده يضافحنى فلم أمد له يدي لانه لم يكن لى يد أمدها فى تلك اللحظة .

وهمت السيارة أن تنطلق بيد أن المرأة فجأة أمسكت بكتفى السائق صارخة وأصرت على أن تنزل ثانية ان لم أصحابها أنا فهى لا تطمئن الى مكان تجهله الا اذا كنت أنا معها .. أنا .. أنا من ؟ ؟ وارتعدت فرائصى ودارت بى الارض واضطرب قلبى اضطرابا شديدا لم استطع معه أن استرد أنفاسى ، ورحت

أنظر الى الظلام حولي وعيون السيارة التي تكاد تحرقني وفجأة رأيت الرجلين يهبطان الى الارض ويحملانني حملا الى قلب السيارة التي انطلقت بنا . وفجأة أيضا رأيتني وحدي في بيت فارغ تفتحت جميع أبواب غرفاته الا بابين اثنين أحكم اغلاقهما احكاما . الباب الخارجى للبيت . وباب غرفة معينة بالذات . ورأيتني أجلس وحدي فى صالة ضيقة الى مائدة قدرة من الخشب القديم المتآكل . أفكر فى هذا الذى حدث كله . ومن أنا . . وما هو السبب الذى جعل هذه المرأة تصر على أن أصحبها وأنها لا تطمئن الا بوجودي . . ترى من أنا حقيقة . . وهبها ظننتي كما ظنت . ولكنها لاتعرفني . . ولم ترني . . وفجأة وجدتني أبتسم من تلك الخيوط السوداء التي لاترى ، والتي تربط صنفا من الاشقياء بهذا الرباط المقدس فتصفى نفوسهم وتجلو قلوبهم فيعرفون في أخرج الاوقات كيف يكون وفاء البائس لبائس واطمئنان الشقي للشقي ورغم الرذائل والقاذورات التي يتمرغون فيها ، وانفرطت من عيني دمة فجففتها سريعا لانني أكره البكاء وأكره الرجل الذى يبكي . وبينما أنا أجفف تلك الدموع البغيضة الى قلبي حانت منى التفاتة فرأيت بابا صغيرا مفتوحا وشممت رائحة تتصاعد منه أشبه برائحة الخبز . أو هكذا خيل لى فهرعت اليه . وما أن عرفت انه باب المطبخ حتى انسرقت اليه سريعا كما ينسرق الفأر فى عتمة الليل ورحت أقلب بأصابعي كل شئ وأنبشه بأظفاري لعلى أجد كسرة خبز . ولكنى لم أجد وأأسفاه شيئا يمكن أن يسمى طعاما سوى قطعة صغيرة من الجبن مرت عليها أيام وأيام ، فعدت عفة كريهة الرائحة فأعدتها ثانية وانصرفت سريعا . لاننى سمعت مزلاج باب الغرفة المغلقة يتحرك . ورأيت بابها يفتح وتخرج منه المرأة وما هى الا لحظات حتى كنت بجانبها فى الطريق أسير صامتا ، وتسير هى بجوارى شاحبة الوجه منكسة الرأس مطبقة الشفتين لا تنبس . وظللنا هكذا نسير فى قلب الظلام . على غير هدى . وأخيرا التفت اليها وقلت :

— أين دارك . . أو الى أين تسيرين ؟

فأنفقت جهدا كبيرا حتى أقامت رأسها ورفعت عينيها عن

الارض ، وتمتعت قائلة بصوت لا يكاد يبين :
 - دارى قريبة • وقد مررنا عليها ، ولكنى لا أستطيع أن
 أذهب اليها الان ويدي فارغة •
 ثم بللت شفتيها بلسانها وقالت :
 - ولذلك سأنتظر حتى تفتح بعض المطاعم لأشترى خبزاً وجبناً
 فقلت :
 - أ جائعة أنت الى هذا الحد ؟
 - ليس من أجلى ولكن من أجل أولادى الصغار •
 فقلت وأنا لا أكاد أتبين وجهها فى الظلام •
 - ألك أطفال ؟
 - أجل ••
 - ولك زوج ؟
 - مات من ثلاث سنوات
 فصمت حيناً ثم قلت :
 - اذهبي الى بيتك الان واستريحي قليلاً • ثم فى الصباح
 احضرى لهم الخبز •
 فمدت يدها الى وجهها • ولم أر ما فعلت به • لاننا كنا فى
 الظلام وقالت :
 - مرت عليهم ثلاث ليال لم يطعموا فيها شيئاً • وكنت كما
 قلت أنت ، أتعلل لهم بالصباح فكيف أدخل عليهم الليلة أيضاً
 ويدي فارغة • هل يصدقون اذا قلت لهم انتظروا الى الصباح
 الذى أصبحوا يبغضونه ، لانه يبدد آمالهم •
 ثم انقطع حديثنا • وعدنا الى الصمت • ورحنا نسير
 فى الظلام • وظللنا نسير لانسمع سوى وقع أقدامنا فى الليل
 تلك الاقدام التى كنا من فرط اعيائنا ننقلها على مهل جداً ••
 ونظن أننا ننقلها بحذر •• الى أن قالت المرأة •
 - أتذهب الى حانة عزوز دائماً •
 فارتبكت جداً وأنا أقول لها :
 - لم أذهب اليها الا هذه الليلة •
 فقالت وهى تدنو منى وتسير بجانبى كالكلب الليف :
 - وأين مكانك الذى تفضله ؟
 وكان السؤال معقداً والاجابة عليه أشد تعقيداً ، وخشيت

ان لم أجب • أو ان اجبتها بالحقيقة أن أزيد الى قلبها جرحا
جديدا • لذلك قلبت الاجابة سؤالا وقلت :
- أتترددين أنت كثيرا على حانة عزوز ؟
فقلت :

- لا أتردد عليها أو على غيرها الا اذا أعوزتني الحاجة •
ثم عدنا ثانية الى الصمت والسير والظلام • ولكننا لم نسر
كثيرا هذه المرة لان الليل كان قد أنصرف عنا وانصرفت عنا
ظلمته • ورأينا مطعما قد فتحت أبوابه فهرعنا اليه ، ولن أنسى
ماحييت تلك الفرحة التي غمرتنا والبهجة التي فاضت عليها
وعلى وجهها الاصفر الشاحب • وهي تقف أمام المطعم وتطلب
من البائع كذا رغيفا وكذا جبنا • وكذا « فلافل » وقد لفت
نظري انها اشترت أشياء كثيرة جدا أكثر مما كنت أظن • •
خمس عشرة رغيفا • ونصف أقة من الجبن وخمس قروش
طعمية • ثم بعد ذلك انحنيت فى خبطة زائدة على بائعة فجعل
كانت بجانب المطعم واشترت منها فجلا كثيرا • ولاحظت بعد
أن ابتاعت هذا كله انها لاتستطيع أن تحمله على يدها الهزيلة
المعروقة • فطلبت منها فى خجل شديد ان أحمل عنها بضاعتها
الى أن تبلغ دارها ، ققبلت شاكرة لى هذا الذى ظننته فضلا
واعبرته جميلا •

ولم نقطع مسافة كبيرة لاننا كنا قد بلغنا الدار • وبعد أن
وقفت قليلا أخرجت مفتاحا من جيبها وفتحت باب بيت صغير
متهدم أو يكاد • ثم دلفت أمامى فدلقت خلفها واذا بى أرى
شيئا غريبا • رأيت أطفالها الخمسة ، وكانوا قد استلقوا
على الارض من غير غطاء • وما أن سمعوا صرير المزلاج حتى
أفاقوا من نومهم سريعا وما أن رأوها حتى تعلقوا جميعا
بأذيالها • تماما كما تتعلق القطط الضريبة بأثناء أمها • • •
وما أن رأوا الخبز أحمله أنا على يدي ، حتى تركوها وأسرعوا
الى والتفوا من حولى فى ابتهاج غريب • ورأيت أمامى مائدة
صغيرة عليها طبق فارغ نأزحنه ووضعيت بجانبه مامعى من خبز
وغيره • فانطلقوا اليها سريعا واحاطوا بها يشبون عليها
ويمدون اليها أيديهم الصغيرة • فمنهم من يبلغها فيخطف رغيفا
ويسرع به الى ركن من أركان الغرفة • ومنهم من تعجزه يده

القصيرة فيترك المائدة ويسرع الى أخيه فيرتدى عليه ويغتصب
منه رغبته اغتصابا • بعد معركة قصيرة •
ووقفت أتأمل هذا كله • وانظر اليه صامتا • ثم انصرف
صامتا أيضا لا أنبس

ومما أن بلغت الطريق وسرت قليلا حتى كنت
قد نسيت هذا كله • • • ولا أدري كيف نسيت
وبعد حين وجدتنى أمام مطعم فاخر للغاية • رصت أمامه
الارغفة الطازجة رصا جميلا • وقدر رائعة المنظر يتصاعد
بخارها الشهي ممتزجا برائحة الفول اللذيذة • فانطلقت الى
داخل المطعم تغمرنى فرحة طارئة وتخيرات مائدة كبيرة وجلست
اليها فى ابتهاج • ورحت أنتظر الخادم حتى يحضر فأطلب منه
كل ما أشتهى •

بيد أننى فجأة وجدتنى أغادر المطعم سريعا
وسريعا جدا • تماما كما دلفت اليه سريعا • وسريعا جدا ،
فقد تذكرت فجأة أننى وأنا أضع الارغفة للأطفال على المائدة
وضعت لهم أيضا بجوارها الجنيه الذى كان فى جيبى •

عندما يأتي الربيع



— كم الوقت الآن ؟

— التاسعة مساءً . .

فاختلس نظرة سريعة الى عينيها الجميلتين ، ووجهها المشرق الذي يكاد يلامس كتفه ، وقال :

— هل اطمع في أن أراك عندما ينتصف الليل ؟

وكأنها سمعت شيئاً مزعجاً فاضطربت أنفاسها وارتعشت يداها حتى اهتزت بين أناملها تلك الابرة التي غرستها في ذراعها فسمعته سريعا واستدارت مكفهرة الوجه ، تشاقت ظلّال أهدابها الطويلة على خدين كأنهما جناوة تنقد . وانصرفت تتعثر في خطواتها : وما أن غادرت الغرفة وبلغت ذلك الممر الفاصل بين غرف مرضى الدرجة الاولى ، حتى شعرت بدوار شديد فأسندت رأسها الى الحائط ، وظلت كذلك الى أن أقبلت إحدى الزميلات ، فرجتها أن تنوب عنها في إعطاء ما بقي من ابر لبعض المرضى . وذهبت هي الى غرفتها وما أن طالعها سريرها

الصغير الابيض القائم فى المخدع كالمحراب حتى ارتمت عليه لاهثة . وما هى الا لحظات ايضا حتى تفجرت الدموع من عينيها وراحت تسيل دافئة على وجهها المضطرب .
 انها كانت تنتظر كل شىء الا هذا الذى حدث الليلة . . اذ كيف يجرو هذا الشاب . . أو غيره من الناس على أن يتناول عليها : ويسر اليها هذه الكلمات التى تنطوى على هذا الهول الكبير . . أهى من هذا الصنف الذى يظن ؟؟ هل بدت له يوما كذلك ؟؟ هل أتت أمرا ما يخول له أن يرتكب معها هذا الاثم الذى تورط فيه . أو الذى يريد الليلة أن يتورط فيه ؟؟ ترى هل هذا هو جزاء اهتمامها به ، ورعايتها له : وسهرها على راحته وتمريضه والعناية به . . ومع ذلك فهى لم تهتم به أكثر من سواء . . لم ترعه أكثر من غيره . . لم تقدم له أكثر من تلك الابتسامة التى ترسمها على ثغرها مرغمة كلما دخلت عليه ، أو على غيره من المرضى لتشجيع فى نفوسهم البهجة والامن والطمأنينة ، وتخفف عنهم آلامهم .

حقيقة أن هذا الشاب منذ جرحته قدمه ، وهوى ضيعته ، ودخل هذا المستشفى الريفى وقيل أنه ابن عظيم من العظماء ، والعناية به تفوق كل حد ، فجميع من فى المستشفى وعلى رأسهم كبير الاطباء نفسه فى خدمته ليل نهار ، وحرصا على توفير أسباب الراحة له اختارها كبير الاطباء بالذات . ثقة منه فى عنايتها بمرضاتها ، لتقوم على خدمته ، وقد قامت بما يفرضه عليها الواجب ، وما هو أكثر من الواجب - فالدواء فى مواعيده المحددة ، والطعام هى التى تشرف عليه وتعهده له ، وأدق ساعات العالم تضبط حينما تغرس ابرة البنسلين فى ذراعه فى المواعيد المقررة من النهار أو الليل . . وما من مرة لمست أنامله الجرس ، الا كانت على رأسه تسأله ما يريد . . فهل هذا هو الجزاء ؟ . . وهل هذه هى الحسنة التى تنتظرها على ما قدمت له من صنع . . ؟ ومدت أناملها المرتعشة وجففت بعض الدموع ، ثم عادت الى نفسها . .

ولكن . . ترى ما الذى جعل هذا الشاب يركب رأسه ويهمس لها بما همس ؟! . . الا أنه ابن عظيم من العظماء ؟ . . الا أنه رجل ثرى ؟ . . وهل بالمال يباع الشرف ويشترى ؟! . . ترى أى سوق هذه التى يعرض فيها . . ؟ وأى مال هذا

الذى يقومه ؟! أم هو ارتكب هذا الجرم . أو هو يريد ارتكابه :
لأنها تقوم على خدمته . . أو لعله ظن . اذ تفعل ذلك . انها
خادمة . . وهل من المفروض على الخدم أن يقدموا للسادة كل
ما يريدون حتى ولو كان يغضب الله ولا يرضى الناس ؟؟ وكيف
يركب الانسان عقله الى هذا الحد فيظن ان نساء الارض جميعا
حل لرغبات الرجال ونزواتهم .

ومدت أناملها المرتعشة الى عينيها الجميلتين وجففت بعض
الدموع . . ومن ثم عادت الى نفسها مرة أخرى . . ولكن ماذا
يريد عندما ينتصف الليل ؟ . . بل وماذا يريد الرجل من
المرأة اذا ما همس في اذنها وحدد لها موعدا ؟!

وجحظت عيناها . . . وتعالى دقات قلبها . . واربدت
سحنتها وهي تتمتم بصوت كأنه لفحات النار . . لن اذهب
اليه . . لا عند ما ينتصف الليل ، ولا عندما يطلع الفجر . .
وسوف لا اذهب اليه أبدا . . لا فى الليل ولا فى النهار . .
وليكن ما يكون . . وليفعل كبير الاطباء ما يشاء . . ليلق بى
خارج المستشفى . . ليجعلنى أتشرد فى الطرقات . . أهيم على
وجهي . . أتضور جوعا . . فكل هذا أحب الى مما يدعوننى
اليه . . مما ينتظر لى عندما ينتصف الليل . . ولكن ما الذى
ينتظره عندما ينتصف الليل . . ؟

وتتمتم بصوت كأنه لفحات النار . .

ليتنى أدرى . . ليتنى أدرى . .

وشعرت بما يشبه الضيق يطبق على أنفاسها ويكاد يخنقها :
كما أحست بأن الملابس التى ترتديها تفعل هى الاخرى
بجسدها المضطرب ما يجعله ينوء بها ، فهي تزم عليه حتى لتكاد
تخنقه . . . فقامت الى الباب وأغلقتة ، ومن ثم تجردت من ثيابها
جميعا الا من غلالة رقيقة ودت لو تخلصت منها هى الاخرى . .
وذهبت الى النافذة وفتحتها لتستنشق بعض الهواء . . فطالعتها
حديقة المستشفى الكبيرة ، نائمة فى أحضان الليل كالعذراء
الناعمة . يرسل الربيع الندى أنفاسه اليها فى الليل ، فيحيل
كل ما فيها الى غير يتضوع . . ورأت شيئا جميلا لم تكن لتقدر
أنها ستراه . . رأت القمر فى السماء يتألق نورا وبهاء وفتنة
وكأنه لافتى العاشق يغازل تلك العذراء ويداعبها ويرسسل

ضحكاته اليها ، فتتألق وورودها وتزدهر أغصانها ويروح كل ما فيها في خفر جميل يرد للعاشق قبلته قبلات • وبسمته ابتسامات • فالزنايق كلما داعبها النسيم • ومستها في رفق أنفاس الربيع تميل ذات اليمين وذات الشمال على أغصانها المترنحة • • والورود البكر ذات الاكمام • كلما قبلها القمر وهبت عليها أنفاس الليل ، تفتحت أوراقها ورففت أفوافها وراحت في الليل تتضوع مسكا •

وسرها هذا الذي تراه ، وهدهد قلبها الثائر ، فراحت تتطلع اليه منتشية وقد تسلل القمر اليها من النافذة فأثار وجهها ونصف صدرها العاري ، وأحالتها هي الأخرى الى زهرة يانعة متفتحة • •

ولكن ما الذي ينتظرها عندما ينتصف الليل ؟
• • أجل ما الذي ينتظرني عندما ينتصف الليل ، وما الذي يريده مني هذا الشاب الجميل ؟! • • وما الذي يقصده بهذا الهمس الحلو الذي همس به في أذنها !!

وتعالت دقات قلبها وهي تتمتم بصوت كأنه لفحات النار • • لا • • لن أذهب اليه • • لن أذهب اليه • • وليكن ما يكون فما كان أبدا للثمار البكر أن تجنى هكذا خلصة وغدرا • • ومن ذا الذي سيغدر بك ؟ ! • • هو • • هو • • لقد كان يجب أن أتوقع هذا من زمن بعيد • • بعيد جدا • • من اليوم الذي دخل فيه هذا الفتى الجميل المستشفى • • من اللحظة التي رأيته فيها • • أو رأي هو فيها • •

ولكن من الذي قال لك ذلك ؟!

هو • • هو • • أجل هو • • ابتسامته الحلوة التي يقابلني بها كلما دخلت عليه • • عيناه • • عيناه الناريّتان • • نظراته • • نظراته التي تنفذ الى قلبي : فتصهر جسدي وتكاد تجردني من ثيابي • • ثم أنامله • • أنامله الرقيقة التي كانت تمسح يدي مصادفة اذا اقتربت منه : فتترك عليها تلك الآثار التي تشبه الحروق • • أجل هو • • والان فقط قد عرفت • • ولن أذهب اليه • • لن أذهب اليه • • لا عندما ينتصف الليل • • ولا عندما يطلع الفجر • • وسوف لا أذهب اليه أبدا • • لا في الليل ، ولا في النهار •

وما الذى تخشيه اذن ؟ ! لا شيء .. لا شيء ..
وما من قوة فى الارض ترغب امرأة على شيء .. اذن
اذهبى اليه وانظرى ماذا هو فاعل .

لا .. لا .. اننى أخاف .. اننى أخاف .. مم تخافين ؟؟
.. منه .. من عينيه الناريتين .. ذراعيه القويتين .. صدره
العريض الخافق الذى يكتنفه شعر أسود كث مدبب كأنه أسنة
الحراب .. كل شيء فيه .. وجهه المشرق الذى ينعكس نوره
فى عيني نارا تحرق جوارحى وتحيل كيانى الى ما يشبه
الرماد .. أجل اننى أخافه .. ولن أذهب اليه .. فلو أن الامر
مثلا : وقف عند قبلة واحدة أو حتى قبلات . ليسر وهان ..
ولكن من يدري ؟! .. قد ينصب لى الشباك وقد أقع فريسة
بين ذراعيه .. فهل أستطيع عندها أن أفلت ؟ .. هل سيقوى
خصرى هذا الواهى النحيل . على أن يرد ذراعه تلك القوية ؟
.. هل تستطيع يدى هذه الصغيرة أن تقاوم ؟ .. واذا لم
أستطع .. أصرخ ؟ أستغيث ؟ .. وبماذا أستغيث اذا كان
هو من المكر والدهاء بحيث حاصر ثغرى بشفتيه ؟ .. هل
سأستسلم ؟ .. هل سأستكين ؟ .. واذا استسلمت
واستكنت .. ماذا يحدث ؟! لا .. لا .. لن أذهب اليه ..
لن أذهب اليه .. وليكن ما يكون ..

وأغلقت النافذة فى دعر ، ووقفت فى وسط الغرفة ذاهلة .
وكلما ألقت ببصرها الى شيء ما ، عادت فردته مغلفا بشبكة
لا ترى من الدموع .. وظلت كذلك الى أن تهتكت فجأة تلك
الشبكة ، وتفجرت الدموع من عينيها ، وراحت تبكى فى
سكون الليل بكاء حارا ، الى أن غابت عن نفسها وعن دنياها
.. بيد أنها فجأة التفتت مذعورة تضطرب .. فقد سمعت
الساعة الكبيرة الدقاقة فى الممر ، تدق الثانية عشرة .
ولكن .. ولكن ماذا ؟ !

كقدمى هزيلتين مغروقتين مقرورتين دائما . وابتعت بالقروش
حضر هو الى ؟ .. أجل .. وهبت خائفة ترتعد
وذهبت الى الباب وأحكمت رتاجه الداخلى .. ولكن هل يجرو
أن يفعل هذا ؟؟ .. يفعل أكثر من هذا .. ان الرجل اذا أراد
غدا مجنونا .. وهل هو يريد ؟؟ أجل يريد .. يريد ماذا ؟!

يريدك أنت .. انه يحبك .. يحبك .. ولكنى أبغضه ..
 أبغضه .. أبغضه .. لا أريد أن أراه .. وسأقول له ذلك ..
 الان .. وفي هذه اللحظة .. سأقول له اننى أبغضك ..
 أكرهك .. لا أريد أن أراك .. سأقول له ان من الثمار ما لا
 يمكن جنيها أبدا .. وأن من الورود ما لا يمكن قطفه أبدا ..
 سأقول له ذلك .. حتى ولو أدى الامر الى أن أردده رداً غير
 حميد .. أن أصفعه على وجهه .. أن ألقى به من النافذة ..
 وهمت بأن تنصرف اليه ، بيد أن نظرة عارضة حانت منها الى
 المرأة فرأت جسدها العاري الا من تلك الغلالة الرقيقة ، فمدت
 أصابعها اليها فتحسستها ، ولما لم ترض عنها نزعتها عن
 جسدها ، وبعد حين راحت على مهل ترتدى ثيابها .. وفكرت
 أى الثياب تختار .. ولكن هذا الثوب الجميل .. اننى لم
 أرتده من زمن ، فلماذا لا أرتديه الليلة ؟! وارتدته ، ومن ثم
 راحت تنظر في المرأة الى ما ينطوى عليه هذا الثوب الماكر
 الخبيث من فتنة واغراء .. ولكن هذا الهدب الطويل المسترخي
 .. قليل من الكحل فى الزاوية يكمل الرواء ، ويفعل فعل
 السحر .. ومدت أناملها اليه .. ولما فرغت منه وقفت تتأمله
 حيناً .. وتعبث بأناملها حيناً آخر فى درج من أدراج خزانة
 ملابسها .. وما ان اصطدمت أناملها بشيء صغير حتى فرحت
 فرحاً لا يقدر ، فقد وجدت أصبع الاحمر الذى لم تره منذ
 سنين

ولما أتمت كل شيء ورضيت عن كل شيء ، انصرفت تقطع
 على مهل ذلك الممر المظلم ، وكأنها فى زينتها احدى غانيات
 الاساطير تخطر فى الليل .. حتى بلغت باب غرفته ، فمدت
 أناملها وفتحت الباب فى حذر ، ثم انسرفت كالنسيم متسللة
 الى الداخل تسير على أطراف اصابعها .. حتى اقتربت منه ..
 ونظرت اليه .. ورأته مستلقيا على سريره الصغير الابيض
 يسبح فى اغفائة جميلة كأنه ملاك ينعم بحلم جميل .. وبسرهما
 ما رأت فراحته تتأمل .. تتأمل كل شيء فيه ، وكأنها تراه لأول
 مرة .. ومدت قدمها الصغيرة الخافية وتقدمت خطوة من المرأة .. ثم
 وقفت وأرسلت نفسها رقيقا كأنه عبير الزهر .. ثم عادت الى
 قدمها الصغيرة العارية ونقلتها مرة أخرى .. وتقدمت

خطوة ثانية .. وحطت كالعصفور بجانبه على حافة السرير ..
 وطالعتها صدره العريض فراحت تنظر اليه .. ورأت ذراعيه
 القويتين .. ثم وجهه الجميل وعينييه الغافيتين .. ثم شعره
 اللامع المتهدل بجانبه على الوسادة وكأنه حول وجهه الابيض
 المشرق ، سحابة سوداء تحف بهالة من نور .. وشاقها الجمال
 .. جمال شعره اللامع المتهدل .. فمدت أناملها في حنان
 اليه .. ومست جبينه المشرق وشعره اللامع .. وأحس وهو
 نائم بشيء كأنه النسيم يمس جبينه في رفق .. ويداعب
 شعره في حنان .. ففتح عينييه في هدوء ، وما أن رآها أمامه
 حتى اعتدل في جلسته ، وقال على الفور وهو يمد يديه في
 خجل ، ويطرح على صدره العاري الغطاء ..
 - كم الوقت الان يا آنسة ؟
 - لقد انتصف الليل ..
 - شكرا . فقد حان موعد الابرة الثالثة

رقان الجناين

بعد الكاتب للعهد كتابا جديدا
ضمنه أعنف المآسي الجنسية التي فصل
فيها القضاء المصري على طريقته
القصصية المعروفة ، وهذه هي إحدى
المآسي التي تضمنها الكتاب المذكور
وان كان فصل الحاكم فيها قد أرجى
للكتاب نفسه .



كنت كلما نظرت اليه ، آمنت بأن قسوة الشقاء هي في
تعلمه ، وليست في تحمله وان من فضل الله على الاشقياء أنهم
يتعلمونه سريعا ، ويحملون أعبياءه مهما ثقلت ويسيطرون بها
وسط الناس كأنهم منهم . . فأنت لا تستطيع أن تنظر الى
عم رضوان أو تجلس اليه . وتتأمل لحيته الطويلة المسترسلة
على صدره بيضاء ناصعة كأنها النور يقطر صفاء وطهرا . أو
تري وجهه الضاحك برغم تغضنه وبرغم استبسالة المضني
في سبيل اللقمة ، أو تستمع الى أحاديثه العذبة يرسلها

بأبلغ الحكم . وتظن أن هذا الرجل يخفى في صدره همًا كبيرًا . أو يختزن في قلبه حزنًا . أو حتى هو يفكر مجرد التفكير فيما يسمونه الحزن أو الشقاء .

وعم رضوان هذا علم من أعلام قريتنا هو في القرية كالخطوط القديم في المكتبة الحافلة . فهو أثمن كتبها لقدمه وأعزها لندرته . ولو لم يكن أحسنها موضوعا وهو قد بلغ الثمانين من عمره وزاد عليها بضع سنين ، ولم يبلغ أحد في القرية هذه السن . لذلك كان عم رضوان هو الأب والجد وجد الجد . مع أنه لا ابن له ولا أسرة ولا حتى قريب من بعيد ولكن القرية جميعا كانت أسرته وأبنائها أبناءه وبناتها بناته ما من فتاة كانت صغيرة تلعب عند عربته الصغيرة التي يبيع عليها الفاكهة في القرية الا كبرت وتزوجت وأنجبت أطفالا . كل ذلك وهو جالس أمام عربته على رأس الزقاق ينادى على بضاعته بصوته الجميل . ويودع هذه ويستقبل تلك لتودعه سرها . فقد كان قلبه هو الخزانة التي تودع فيها القرية أسرارها . فما من امرأة في القرية تحمل سرا الا أودعته قلب عم رضوان . وما من أيم وأرملة أو ثيب الا يحس عم رضوان بأحاسيسها ويتلمس لها الحيرما استطاع . وما من عذراء التفت كعبها ونضجت ثمارها وطاب قطافها، الا بحث لها عم رضوان عن البستانى الذى يعرف كيف يجنى الثمار ، كل ذلك وهو سعيد بهذه الحياة راض عنها الرضا كله ، الى أن التقى ذات يوم بمبروكة . . وكانت «مبروكة» هذه طفلة لا يعرف عنها شيئا الا أنها ألقيت في الحياة قضاء وقدرًا، كما يلقي بعشرات من أمثالها في الدنيا كل يوم . فنشأت يتيمه معدمة تستجدي اللقمة من كل بيت وتغيب النهار كله تتحسس بقدميها الحافيتين أزقة القرية وحاراتها متلصصة على تلك اللقمة من ثنايا الابواب . . فاذا ما أعجزتها في النهار ذهبت في الليل الى الاجران وراحت تبحث عنها بين تلال الاتربة وأكوام الروث ، كما تبحث الكلاب الضالة عن طعامها فى القمامات . وتنش الدجاجات الجائعة عن رزقها فى الارض حتى يغلبها النوم فتنام كما هى عند سفح ذلك التل أو على رأس الزقاق الى أن وجدت ذات ليلة من عربة عم رضوان مأوى لها يقيها

غائلة الصقيع • فكانت تنام تحتها متخذة من عجلتيها
الصغيرتين حصنا حصينا • وتظل نائمة الى أن يعود عزم
رضوان من المسجد بعد صلاة الفجر فيوقظها مشفقا عليها
حيناً ومقيماً أودها حيناً • بأن يقدم لها كسرة من الخبز • أو
بعض الفاكهة العطبة • أو رغيفا صحيحا من تلك الارغفة
الطازجة التي بيعت بها فاكهته ، أو هو أحيانا يشركها في
طعامه

وشعرت الفتاة بهذه النعمة الجزيلة ، وذاقت حلاوة
الرغيف الصحيح بعد الكسرة الجافة • ولذة الشبع بعد
قسوة الجوع • واستشعر قلبها السعادة كلها وهي تأكل مع
الشيخ وتغمس لقمتهما معه في ذلك السائل الذي اختلط بشيء
من ادام • وكانت كلما شعرت بهذا وأحست بنعيمه يفيض
عليها همت بأن تقول للشيخ شيئا • ولكنها لا تعرف ماذا يقال
للناس عن هذا الفضل • ولا ماذا يسدى اليهم على هذه النعمة
فتكتفى بأن تنظر الى وجهه في صمت وكأنها تنظر الى كتاب
كريم نزل بالخير للناس وتروح تتبعه كالكلب الامين وان ذهب
الى المسجد للصلاة فهي عند العربته تهش عليها وتذب عنها
وتحميها من عبث الاطفال والصبية • أما اذا ما غاب الشيخ
ساعة أو بعض الساعة فهي المنادية على الفاكهة بصوتها
الصغير كما ينادى الشيخ على فاكهته مغنيا بصوته الجهر وهكذا
كانت الصلة بين الطفلة والشيخ • وممرت الايام • وممرت
سريعة جدا على الفتاة ودائما ما تمر الايام سراعا على الفتيات
الصغيرات أشبه ما تكون بانسام الربيع أو أنفاس الفجر •
تترى رخاء وتهب صفاء فيورق العود ويينع الغصن وتعبق
الازهار • وهكذا سريرا مرت أيام مبروكة ففرع عودها وأينع
غصنها وراح تحت الثوب الاسود الفضفاض ، يتموج كالشذى
فيملا الجو عيرا وعطرا ، ونظر عم رضوان الى هذا الغرس
الذي زرعه يده • وتعهد عطفه ورعاه • رأى ساقها الجميلتين
وكيف رقت بشرتها والتفت على ما يشبه النور • ورأى ردفها
وكيف برز من العدم فجأة وراح سرا يناغى الثوب ويداعبه
في الخفاء • ورأى أشياء أخرى كثيرة جدا ولكن شيئا واحدا
هو الذي هاله أن يراه • رأى صدرا عريضا قد خرج على
الوجود فجأة في استعلاء واستكبار وقد أخذته العزة بالجمال

واستهوته الفتنة بالناس فأطل على الدنيا فخورا يختال تحت
الثوب برمانتين جميلتين طاب قطافهما ونفذ سحرهما وهو
قد رأى من قبل صدورا كثيرة زانها الجمال وزينتها الفتنة .
رأى صدر فاطمة . ومنجده . ومباركه . وزيناهم . وكيداهم
وأكابر ، وأم الخير . ولكنه لم ير صدرا كصدر مبروكة .
ولذلك راح يتطلع اليه دائما . وكأن هذه الرؤية استهوته
فراح يغافلها بين الحين والحين وينظر الى نهديها البارزتين
وما فعله طليشها بالثوب الذي بدت ثقبه على الصدر وكأنها
منقار طائر جمبل . وكانت تسره كثيرا هذه الرؤية . رؤية
هذه الثقوب التي نفذت منها رائحة الانوثة تغمر منخاريه ،
فكان لا يسعه الا أن يغض من بصره مفكرا .

وفكر عم رضوان ، وفكر كثيرا جدا حتى أجهده التفكير
وهو يبحث بينه وبين نفسه عن البستاني الماهر الذي يعرف
كيف يعرك هذا العود . ويجني هذه الثمار . ويتذوق طعم
الفاكهة التي طاب قطافها . . . ولكن لماذا لا تكون أنت ؟ .
أنا . . . وبرقت عيناه ، وتدهورت أنفاسه سريعا وراحت
شفتاه تردد بعض آيات من القرآن . ومن ثم ترك عربته وراح
يبحث الخطى الى المسجد ، وما أن بلغه حتى جلس في ركن من
أركانه يتلو القرآن . وظل كذلك الى أن أذن في الناس
بالصلاة فصلى معهم ، ومن ثم ذهب الى داره بعد العشاء .
وجلس الى - الطبلية - التي أعدتها له مبروكة . وجلست هي
قبالته تقدم له الطعام وتنتقى له رأس هذه الفجلة الطرية ، وقطعة
الجبن النظيفة ولقمة الخبز هذه التي تقوى أسنانه على مضغها
وتصف له جمال هذه الرجل التي جمعت أعوادها من الحقل
بيديها وطهتها له من غير أن يعلم ، وبسمل الشيخ وراح
يتناول عشاءه صامتا مغمض العينين لا ينبس الى أن مد يده
ليقطع عودا من الفجل والتقت أنامله مصادفة بيد مبروكة .
واذا بشيء كأنه النار يكاد يحرقه ، فرد يده سريعا وفتح
عينيه وعندها عرف أن مبروكة جالسة معه تقاسمه العشاء
وهم أن يقول لها شيئا ولكنه أثر الصمت وأغمض عينيه من
جديد بيد أنه بعد حين وجد نفسه يقول لها وهو يرسم ابتسامة
كبيرة على شفتيه :

- ستتزوجين يا مبروكة .
- فلم يتورد وجهها خجلا كما هو منتظر، وانما اكتنفته سريعا
- صفرة شاحبة وقالت وهي تعالج اللقمة التي شرقت في حلقها:
- أتزوج ؟
- أجل . .
- اذن أنت تطردني ؟
- فتمتم الشيخ وهو يمد يده الى عود آخر من الفجل :
- وهل يطرد الاب ابنته .
- فترقرقت الدموع في عينيها وهي تمسك بيده مرتعشة:
- لاتزوجني . . لاتزوجني .
- الى هذا الحد تخشين الزواج .
- أخشى فراقك .
- فقال الشيخ وهو يمد عينيه الى وجهها :
- هذه سنة الله .
- فانهمرت الدموع من عينيها وقالت خائفة وهي تقبل يده
- وتبللها بالدموع .
- لاتزوجني ان كنت حقيقة تحبني .
- والناس . ؟
- أتخشى الناس ؟
- وحانت منه الفتاة أخرى اليها فوقعت عيناه على صدرها
- فرد بصره سريعا وتمتم وهو يلقي بوجهه الى الارض :
- وأخشى الله يا مبروكة .
- اذن تزوجني أنت .
- ففتح عينيه مندعرا كمن أصابه مس وقال :
- أتزوجك أنا ؟
- ومسحت الفتاة الدموع المنسابة على شفتيها وقالت :
- لاكن زوجك عند الله . كما أنا ابنتك عند الحقيقة .
- وكان ما أرادت الفتاة ، وقدرت مبروكة في أبيها هذا
- الصنيع الذي قدمه اليها . وهذا العطف الذي أسبغه عليها .
- فقد كانت كل أمانيتها أن تسعد الرجل الذي أسعدها وتحسن
- الى الانسان الذي أحسن اليها . وتسدي جميلا الى من ربها
- ورعاها فراحت تعطيه من السعادة كل ماتملك المرأة ، ومن

الحب كل ماتملك الزوجة • ومن الرعاية والعناية والاخلاص
كل ما فرضه الله على الابناء للآباء، فهو عندها أمام الناس الاب
الرحيم • وعندها أمام الله الزوج الوفي • • أما بينها وبين
نفسها فهو الرجل الذي انتشلها من بين تلال الاتربة وأكوام
الروث • وأطعمها من جوع وآمنها من خوف •

وسعد عم رضوان بهذا كله سعادة لم يكن ليقدّر أن الله
يهبها للناس فانقلب شخصا آخر لا صلة له بالانسان القديم
يضحك دائما ، ويمرح دائما ، وينهل سعادة الدنيا وهناءة
الحياة من ذلك المعين الذي لا ينضب • وهو وفاء مبروكة • •
وجمال مبروكة • • وصدر مبروكة الذي كان قبلته • وهكذا
عاد اليه شبابه وزايلته شيخوخته • حتى أصبح لا يرى الا
نظيف الثوب أو ضاحك الشجر • أو مغنيا يرسل عقيرته
في الفضاء ينادى على بضاعته وهو في الحقيقة يتغنى بمبروكة
ويصف جمال مبروكة ويتغزل في صدر مبروكة •

ع الصدر زاین وم التیاب باین
یا أغلی من العین یارمٹاں الجنایین
ثم تأخذه النشوة وهو يتطلع الى وجه معبودته الضاحك
المتورد وطرفها الاسود المضمخ فيدفع عربته في قوة وسط
الزقاق مرددا بأعلى صوته :

أسمر وجمیل یابو رمش کحیل

یا احمر الخدین یارطب

أما اذا غازلته مبروكة • وكثيرا ما كانت تغازله • لانه كان
يحلو لها أن تستمع الى أغانيه فيها وتشبيهه بها • فكان ينسى
وقاره ويتناسى شيخوخته • فيترك العربة ويضع يديه على
صدغيه مغنيا :

رمان الجنایین یا أخضر رمانک یاحیبی طاب

وفی عرضک راسی بتوعجنی اعملی حجاب

فنجتمع نحن الصبية حوله • ونروح نردد معه الشطر
الاخير : اعملي حجاب • ونظل كذلك الى أن يأتي على وصف الحبيب
من شعره الى أخمص قدميه وصفا دقيقا رقيقا ممتعا ولا سيما
وصفه للصدر وما عليه من رمانتين • وما بينهما من جدول
يترقق منه العسل المصفى •

أما اذا اشفت مبروكة على ساعديه من ثقل العربة وراحت
تدفعها أمامه نياية عنه تجوب بها الحارات والازقة فهو من
خلفها ينظر الى غصنها الرطيب وفرعها المياد وما يخفيه الثوب
من فاكهة ويصف لنا مغنيا كل هذا أو بعضه في هذه الاغنية
الجميلة التي كنا نظرب لها جميعا ونسير خلفه لنسمعها .

بلدى أبو صوير	والتل الكبير وبنا
والبطن قشطه لفايف	والعسل له قنا
قلت يا جميل دوقنى	العسل قال لي
كل بنت عيشه	تعرف ليالى الهنا

بيد أن حظ عم رضوان العاثر لم يشأ له
أن يدوم هذا النعيم ، ولا أن تعمر هذه السعادة
التي كانت أشبه بعمر الزهر لا يلبث أن يطلع عليه الصيف
فيحترق . فقد ذهبت مبروكة ذات يوم الى النهر لتغسل
بعض الفاكهة وتنظفها كعادتها . فنزلت الى الماء ودفعت أمامها
«صفتا» ثقيلة امتلاء بالبلح فغاص منها في الماء فهمت به لتنقذه
فابتلعها اليم . ولم يقف لها على أثر الا عندما رؤيت جثتها
طافية على السطح .

وترامى الخبر الاسود الى عم رضوان فاستقبله ضاحكا غير
مصدق ما سمعت أذناه وكيف يصدق عم رضوان أن تموت
مبروكة . . قيل له أن مبروكة ذهبت الى النهر ولم تعد فسخر
وقيل له أن مبروكة قد ماتت فابتسم ولم يصدق . . وقيل له
هيا لنشيع جثة مبروكة ونترحم على جدتها الطاهر فضحك
من قولهم . . وترك أهل القرية جميعا يسرون خلف النعش
باكين مترحمين . وذهب هو الى داره وجلس ينتظر مبروكة .
ولما لم تعد وقضت أول ليلة في حياتها خارج الدار . خرج
مع الفجر يجوب أزقة القرية باحثا عنها وكلما قابله أحد
استوقفه وسأله في هدوء عجيب . . ألم تر مبروكة ؟ وأذكر
أنه التقى بى ذات مرة وكان ذلك بعد وفاتها بيومين فاستوقفنى
وسألنى عنها . فلم اتمالك نفسى وانسابت الدموع من عيني
فاقترب منى وربت على كتفى وهو يقول منصرفا :

- حتى أنت أيضا تصدق أنها ماتت .

وظل عم رضوان على هذا النحو زمنا طويلا . وكان كلما
برح به الشوق اليها ترك عربته يعبث بها الصبية في الزقاق

وذهب الى النهر وجلس على حافته يتأمل الماء وينتظر مبروكة
وكثيرا ما كان يسرح به هذا التأمل الى حد رؤية مبروكة . .
فكانت تخرج له من اليم . وتخرج حلوة جميلة كما كان
يشتهي . يزين صدرها ذلك الرمان الذي كان يحبه . وتروح
عارية في الماء تداعبه وتلاعبه . كما كانت تداعبه وتلاعبه في
الدار . ويروح هو يغترف بعينه ما يشتهي من صدرها ، ومن
ذلك الرقيق العذب الذي يتفرق في وسطه عسلا مصفى
ويظل كذلك الى أن تأخذه النشوة فيهم بتقبيلها . لولا أن
الحقيقة تصدمه فيعود من حيث أتى يجفف عبراته الصامتة
وظل كذلك الى أن ساءت حالته وهزلت شيخوخته وكذلك
خسرت تجارته خسرانا كبيرا ، فقد عرفنا نحن الصبية في القرية
ماهو الشيء الذي لا يرد به عم رضوان سؤالا فما كان على الصبي
منا الا أن يقدم اليه مليما واحدا . وأحيانا لا يقدم له شيئا
ويقول له :

— «وحياة رحمة مبروكة» فيعطيه بالمليم كل ما على عربته
من فاكهة . عطبة أو طازجة : وتبدي شقاء الشيخ في كل
شيء حتى في لحيته التي غام بياضها وغدت زرقاء باهتة أشبه
بجلد القنفذ الميت . وكان يبدو ذلك واضحا في جلسته
المتخاذلة أمام بضاعته يذب بيده المتعبة أسراب الذباب التي
تجمعت أمامه على حفنة من البلح الحامض وهو يغنى بصوت
لايكاد يبين .

صلاة النبي على عيشه وبلح عيشه

ياريت يوم الوداع لم كان ياعيشه

أو في رؤيته وهو يعبت بأنامله الحزينة في بعض حبات
من الجوافه العطبة ويردد :

— أغلى من الجواهر يا جوافه . . . الوقه بقرش .

وذهب عم رضوان الى النهر ذات ليلة وجلس على الشاطئ
ينتظر مبروكة تخرج اليه من اليم كالعادة . ولكنها لم تخرج
فأحزنه ذلك حزنا شديدا وعاد مكتئبا ينتزع قدميه انتزاعا
من الارض حتى بلغ داره . وهناك جلس على الحصير الذي
كان يجلس عليه مع مبروكة ، ورأى الطليقة التي كانت
تبعدها له مبروكة حافلة بأشهى الاطعمة منكفئة خلف الباب

ورأى القلة التي كانت تملؤها وتضعها له في المنور فتثلج في دقائق • ملقاة بعيدا قد كسر عنقها • ورأى شيئا آخر علق على مسمار صدىء في الحائط كما يعلق الانسان المخنوق في حبل ، فتبينه فاذا به قميص مبروكة الحريري الاحمر الذي كانت خاطته لنفسها وارتدته ليلة الزفاف • ثم رأى غير هذا كله شيئا لم يكن قد رآه من زمن • رأى في قلب الصندوق الصغير الذي كانت مبروكة تحفظ فيه ثيابها رمانتين جافتين كان قد احتفظ بهما عندها حين أوشك موسم الرمان على الانتهاء ليتغزل فيهما كلما أراد أن يتغزل في مبروكة ويصف صدرها ، رأى كل ذلك فأيقن أن مبروكة قد ماتت فعلا • وايقن أنه لا يستطيع بعدها أن يعيش في القرية مادام كل شيء فيها يذكره بمبروكة • وقام على الفور واحضر جوالا كان يستجلب فيه الفاكهة من السوق • ووضع كل مايملك • جلبابه القديم الذي ينام فيه • وبعض أرغفة جافة تقيم أوده في الطريق • وحرص حرسا شديدا على الرمانتين فلفهما باحكام في قلب القميص الحريري الاحمر ووضعهما في الجوال وحمله على ظهره • ومن ثم تسلل من القرية في الليل لا يرى أحدا ولا يراه أحد وظل يسير على غير هدى • ويضرب بعصاه في الارض ، وكلما لحقه الليل وضع الجوال على الارض وألقى برأسه الثقيل عليه الى أن يطلع الفجر فيواصل سيره • الى أن وجد نفسه عصر ذات يوم يجلس مع الجالسين أمام باب مسجد سيدنا الحسين وكما يحن الغريب الى الغريب ويتعرف البائس على الشقي تعرف عم رضوان على الشيخ متولى بائع العرقسوس أمام باب المسجد • وتوطدت الصلة بينهما سريعا ، ولما أقبل الليل اصطحبه الشيخ متولى الى داره في حارة المشاعلية - خلف المسجد تماما و اضافه في غرفته الصغيرة بالدهليز الفسيح في بيت الشوادفية وهو بيت قديم متآكل • وكان بالدهليز غرفة خالية استأجرها عم رضوان بعشرين قرشا يدفعها عندما ييسر الله له الحال • وكان بالدهليز خمس غرف أخرى يقطن احداها عم متولى • ويقطن الثانية الشيخ نوفل وهو فقيه ضريير يقرأ القرآن أمام المسجد • وتقطن الغرفة الثالثة المعلمة لبيبة الكراشاتية مع ابنتها أنوار • وهي تشتغل

فى الحى ببيع الكرشة والكوارع ولحمة الرأس ، وفى الغرفة الرابعة يقطن الاستاذ حسبو وهو - عرض حالجى - عند المحكمة الشرعية . واشتغل حيناً كاتباً لأحد المحامين لذلك كتب لافتة كبيرة على باب غرفته سطر عليها :

الاستاذ حسبو المناذلى ، وكيل الافوكاتو نجيب البشلاوى بالاستئناف العالى ومجلس الدولة ، والمحاكم الشرعية ، وعضو نقابة المحامين ، أما الغرفة الخامسة فتقطنها الست لواظ وهي امرأة فى مقتبل الشباب والنضارة ، وليسكن لا يعرف على وجه التحديد المهنة التى تزاولها . ووجد عم رضوان فى هذه الزمرة الجديدة بعض الراحة ، فقد أولوه جميعاً عطفهم ولا سيما المعلمة لبيبة التى ابتاعت له فى اليوم الثانى فرشاً متواضعاً واشترت بعض مصنفات من مخلفات الفاكهة وأجلسته بجوار طبيبتها على باب الزقاق ، ينادى هو على فاكهته . وتنادى هى على اللسان والمخ والجواهر وأكل الباشوات ياكوارع بتلو . وهكذا اطمأن عم رضوان الى حياته الجديدة وتوطدت علاقته جداً بالمعلمة . أما ابنتها أنوار فكانت تحب أحاديث الشيخ وفكاهاته الى حد كبير وكثيراً ما كانت تجلس الى جواره وتحدث اليه حديثاً طويلاً ، وجلست أنوار بجواره يوماً وكان يوم جمعة وهو يوم عطلتها فى مصنع الطرابيش الذى تعمل به النهار كله . وراحت تتحدث اليه كالعادة ، وهو يتحدث اليها كالعادة ايضاً . غير أن نظرة عابرة منه فى ذلك اليوم جعلته يرد الطرف سريعاً وهو يرتعش كمن أصيب بحمى مفاجئة . فقد رأى صدر مبروكة الذى يعرفه جيداً ورآه يدل تيهها بالرمانتين الجميلتين ويميس عجباً كلما هب التسييم على الثوب ولاح ذلك الجدول الذى يترقرق عسلاً مصفى . واغمض الشيخ عينيه وعاد ففتحهما ثانية فهاله انها حقيقة وليست مجرد خيال أو وهم كما تعود ان يرى فى أيامه الاخيرة فأطبقيهما وهو يرتعش . فسأله أنوار عما به فلم يجب . وكذلك سأله المعلمة لبيبة فلم يجب ايضاً . وانما ترك فرشاه وذهب الى غرفته المظلمة فى قلب الدهليز ، وما أن بلغها حتى ألقى بجسده وشفتاه تهمهان بالفاظ لا يسمع منها غير اسم مبروكة وتعالج عيناه دموعاً غزيراً انسابت على

لحينه الطويلة فأحالتها الى شبكة كبيرة من الدموع وظل كذلك لا يفطن الى نفسه الى أن دق عليه الباب الشيخ نوفل عند الفجر ليصحبه الى المسجد .

وعاد عم رضوان من المسجد وجلس الى «فراشه» على رأس الزقاق مبكرا على غير العادة وراح ينادى على بضاعته بصوت خافت وعينه ترقب من بعيد شيئا . الى أن خرجت عليه أنوار من الدهليز كما تخرج الشمس من خلف غمامة سوداء فاستوقفها وراح يداعبها ومن غير أن يفطن الى ما يقول وجد نفسه يسألها :
- أريد أن أتزوجك يا أنوار .

فضحكت الفتاة لهذه الفكاهة الطريفة وأسرعت في طفولة محببة، وأمسكت بلحيته وخنقت شعرها الطويل بين أصابعها وجذبت وجهه اليها حتى كاد يدانى وجهها وقالت وهى تضع سبابتها على ثغره :

- هس ماتقولش كده يا شاطر .

ثم انفلتت من أمامه كما ينفلت العصفور فى الهواء وغابت عن عينيه . ولم تدر أنها قد سببت له بهذه الدعابة المـ لا يـ احتمال فقد مكنته وهى تدنى وجهها من وجهه من أن يشم ذلك الأرج الذى يتضوع مسكا من صدر مبروكة . . . ولكن هل هو حرم فعلا من مبروكة . . . ولكن كيف يحرم منها وهى مازالت على قيد الحياة ؟ وما زال صدرها الذى يحبه يتضوع عبيره ويعم شذاه . . . اية قوة فى الوجود تستطيع أن تحرمه من حياته . . . من دنياه . . . من ذلك الرمان الجميل الذى طاب جناه . . . ان مبروكة لم تمت . . . واكتنفته فرحة غريبة أضفت على وجهه المترهل ولحيته المكتتة اشراقا جميلة أنارت وجهه وبعثت فيه الحياة من جديد ففتح عينيه ورأى الصبية من حوله ورأى فرشته وما عليه من فاكهة ولاول مرة بعد أن ماتت مبروكة انطلق صوته بالغناء الجميل .

وأقبلت مع الضحى المعلمة لبيبة . وأقبلت كما هى العادة بعجيجها وضجيجها تحمل على كتفيها عدة حبال علفت بها رؤوس بعض الثيران الكبيرة . وعدة ارجل تسيل منها الدماء وبين يديها كرش كبير تنسال منه رائحة الروث العفنة ، وما أن بلغت طبليتها الكبيرة بجوار فرش عم رضوان . حتى ألقت عليها بكل هذه الاحمال وهى تقول فرحة منورة الوجه :

— مبروك يارضوان .

— خير ياست

— أنوار اتخطبت ..

وقبل ان يجيب بشيء قالت الست لواظظ التي كانت قد أقبلت من بعيد تسبقها عدة فرقعات كبيرة . بعضها تحنننه اللبانة الكبيرة التي حشرتها في فمها . وبعضها ينبعث من ششبها الاسود اللامع الذي تزينه وردة حمراء .

— مبروك يامعلمة اتخطبت لمن ؟

— عبده افندى المكوجى اللى على رأس الزقاق .

ولاحظت المعلمة شيئاً غريباً اكتنف وجه عم رضوان فسألته فقال سريعاً وهو يرسم على وجهه ابتسامة باهتة :

— لاشيء .. كنت أريد أن أتزوجها أنا .

فضحكت المعلمة حتى استلقت على قفاها . وقالت الست لواظظ وهي تنصرف غامزة بعينيها :

— انت تتجوز المعلمة .

وأثرت هذه الكلمة فيه تأثيراً كبيراً لأنها ذكرته بحقيقته المرة . بالزمن الذى يعبث بشيخوخته على هذا الوضع المهن . والايام التي تسخر من وجهه المتغضن ولحيته الطويلة والقدر الذى لا يريد ان يشفق على تسعين عاماً ، انقضت في شقاء لا يحتمل . ثم قلبه الذى ما زال يهفو الى صدر مبروكة كما يهفو الوليد الى صدر امه . واثر فيه هذا تأثيراً عميقاً . حتى خارت قواه . وظل كذلك أياماً أحس خلالها بأنه سيموت . فلم يزعجه هذا الاحساس بل أطربه الى حد كبير لأنه سيالتقى بمبروكة كما حدثه بذلك الشيخ نوفل . وسيستعيد معها سعادته وهناءته . وسيلقى برأسه هذا الثقيل على صدرها ويستنشق عير ذلك المسك من جديد . ولكن هل ماتت مبروكة حقيقة حتى يلتقى بها هناك ؟ وفجأة تولاه احساس جديد بأن مبروكة لم تمت . وانها ما زالت على قيد الحياة وانها تعيش معه في دهليز واحد . وكل مافى الامر انهم انتزعوها منه انتزاعاً . ليزوجوها من عبده افندى المكوجى الذى على رأس الزقاق . ولما تأكد من ذلك بينه وبين نفسه أحس بأنه لم يمرض وأنه مازال في صحته وقوته وأنه يريد

أشياء وأشياء • فترك مكانه وألقى بمذبتة بعيدا وراح طوال اليوم يقطع الزقاق ذهابا وجيئة • يبحث حينا عن عبسده افندى المكوجى الذى على رأس الزقاق • وحينا عن مبروكة التى يريدون انتزاعها منه ، ومع انه كان يلتقى بعبده وبأنوار عشرات المرات فى اليوم الا أنه لم يرهما • • وظل كذلك اياما الى أن تعب وأحس بأنه يريد أن يستريح فذلف خلسة دون أن يخس به أحد الى الدهليز • وبينما هو يقطع ظلامه أحس بحركة فى غرفة المعلمة ، فخرج عليها من غير أن يدرى وتلصص من ثقب الباب • فاذا به يرى شيئا فلم يصدق عينيه ، فعاد وفتحهما مزة أخرى وأرسل بصره طويلا ، فرأى أنوار واقفة أمام المرأة الصغيرة المعلقة فى الحائط متجردة من ثيابها جميعا تحاول فى نشوة أن ترتدى ثوبا بجديدا أبيض اللون ، هو الذى أعدته ليلية الزفاف ، لترى فتنته على جسدها ، ونظر عم رضوان من ثقب الباب الى الجسد العارى والفتنة المتيقظة ورأى فيما رأى صدر مبروكة • • ورآه كما هو بغديره الرقراق ورمائه الجميل ورائحته الذكية • وأخيرا فى غطرسه وكبريائه • وانبعثت الى أنفه رائحة الانوثة تحترق فى منخاريه انها تماما رائحة مبروكة • • ودفع الباب فى قوة فانفتح وذلف منه ثم أغلقه فى غنف • • فدعرت الفتاة وبحركة لا ارادية رفعت يديها بالشوب الى صدرها فحجبته • وغاظه أن تخفى عنه بضاعته فاقترب مربد السحنة لامع العيتين •

— اخرج • • • اخرج

— أطرديننى ؟ • •

— قلت لك اخرج • •

— أنا رضوان يا مبروكة •

وصر على أسنانه ووقفت شعرات لحيته الطويلة كالحراب فغدا كذئب مفترس •

— قلت لك اخرج • • •

— أنا رضوان يا مبروكة •

— مبروكة مين • • • أنا أنوار • • أنوار

وكفكفت مرتعبة تلوذ بالحائط • فقال فى غلظة وهو يقرض على أنيابه وينتزع الشوب من يديها :

— انت مبروكة .. هذا الصدر ملكي وهذا الرمان غرس يدي
وهبت الفتاة أن تصرخ فأطبق على شفتيها بيديه وهو
يرغى ويهدر كالثور وقد سال لعبه اللزج على صدره فلوته .
— أنا رضوان يامبروكة .

ودفعته الفتاة عنها في قوة هائلة .

أسقطته على الارض وهمت أن تفتح الباب لتستغيث ولكنه
فجأة شعر بقوة هائلة تسرى في كيانه كله فجذبها في عنف
من قدمها وأسقطها بجواره على الارض وراح في قوة الثور
يطبق على نهديةا وكأنه يريد أن ينتزعهما وهو يرغى :
— أنا رضوان يامبروكة !

واستطاعت الفتاة بعد صراع عنيف أن تخلص يديها من
ذراعيه . وما أن فعلت حتى غرست أصابعها في عنقه المترهل
فخنقته وظلت تخنق حتى برزت عيناه وأحس بأنه يموت وعز
عليه أن تقتله مبروكة بيديها قراح هو الآخر يضغط على عنقها
في غيظ كبير ، وفجأة رأى سكيئا كبيرة ملقاة على الارض
بجوار خطافين كبيرين فتناولها وراح يردد في جنون كبير :
— أنا رضوان يامبروكة .

ورأت الفتاة السكين في يده فذعرت ونزعت أصابعها من عنقه
مستسلمة . ولكنه كان قد أجهز عليها .. وبنفس السرعة
التي اجتز بها رقبتها ، اجتز تديها وفتح الباب سريعا وخرج
الى الطريق يركض قى سرعة جنونية . وما أن بلغ المسجد
ورأى جموع المصلين خارجة منه . حتى توسطهم وراح يرقص
أمامهم بشيابه الملطخة بالدماء . وقد أمسك — بالثديين — في
يديه وراح يغنى بصوت أشبه مايكون بصوت النار في الاذن:

ع الصدر زائت وم التياب باين
ياأغلى من العين يارمان الجنائين

أعلى من العين



« في قصر الخلد ، حيث الخليفة هارون الرشيد ، في جناحه الخاص لم يبرحه منذ أيام ، والوزير جعفر والعباسة يتهاوسان عند الشرفة » .

العباسة : أراه قد تغير كثير في هذه الايام .

جعفر : كيف !

العباسة : ساهم ، واجم ، لا تعرف البهجة طريقها الى قلبه ولا الابتسامة سبيلها الى شفثيه .

جعفر (دهشا ينصت الى لحن موسيقى ينبعث من جناح الملك) وهذا الذي أسمع ، هذه الالان التي تسيل رقة وعذوبة وهذا الغناء الذي يذيب القلوب . ثم هذه القيان . وتلك الحسان ، اللاتي يتماوجن من حوالبه . فينثرن الفتنة وينفثن السحر ، فيملأن الكون عطرا ، أكل هذا لا يبعث البهجة الى قلبه . . . ؟

العباسة : كل هذا يثير شجونه . يرهف عواطفه ، يرهق

قلبه المعنى انه يضيق حتى بأنفاس الزهر ، لقد رأيتسه
 بعيني ، يسدل الستر على النوافذ حتى لا يرهقه عير الشذى
 جعفر (مفكرا) : ومنذ متى هو كذلك ؟
 العباسية : منذ أن جاء إلى القصر بتلك الاعرابية .
 جعفر (دهشا) : راعية الشاء
 العباسية : أجل .
 جعفر : عجيب هذا الذي أسمع .
 العباسية : وأعجب منه أن تراه . اذن لرأيت قلبا أذوى به
 العشق ، وأذرى به الضنى . لم أزه مولها كما أراه الان .
 (لنفسها) : وكم سألت نفسي ، وفيه هذا الوله ، وهى بين
 يديه ، ملك ذراعيه (لجعفر) : ترى هل يطمع العاشق ، فى
 أكثر من أن يظفر بمن يعشق ؟؟
 جعفر (متخابثا) : سلى قلبك .
 العباسية (غاضبة) : انى أحدثك عن الخليفة .
 جعفر : انه ليس كما تظنين .
 العباسية : ماذا به اذن ؟
 جعفر : يقظة ضمير ، وعما قريب ستغفو
 العباسية (فى دهشة) يقظة ضمير !
 جعفر : لعل قلبه الكبير يراجع فى اغتصابها
 العباسية (دهشة) : اغتصابها ! اغتصاب من ؟
 جعفر : سلافة . . هذه الاعرابية
 العباسية : وممن ؟؟
 جعفر : من الذى تحب .
 العباسية : من الذى تحب ؟ ومن هو ؟
 جعفر : أعرابى يرعى الابل .
 العباسية : (وقد ازدادت دهشتها) يرعى الابل ؟
 جعفر : أجل . يرعى الابل .
 العباسية : لم أفهم شيئا . . وضح .
 جعفر : معذرة . لاننى لا أستطيع .
 العباسية : أسر هو ؟
 جعفر : انه من أسرار الرعية .
 العباسية (غزلة تنظر اليه) : وان لم يصدق جعفر العباسية

فمن يصدقها اذن ؟

جعفر : جعفر .

العباسة : قل اذن .

جعفر : على أن يضم الى ما بيننا من أسرار

العباسة (مسيلة الهدب في خفر) : وهل بيننا أسرار ؟

جعفر (هائما) : بيننا الدنيا بما رحبت ، الحياة بما

جمعت . . . بيننا . . .

العباسة (مقاطعة) : دع حديث جعفر والعباسة ، وهات

حديث الخليفة وسلافة .

جعفر : ألا يطربك حديث جعفر والعباسة ؟

العباسة : يلذ لي أن أسمع حديث العشاق .

جعفر : وأنا أيضا .

العباسة : اذن قل .

جعفر : كنت ذات ليلة مع مولانا الخليفة . نجوس خلال

الديار ونتفقد شؤون الرعية ، وكنا في زيين غريبين ، لم

نعرفنا فيهما أحد . وكان القمر في الافق ، يرسل نوره على

دجلة ، فيحيل صفحته الى بساط من فضة ، يتماوج ذات

اليمين وذات الشمال (ينظر اليها) كما يتماوج الان هذا

الشعاع النوراني ، على صدر فاتنة بغداد .

العباسة (وهي تنكس هديبها) : وبعد .

جعفر (مستطردا) : وكان مولانا الخليفة مبتهجا مسرورا ،

تغمره السعادة بما أياه الله عليه من نعيم يتمثل في ولاء رعيته

التي تسبح بحمده ، وتشيد بفضله ، وتود لو تصنع له من

حشاشات القلوب ، عرشا يجلس عليه ، ومن أفئدة العيون

بساطا تحت قدميه . وهزنا الشوق الى الفضاء . فخرجنا الى

المروج في الليل ، وفجأة سمع مولانا الخليفة صوتا ينبعث في

السحر كأنه السحر . ويسرى مع أنفاس الظلام ، فيعطر آذان

الليل . فتبعناه في الظلام ، فاذا بنا أمام أعرابية كأن وجهها

الفلق تناجني حبيبها في الليل بجوار الخيام . فتحدث اليها

مولانا الخليفة حديثا طويلا . عرف منه أنها تحب أعرابيا يرعى

الابل عند الشاطيء . وأنه قد خطبها الى أهلها . وسوف تزف

اليه بعد أيام . وما أن سمع مولانا هذا . حتى تركها وانصرف

- وفي النفس ما فيها من تعلات •
- العباسة : وبعد •
- جعفر : احتجبت الشمس وراء الافق ، حتى نفذت مشيئة مولانا الخليفة •
- العباسة : كيف ؟!
- جعفر : قبل أن طلع الصبح ، كانت سلافة في القصر •
- وخطيبها في السجن •
- العباسة (مأخوذة) : في السجن !
- جعفر (مبتسما) : أجل
- العباسة : ولماذا ؟
- جعفر : حتى لا يغري القنص ، كلب بالحقاق به •
- العباسة : انه الظلم •
- جعفر : انه العدل بعينه •
- العباسة : العدل أن تفرق بين قلبين •
- جعفر : العدل أن يرضى مولانا الخليفة •
- العباسة : (لنفسها بعد صمت) : العدل أن يرضى مولانا الخليفة (لجعفر) : وهل رضى ؟
- جعفر : قلت أنها يقظة ضمير • وعما قريب ستغفو •
- العباسة : أجميلة هي يا جعفر ؟
- جعفر : لم أرها •
- العباسة (دهشة) : ألم تكن معه ؟!
- جعفر (ينظر الى عينيها) : منذ أن نظرت الى السماء ، لم تر عيني الا قمرا واحدا •
- العباسة (متبرمة) : دع حديث الغزل •
- جعفر : وفيم أتحدث اذن ؟
- العباسة : في شؤون الخلافة •
- جعفر : وكيف تساس بلا قلب ؟
- العباسة : (متجاهلة) أي قلب تعنى ؟
- جعفر : يا لك من جاحدة • قلب من أذرت به عيناك
- العباسة : قلت لك دع حديث القلب •
- جعفر (هائما) : وهل تعبق الزهرة ، ان ظمى الغصن ؟
- العباسة (تنظر اليه)

- جعفر : وهل يجرى النهر ، ان امتنع المطر ؟
 العباسة (تنكس رأسها في خفر)
 جعفر : وهل تعزف القيثارة ، ان انقطع الوتر ؟
 العباسة (متوردة الوجه تنظر اليه)
 جعفر : وهل تترى الانفاس ، ان نضب القلب ؟
 العباسة (تعبت بطرف شاله بأنامل مضطربة) : أهذا
 حديث القلب ؟
 جعفر : انه حديث الحب .
 العباسة : أتحنني ؟
 جعفر : وهل لا يحب العابد معبوده ؟ . . . (بصوت هتفاج)
 لكم وددت (يصمت)
 العباسة : وددت ماذا ؟
 جعفر : (يصمت) .
 العباسة : قل ، قل . . .
 جعفر : (وهو ينظر اليها) : لو صنعت من هذه الشفاه كأسا
 العباسة : هيك صنعت .
 جعفر : اذن لرشفت رحيق الحياة .
 العباسة : واذا ارتويت ؟
 جعفر : الهبتني سياط عيناك .
 العباسة : واذا ألهيتك ؟
 جعفر : تبردت من حرها بخمر شفتيك .
 العباسة (هائمة تنظر اليه) : جعفر !
 جعفر : معبودتي .
 العباسة : زبيدة تمكر بنا .
 جعفر : وجعفر خير الماكرين .
 العباسة : لقد ترامى اليها حديثنا ليلة الحراقة .
 جعفر : وقد أطاحت برأس من نقله اليها .
 العباسة (وجلة) : انه عميرة .
 جعفر (هامسا) : قتل ليلة الامس .
 العباسة (ممسكة بيديه) : اننى أخشى الخليفة .
 جعفر : انه فى يدي .
 العباسة : أدخل السرور عليه .

جعفر : سأجعل الكون يصغى الى أنغام ضحكاته
(تدخل احدى الوصيفات)
الوصيفة (هامسة فى وجل) : مولانا الخليفة •
العباسة (هامسة لجعفر وهى تنصرف مسرعة) : كن حذرا
(تخرج)

(يدخل الخليفة « هارون الرشيد » مهمسوما بآدى
الحزن والشحوب الذى تلتهم صفرتة فى عينيه •)
الخليفة (لجعفر) : أنت هنا ؟
جعفر : منذ أن تنفس الصبح يا مولاي

الخليفة وفيهم البكور ؟
جعفر : لقد ترامي الى أن مولانا الخليفة • مد الله فى عمره ،
وأدام عزه ، وأطال أيام ملكه ، ليس على ما تنشده الرعية لذاته
الكريمة ، من راحة بال ، وسعادة حال •
الخليفة : من قال ذلك ؟

جعفر : الشمس المتوارية حزنا وراء الافق ، الطير المنكس
أجنحته فى السماء ، النهر الساهم الواجم الحزين ، الورود
المنكسة على أغصانها تعتصرها ريح الحزن اعتصارا • ان مولانا
الخليفة ، اذا فارقت الابتسامة شفثيه حزنت الطبيعة ، واكتأب
الكون •

الخليفة (لنفسه ساخرا) : حزنت الطبيعة ، واكتأب
الكون •

جعفر : كل ما فى الوجود مسخر لك يا مولاي •
الخليفة : حتى الذى لا أملكه يا جعفر ؟
جعفر : ليس من شىء لا يملكه الملك •

الخليفة (محزونا) : قلت يوما ما تقول • الى أن وجدته
جعفر (دهشا) : أى شىء وجدته يا مولاي ؟
الخليفة (وهو ينظر حزنا) : الشىء الذى لا أملكه •

جعفر (متعجبا) : الشىء الذى لا تملكه !؟

الخليفة : أجل •
جعفر : وما هو ؟

- الخليفة : قلب المرأة •
 جعفر : وأدتها أمها ، من تضمن بقلبها على أمير المؤمنين ، أى
 النساء يا مولاي • لا يقتلها الشوق الى رضاك •
 الخليفة (واجما) : سلافة •
 جعفر (مأخوذا) : سلافة !
 الخليفة : أجل •
 جعفر : تلك الاعرابية
 الخليفة (فى سهوم) : راعية الشاء •
 جعفر : ولكنها بين يديك ، ملك ذراعيك يا مولاي •
 الخليفة : كتلة من الثلج ، جسد بلا قلب ، انفاس بلا روح
 امرأة بلا جسد •
 جعفر (دهشا) : امرأة بلا جسد ؟
 « تدخل احدى الوصيفات • وتتقدم خطوة • ثم ترجع
 خطوة »
 الوصيصة : ان مولاتي الملكة ، لتطمع فى أن يؤذن لها بالمشول
 بين يدى مولانا الخليفة •
 جعفر : ان مولانا ينظر فى شؤون الخلافة •
 الخليفة : سأنتقل الى جناحها بعد حين •
 الوصيصة (تتقدم خطوة ثم ترجع أخرى) : أمر مولاي •
 « تنصرف »
 جعفر : امرأة بلا جسد • •
 الخليفة (وهو يتلوى حزنا) : انه الحب يا جعفر (ينهض
 متخاذلا الى احدى النوافذ ، ويزيح بيديه الستر وينسدى)
 على بعنان •
 « تدخل عنان سريعا ، وهى جارية حسنة ، تقوم على
 شؤون الخليفة الخاصة • وما أن تبلغ التكنسة التى
 يقف عليها الخليفة حتى تغر راحة عند قدميه • »
 عنان : مولاي •
 الخليفة : أسألك عن سلافة •
 عنان : يظلها جناح عطفك يا مولاي •
 الخليفة : كيف حالها ؟

عنان : يجملها الحرير والمخمل ، ويزينها الماس والجوهر ،
ويتضوع عير المسك من عطفيها ، ويقتلها الشوق الى اللقاء .
الخليفة (لنفسه ساخرا) : ويقتلها الشوق الى اللقاء لعنان
بعد صمت طويل (على بها .

عنان (تتقدم خطوة ثم ترجع أخرى وتنصرف) :

جعفر : ليأذن لي مولاي .

الخليفة (لا يجيب)

جعفر (ينصرف)

« تدخل سلافة تسبقها رائحة العطور ، تتعثر في فاخر
التياب ، وتبدو شاحبة اللون مجزوة الفؤاد »

سلافة (وقد ركعت عند قدميه) : مولاي .

الخليفة (وهو ينهضها في حنان ويشير الى الاريسة التي
يجلس عليها) : اجلسي .

سلافة : عفوا يا مولاي .

الخليفة : اجلسي .

سلافة (يقطع أنفاسها الحزن) : وهل أجرؤ .

الخليفة : أنت .

سلافة (مقاطعة) : أنا جاريته يا مولاي .

الخليفة : أنت خبيبة .

سلافة : كلا يا مولاي

الخليفة : ماذا أنت اذن ؟

سلافة : خادمة .

الخليفة (ينظر اليها بشوق وقد أجلسها بجواره) : ما
أجمل هذه الزهرة البكر .

سلافة : انها من صنع خميلتك يا مولاي .

الخليفة : انها من صنع الله .

سلافة : الله خلقها ، وأنت قطفتها .

الخليفة : أنا ربعتها .

سلافة : بل وأدتها (تبكي)

الخليفة : أتبيكين ؟

سلافة : من جرح يتنزي .

الخليفة : أي جرح تعنين ؟

- سلافة : جرح قلبي
- الخليفة : أتحيينه ؟
- سلافة : أكذب ان قلت لا
- الخليفة : حتى على البعد ؟
- سلافة : كما كنت على القرب (تبكى)
- الخليفة (وهو يجفف لها دموعها بيديه) : ولكنى أحبك ~
- سلافة : وهأنذى بين يديك
- الخليفة : أنا لا أريد ذلك
- سلافة : وها هو جسدى بين ذراعيك
- الخليفة : ولا هذا أيضا
- سلافة : وها هي حياتى • اقض عليها ان أردت
- الخليفة : أريد قلبك
- سلافة : لست أملكه
- الخليفة (حانقا) : من يملكه اذن ؟
- سلافة (سابحة) : الذى يأسو جراحاته
- الخليفة : وهل لا أستطيع ؟؟
- سلافة : القلب يا مولاي ، كالزهرة ، لا يقطف مرتين
- الخليفة : أوهام
- سلافة : القول ، ما يقول المالك ، لا ما يقول المملوك
- الخليفة (متبرما) : أى مالك وأى مملوك ؟
- سلافة : أنت المالك ، وأنا المملوك
- الخليفة : يريد المالك أن يكون مملوكا
- سلافة : وتريد الارض أن تكون سماء (تيكى)
- الخليفة : ألا يعوضك عنه شيئا ؟
- سلافة (سابحة) هيهات !
- الخليفة : ألا يعوضك هذا النعيم الذى أنت فيه .. ههه
- الدنيا التى تدين لك • هذا العرش الذى ينتظرك .. ههه
- المعبود الذى يريد أن يكون عابدا .. ألا يعوضك هذا كله ..
- ألا يسعدك ؟؟
- سلافة : انه يشقىنى
- الخليفة (جزعا) : يشقىك !

- سلافة : ليس ماذكرت هو الحياة .. ولا .. الدنيا ..
- ولا السعادة .. أبدا ، ولا هو الملك .
- الخليفة : ما الدنيا اذن ايتها الفتاة ؟
- سلافة (لنفسها) : قلبان يتحابان .
- الخليفة (جزعا) : والحياة !
- سلافة : حبيبان يتلاقيان .
- الخليفة (مضطربا) وما السعادة ؟
- سلافة : زوجان يتعانقان .
- الخليفة : وما الملك اذن ايتها الفتاة ؟
- سلافة : بلا حب وهم تردده الشفاه .
- الخليفة (مأخوذا) : بلا حب وهم تردده الشفاه ..
- سلافة : بل دنيا تعوزها الحياة .
- الخليفة (صارخا يحجب عينيه بيده) : اغربى عن وجهى
- أيتها المرأة ... اغربى عن وجهى ... انك تقتليننى ...
- انك تقتليننى .
- سلافة (تخرج سريعا خائفة ترتعب)
- « فجأة يظهر جعفر من خلف الستر »
- الخليفة : أكنت هنا ؟
- جعفر : وسمعت كل شئ يامولاي .
- الخليفة : وما الذى ترى ؟
- جعفر : أن يقتل ذلك الاعرابى .
- الخليفة (دهشا) : ان يقتل ذلك الاعرابى !
- جعفر : أجل .
- الخليفة : ولم ؟
- جعفر : ليورق الزهر على غصنه ، ويرجع الطائر الى عشه
- الخليفة : وضح لم أفهم شيئا .
- جعفر : طالبا الكرم يامولاي ، ينديه الغيث ، فدن الخمارملان
- الخليفة : حتى ولو كان فارغا ؟
- جعفر : حتى ولو كان فارغا .
- الخليفة : ومتى يفرغ ؟
- جعفر : اذا امتنع الغيث .
- الخليفة (لنفسه) : أهكذا حال العشاق ؟

- جعفر : سرابهم يامولاي ، البحر الخضم
- الخليفة : وما بحرهم اذن ؟
- جعفر : كسرابهم ، آمال ، وأحلام
- والخليفة (مفكرا) : ولكنه الظلم يا جعفر
- جعفر : الظلم أن يتعذب مولانا الخليفة
- الخليفة (لنفسه يتلوى ألما) : اننى أتعذب
- جعفر : وهذا هو الدواء
- الخليفة : أترى ؟
- جعفر : وقد استدعيت حامل السيف
- « يمد يده الى احدى الستر ويزيحها فيظهر مسرور
- شاهرا سيفه وهو يدق الارض بقدميه » !
- مسرور : أمر مولاي
- الخليفة (يصمت ولا يجيب)
- جعفر : بأمر مولانا الخليفة ، تقطع رأس عامر بن سعد
- الجهمي ، نزيل السجن ، وتقدم رأسه الى سلافة على صينية
- من ذهب
- مسرور (وهو يدق الارض بقدميه منصرفا) أمر مولاي (يخرج)
- الخليفة (يرتمى متهاككا على احدى الارائك ، يتصبب العرق
- من وجهه)
- جعفر : أيأذن لي مولاي ؟
- الخليفة (متهدجا) : الى أين ؟
- جعفر : الى كل مافيه سعادتك (ينصرف)
- « تدخل سلافة مرتاعة زائغة العينين ، وما أن ترى
- الخليفة حتى ترتمى عند قدميه ، صارخة : «
- سلافة : مولاي
- الخليفة (خائفا) : اغربى عن وجهى يا امرأة
- سلافة : اننى أضرع اليك
- الخليفة : قلت لك اغربى عن وجهى
- سلافة : اننى أحبك .. اعبدك .. أتفانى في الولاء اليك
- لك جسدى قطعه ان أردت ، لك روحى اقض عليها ان شئت
- الخليفة : أريد قلبك
- سلافة : خذ اليك ، استله من بين جنبى ، فقط ابق على عامر

- الخليفة : لقد سبق السيف العذل
 سلافة : أى سيف • وأى عدل ؟
 الخليفة : سيف ارادتى •
 سلافة (مرتاعة) : مولاي ، ماذا أسمع ؟
 الخليفة : ان الملوك اذا أرادوا شيئا ، نفذه القدر •
 الخليفة (وهو ينظر الى عينيها الجميلتين) : أمرى لا يرد •
 سلافة : حتى ولو كان ظلما ؟
 الخليفة : حتى ولو كان ظلما
 سلافة : حتى ولو كان جرما ؟
 الخليفة : حتى ولو كان جرما •
 سلافة : حتى ولو أغضب الله ؟
 الخليفة (مضطربا) قلت لك أخرجى يا امرأة
 سلافة (باكية تقبل قدميه) : مولاي •
 الخليفة : لا رجعة لامرى •
 سلافة : حتى ولو أحببتك ؟
 الخليفة (وهو يدفعها عن قدميه) : حتى ولو كان حبك
 سلافة (وكأنها تخاطب نفسها) : أحقا أن الملوك يأمولاي
 : اذا أمرت أمرا نفذه القدر ؟
 الخليفة (وهو يهم بالانصراف) : أجل : نفذه القدر (يحاول
 أن ينصرف)
 سلافة (وقد تعلققت بأذياله) : اذن فلي مطلب يسير ، بعده
 ينهمر الغيث •
 الخليفة : أى غيث ؟
 سلافة : غيث حبنى •
 الخليفة (فرحا) : أى مطلب تريدين ؟
 سلافة : أن أراه قبل أن تقتله •
 الخليفة : مطلب يسير (مناديا فى فرح) على بمسرور
 « يدخل مسرور شاهرا بسيفه ويدق الارض بقدميه »
 مسرور : أمر مولاي الخليفة •
 الخليفة : على بعامر بن سعة الجهمى ، قبل أن تقطع رأسه •
 مسرور (وهو يدق الارض بقدميه منصرفا) : أمر مولاي •
 (ينصرف)

«سلافة (ذاهلة تنظر اليه) : أتصدق امرأة تحبك يا مولاي
الخليفة : وان لم أصدق من أحب ، فمن أصدق اذن ؟
سلافة : أحقيقة اذا أمرت الملوك أمرا نفذه القدر ؟
الخليفة : أجل .

سلافة : حتى ولو كان الوجود كله ؟

الخليفة : حتى ولو كان الوجود كله .

سلافة : ألا رجعة فيما أمرت ؟

الخليفة : ولو كان ما أمرت به هو عنقي .

« تغافل الخليفة وتمد أناملها المرتعشة الى عينيها

الجميلتين وتفقأهما فجأة »

سلافة (صارخة صرخة مدوية) : أى

الخليفة (مرتعبا ينظر الى فجوتين غائرتين فى الوجه تسيل

منها الدماء) يا الهى ماذا أرى ، ماذا فعلت ؟

سلافة (وهى تسقط على الارض تتوجع) : ألم تأمر بأن

أراه قبل أن تقتله ؟

الخليفة (بأعلى صوته) : أجل . أجل ، أمرت بذلك .

سلافة (فى صوت خافت وهى تتحسس بأناملها الدماء

المنسابة من عينيها) : والان لن أراه . . . فلن تقتله .

سستار

حمار جحا

كان لجحا فيما مضى من الايام حمار من غير ذيل ، وكان جحا يحب هذا الحمار ويفضله على غيره من الحمر التي يكتنيها ، والتي سيقتنها ، فقد كان جحا فى تلك الايام يحب اقتناء الحمر ، ويملك منها عددا كبيرا ، بيد أن حبه لهذا الحمار الذى لا ذيل له ، كان عظيما يفوق كل وصف ، وكان جحا يتغنى بهذا الحب ، ويذكره فى كل مناسبة ، وكثيرا ما كان يصطحب حماره هذا ، ويجلس معه على رأس الطريق الموصل للمدينة . ويزوج ينظر اليه ، ويتحسس مكان ذيله المقطوع ويتغزل فيه . ويتغنى بحبه وحب هذا الحمار الذى بفضل وبفضل السر الذى يحمله ، أتاح الله لجحا الخير الكثير وقد لفت حب جحا لهذا الحمار نظر أهل المدينة ، وأدهشهم وأثار فضولهم . ان يحب جحا هذا الحمار بالذات ، مع أنه يملك حمرا كثيرة غيره ، تفوقه قوة وقدرة واحتمالا على المشاق وغير ذلك كله فلها ذيول جميلة تزينها ، ولذلك راحوا يتساءلون عن السر فى حب جحا لهذا الحمار بالذات . يتساءلون بينهم وبين أنفسهم حينما ، ويتساءلون بينهم وبين بعضهم حينما آخر ، ثم بينهم وبين جحا نفسه مرة أخرى ، ولكن عقولهم لم تهدم الى شىء . وكذلك جحا لم يقل لهم شيئا ، ولم يرحلهم بالا ، بل راح يمعن فى اثارهم فيقص عليهم شتى القصص التى تثيرهم عن حبه لهذا الحمار ، وشغفه به ، واعزازه له . وكيف أنه لا يهدأ ولا يسعد ولا ينام ، الا اذا رأى حماره هذا وجلس اليه طول النهار وأغلب الليل يلاعبه ، ويداعبه ، ويبثه فرحته التى تغمر

قلبه بامتلاكه له . . أما السر في هذا الحب والباعث عليه والسبب فيه ، فكان جحا يخفيه عليهم ، ويقول لكل من يسأله « أن هذا السر هو الطلسم الذي شاء القدر أن يجعله وقفا على جحا وحماره . وقد عاهد جحا على ألا يذيع هذا السر . وحماره بطبيعة الحال لن يذيعه . إلا إذا شاء الله أن تنطق الحمير وتتحدث الى الناس بما تخفيه الصدور .

وبذلك أثار جحا فضول أهل المدينة ، كما أثار سخطهم أيضا . فقد شغلهم أمر هذا السر شغلا عظيما . حتى أنهم أزمعوا فيما بينهم . أن يعرفوا هذا السر مهما كلفهم الامر . وكان أن ذهبت جماعة من المدينة الى جحا ، وطلبت منه معرفة سر حبه لهذا الحمار الذي لا ذيل له . لأنه ان كان حقيقة كما فهموا ، انه باعث خير له . قطعوا هم ايضا ذيول حميرهم ليتيسر لهم ذلك الخير الذي تيسر لجحا . أما ان كان الحمار نفسه هو جالب الخير لمن يقتنيه . أسهم أهل المدينة جميعا في شرائه . وأوقفوه على مدينتهم ، عساه يجلب لها الخير . ويدفع عنها هذا الكرب الذي تعيش فيه . ولكن جحا فطن الى ما يرمون اليه ، فأمعن في اثارهم وراح يقص عليهم شتى القصص التي تفيض بها منه لحماره . أما السر في هذا الحب ، فهو كما قال لهم من قبل : « الطلسم الذي شاء القدر أن يجعله وقفا على جحا وحماره » وبذلك أثارهم جحامة أخرى ثورة كبيرة . وغازتهم غيظا شديدا ، حتى أمست المدينة . وأصبحت فلا حديث لها إلا جحا وحماره الذي لا ذيل له ، ولما لم يجدوا حلا يريحهم من هذا العناء الشديد الذي أوقعهم فيه جحا . فكرت جماعة من أولى الرأي في أمر يحل لها هذا الاشكال . وهو أن يسرقوا من جحا هذا الحمار ، ثم يخبروه فيما بعد بين الحمار نفسه ، وسره الذي يخفيه عنهم . وكان أن سرقوا الحمار من جحا ، وأخفوه في مكان بعيد ، ثم قالوا لجحا اذا أردت حمارك فقص علينا أمره . بيد أن جحا كان أكثر ذهاء مما يظنون ، فلم يأبه بذلك ولم يحفل به . بل طرب له

طربا شديدا ، وراح يضحك ويمعن في الضحك مسرورا كما كان يفعل قبل أن يسرق الحمار . وذهب الى نفس المكان الذى كان يجلس فيه الى حماره العزيز كل يوم . ويقول مبتهجا لكل من يسأله عن الحمار : « ان سرقة الحمار لاتعنيه ما دام يملك ذيله الذى فيه السر الاعظم ، وفيه أيضا الخير العميم الذى يريدون » وبذلك فوت عليهم جحا فرصتهم . ولما لم يجدوا فائدة ترجى من وراء سرقة الحمار أعادوه اليه والحفيظة والموجدة تملآن قلوبهم .

وهكذا أحدثت هذه القصة فى المدينة لغطا كبيرا ، وكادت تؤدى الى ما يشبه الفتنة فى المدينة . فقد انقسم الناس الى فريقين ، فريق يناصر جحا ويقول أنه صاحب الحمار ، وانه صاحب الحق فى ذيله ، ومن حقه أن يذيع سره أو لا يذيعه ، ومن حقه أيضا أن ينعم وحده بكل الخير الذى يجلبه له هذا الحمار ويحتفظ به لنفسه لا يشاركه فيه أحد ، ما دام أن الله أباح البيع . وأحل الشراء . . وأوقف الخير على من يشاء من عباده . وفريق آخر يقول : ان جحا شيخ من شيوخ المدينة له ما لاهلها ، وعليه ما عليهم ، فان أصاب القوم ضرر فهو مصيبه وان أصابهم خير فهو مشترك فيه وما دام أن هذا الحمار كما يقول جحا جالب خير له . فلا بد أن تشترك المدينة فى هذا الخير . أما اذا أراد جحا أن يوقف هذا الخير عليه ، فعليه أن يخرج من المدينة ولا يكون من أبنائها .

وهكذا احتدم الخلاف بين الفريقين . وقضت المدينة أياما طويلة لاحديث لها الا جحا وحماره . وانعقدت الحلقات فى المساجد ، والخطب على المنابر وراحوا يقرعون الحجة بالحجة والبينة بالبينة . هذا يستبيح دم جحا ويستحل حماره . وهذا يناصر جحا ويدفع عنه سوء . ولما احتدم الخلاف بين الفريقين وتفشت الفتنة . بلغ الامر الملك فاستدعى جحا اليه ولما مثل جحا بين يدى الملك تقدم خطوة ورجع أخرى ، ثم قبل يده الكريمة وقال على الفور :

— اسألني يا مولاي عن كل شيء أجيبك الا عن ذيل الحمار .
فقال الملك لجحا غاضبا :

— ولكنك تعلم أنني ما استدعيتك الا من أجل هذا .
— ولكني يا مولاي لا أستطيع أن أجيبك .
— انني آمرك .

— أمرك مطاع يا مولاي الا في ذيل الحمار
فغضب الملك غضبا شديدا . وأمر بقتل جحا ان لم يذع
عليه سر هذا الحمار وقصة ذيله التي كادت تحدث الفتنة في
المدينة ولكن جحا أصر على موقفه ، وقال للملك مبتهجا دون
أن تفارق الابتسامة شفتيه :

— اقتلني يا مولاي .
وأدهش الملك أن جحا يفضل القتل على أن يذيع سر حماره
وقال انه مجنون .

وأمر بزجه في السجن ثلاثة أيام حتى يثوب الى رشده
ويرجع اليه صوابه .

وقضى جحا في السجن ثلاثة ايام . وقضى الملك هذه الايام
الثلاثة وهو يتحرق شوقا الى معرفة هذا السر الذي يضحى
جحا من أجله بعنقه وأصر فيما بينه وبين نفسه على أن يعرف
هذا السر مهما كلفه الامر . حتى ولو كان ثمنه عنق جحا
حقيقة ، وبعد الايام الثلاثة استدعى جحا اليه ، ولما مثل بين
يديه . ووجده ما زال عند رأيه ، استشاط الملك غضبا وغيظا
وموجدة على جحا وحماره . ولكنه كظم غيظه وقال لجحا ملاطفا :

— كيف يا جحا تضحى بعنقك من أجل ذيل حمار ؟

— انني أضحي بعنقي من أجل الملك .

فدهش الملك وجحظت عيناه وهو يقول :

— من أجلى أنا ؟

— أجل يا مولاي .

— كيف . . وما علاقة الملك بهذا الحمار يا جحا ؟

فقال جحا والابتسامة التي لا تفارقه تتألق نورا على شفتيه :

- اننى يامولاي ان قصصت عليك قصة ذيل الحمار . . .
- فستصبح انت حمارا .
- وعقدت المفاجأة لسان الملك . وبهرت أنفاسه . فنظر الى جحا مبهورا وقال :
- ماذا تقول ايها المجنون ؟
- أنا لم أقل شيئا يامولاي ، ولكن طلسم هذا الذيل . . .
- وحافظ سره الاعظم هو الذى قال .
- قال انك لو قصصتها على الملك أصبح الملك حمارا .
- أجل يامولاي .
- وإن قصصتها على غير الملك ؟
- أصبحت أنا ذلك الحمار .
- فصاح الملك غاضبا :
- ومن أجل هذا لا تريد أن تقصها على أحد ،
- فقال جحا ضاحكا :
- لاننى يامولاي لا أريد أن أكون حمارا .
- فكشف الملك عن غيظه وقال صارخا ويده على مقبض سيقه :
- ولكنى آمرك
- بماذا يامولاي ؟
- بأن تقصها على غيرى والا قتلتك .
- فضحك جحا وقال :
- انك بهذا القتل يامولاي تسدى الى حسنة كبيرة .
- اذن أنت تريد أن تموت ؟
- وهل يريد أحد أن يكون حمارا . . . ومن غير ذيل .
- وأسقط فى يد الملك وانتايته حيرة شديدة من هذا الذى يسمع . ومن هذا الذى يقوله جحا ولا يتصوره العقل ، ولكنه بعد لحظات اهتدى الى شيء أراحه الى حد كبير ، وهو أن جحا غير جاد فيما يقول . وأنه قد انتحل للملك هذه الاكذوبة الكبرى حتى لا يذيع سر هذا الحمار . لانه من غير المعقول أن يصبح الانسان حمارا بمجرد أن تلقى عليه قصة من القصص ، وفطن جحا الى مايجول فى رأس الملك ، وأنه غير مصدق الى ما يسمع ، فنظر اليه مبتسما ثم قال له فجأة ولكن فى هدوء كبير :

— أتأذن لى يامولاي فى أن أقص عليك القصة . ؟
فارتاع الملك وجحظت عيناه جحوظا كبيرا ، وسد أذنيه
حتى لا يسمع شيئا . ثم بعد حين تحسس يديه ولسانه وعينه
ولما وجد نفسه انه مازال انبانا ، صاح فى جحا صيحة
مدوية وهو يشيح بوجهه عنه :

— لا تقص على شيئا . لا تقص على شيئا أطبق شفتيك والا
هويت على عنقك بالسيف .

ثم التفت الملك هائجا وصاح فيمن حوله :
— ألقوا به قى غياهب السجن سبعة أيام كاملة . وليتعذب
عذابا شديدا . ثم اقطعوا رقبتة فى اليوم الثامن . واحملوها
على ظهر حماره . وطوفوا بها فى انحاء المدينة ، جزاء له على
ما أحدث فى البلاد من فتنة .

وهم جحا أن يقول للملك شيئا ، ولـسكن الملك انصرف
ثابرا هائجا كأنه الثور . ومن ثم دلف الى جناحه يرغى ويريد
وقد تولاه رعب شديد . وأمر أن لا يقابل أحدا . وأن لا يقابله
أحد . وقضى تلك الايام لا يغمض له جفن ، يفكر فى هذا الذى
سمعه من جحا . وفى حماره هذا الذى أحدث كل هذه الفتنة
وسره الهائل الذى سيقرب الملك حمارا . وما من شك فى أن
جحا جاد غير عابث أو هازل . لانه ما من أحد يتجرأ ويقول
هذا للملك الا اذا كان ما يقوله هو الحق . وفكر الملك وأجده
التفكير ، أن أخشى ما يخشاه أن يصبح حمارا فعلا . وأن يكيد
له جحا فيقص عليه القصة فى يوم من الايام . . . وهو لو امتنع
عن لقاء جحا حتى لا يكيد له هذا الكيد العظيم ، أفيعجز جحا
عن أن يتزيا بزى آخر ، ويقابل الملك ويلقى اليه بالقصة فيقع
المحذور ؟ اذن هو يمتنع عن لقاء الناس جميعا حتى يخلص من
هذا الشر . . . ولكن أيمكن للملك أن يمتنع عن لقاء رعيته
أو يمتنع لانسان فى الوجود أن يعيش بغير الناس . . ؟ اذن
فهو يقتل جحا ويخلص من هذا الاذى . . . ولكن اذا قتل جحا
فهل ستنتهى قصة هذا الحمار ؟ انه يقتل الحمار أيضا . . .
وبذلك ينتهى جحا وينتهى حماره ، وتنتهى بطبيعة الحال
بانتهائها القصة نفسها .

واستصوب الملك هذا الرأي واطمأن اليه ، وشعر بهذه
الاطمئنان يغمره ويفيض عليه ويريح عقله المتعب راحة كبيرة
بيد أن كل هذا سرعان ما تلاشى فجأة ، عندما قال الملك لنفسه
ولكن القصة نفسها ليست في جحا ، ولا هي اضافي حماره
وانما هي في ذيل الحمار ، ان السر كل السر هو في هذا
الذيل كما يقول جحا . وذيل الحمار غير موجود ، وما من
أحد في الوجود يعرف مكانه غير جحا . وجحا لن يفرط فيه
ولن يقول على مكانه لاحد . انه ولا شك يريد أن ينتقم لنفسه
بعد موته . وسينتقم له هذا الذي احتفظ جحا عنده بذيل
الحمار . واذن فلن تنتهي القصة بموت جحا ولا بموت حماره
وستظل قائمة بعد أن يموت جحا وينفق حماره ، واذن فالملك
مهدد في أى وقت بأن يغمض عينه ويفتحها فيجد نفسه حمارا
وأظلمت الدنيا في وجه الملك ، وغم عليه ، وانتابه دوار
شديد ، وظل كذلك زمنا حتى سقط مغشيا عليه ، ولم تفارقه
هذه الغشية التي حار فيها الاطباء ، كما حاروا في نوع المرض
العضال الذي أصيب به .

وأذيع في المدينة أن الملك قد مرض . . .
وهب الناس في المدينة يضرعون الى الله أن يشفى الملك . . .
ولكن الله لم يستجب لهذا الدعاء . وظل الملك مريضا حتى
ساء حاله واستبد به المرض ، وأشرف على الموت ، وأعلن في
المدينة أن الملك قد مرض مرضا خطيرا . وليس من سبيل
الى شفاؤه الا ذيل حمار جحا . واسرع الناس في المدينة
يبحثون عن هذا الذيل في كل مكان . يبحثون عنه في البيوت
يدكون جدرانها دكا . ويحفرون ارضها حفرا . ويجوبون
المزارع ويجففون الانهر والبحور . ولما لم يجدوا له أثرا غاظهم
ذلك غيظا شديدا وهبت جموعهم هائلة كالأسود الضارية
الى السجن الذي نزل به جحا والتفوا من حوله وحاصروه
حصارا شديدا . مطالبين برأس جحا والتمثيل به جزاء له
على ما أصاب ملكهم من مكروه .

ونظر جحا الى جموعهم التي ترغى وتزبد وتطالب برأسه
والى عيونهم الزائغة المجنونة ، وحرابهم المصوبة الى صدره .
وقال ضاحكا :

— أتريدون ذيل الحمار ؟
 — اننا نريد شفاء الملك يا جحا .
 — ليس من سبيل الى شفائه الا أن أقص عليه القصة .
 — ولكننا لانريد للملكنا أن يصبح حمارا يا جحا .
 — اذن أجمعوا أهل المدينة جميعا . نساء ورجالا وأطفالا -
 واجلسوا الملك بينهم . ثم أقص عليه القصة . وبذلك لا يصاب
 أحد منا بسوء . وتبقى لنا آدميتنا جميعا ، فلا نصبح حميرا
 بعد اليوم .

— ومن يضمن لنا هذا يا جحا ؟

فقال جحا :

— ذيل الحمار الذى سأمسك به فى يدي .
 وما أن سمعوا بأن ذيل الحمار الذى أحدث فى المدينة
 كل هذه الفتنة سوف تراه عيونهم ، وان الملك لن يصيبه شر
 أو يناله أذى ، حتى هلّلوا وصفقوا وجمعوا جموعهم ، وخرج
 أهل المدينة جميعا . حتى الشيوخ والعجزة ، حتى الضرير
 والمقعّد . فقد أذاع فيهم جحا أن كل من يتخلف عن سماع
 القصة ، فسيصبح هو ذلك الحمار . وجرى بالملك مريضا
 معتلا صاحب الوجه ، وأجلسوه على سريره ووضعوه بينهم وما أن رأت
 الجماهير ذيل الحمار حتى خرت الى الله ساجدة شاكرة ، فقد
 أصدقهم جحا القول . كما ابتهج الملك وزايله المرض سريعا
 وجلس معتدلا فى سريره يغمره البشر . ومن ثم وقف قبالة
 جحا على ظهر حماره وفى يده ذيله . ولما هدأ صخب الجماهير
 وأصبح الناس وكأن على رؤوسهم الطير ابتسم جحا ، وراح
 يقص القصة فى هدوء . قال :

يقولون يامولاي أن قاضى القضاة كان يجوس ذات يوم
 خلال المدينة ، لينشر العدل بين الناس . ويثبت أقدام الحق
 ويقضى لكل ذى محتاج حاجته . ومر فى طريقه على خباز كان
 يصنع الخبز للناس . ورأى أمام التنور «وزة» قد انضجتها
 النار . واضفت عليها لونا ورديا جميلا يسيل له اللعاب .
 فنظر قاضى القضاة اليها بعينيه الكبيرتين اللتين تجيدان
 رؤية الاشياء . ولما تفحصها بعينه جيدا وعرف انها تسرا لاكلين .
 تقدم من الخباز وهو يحوّل وييسمل ويتلو آيات من الكتاب .

وسأله أن يبعث بهذه الاوزة الشهية الى البيت ، ففغر الخباز
 فاه . وقال خائفا مأخوذا وهو يتقدم خطوة ويرجع خطوة
 ويقبل يدي الشيخ الجليل :
 - انها ياشيخ القضاة . لرجل من المدينة قد دعا عليها
 جماعة من الاضياف .
 فقال قاضي القضاة وهو يربت بيده البطاهرة على كتف الخباز:
 - ان الخير يا بنى فيما اختاره الله . وقد جعل الله لكل شيء
 سببا ، وما تدري نفس بأى أرض تموت ، وما تدري أيضا
 أوزة بأى بطن تستقر .
 فقال الخباز وهو لا يزال يرتعد فزعاً وخوفاً في حضرة الشيخ:
 - واذا ما سألتني عنها صاحبها ياشيخ القضاة فماذا أقول له؟
 - قل له يا بنى أنها طارت .
 فقال الخباز دهشاً جاحظ العين :
 - وكيف تطير أوزة ياشيخ القضاة ، وهي مذبوحة قد
 أنضجتها النار ؟
 فتبسم الشيخ ضاحكاً وقال وهو يبسم ويحوقل ويدس
 الاوزة تحت عباءته :
 - ألا تدري يا بنى أن الله على كل شيء قدير .
 وانصرف قاضي القضاة بالاوزة وجاء صاحبها الى الخباز
 يطلب أوزته ، فقال له الخباز :
 ان أوزتك يا رجل قد طارت واذا أردتها فابحث عنها في
 احدى السموات السبع .
 - فدهش الرجل مما يسمع وقال للخباز :
 - وكيف تطير أوزة يا رجل وقد ذبحتها بيدي ، وأدخلتها
 أنت النار بيديك ؟
 فقال الخباز :
 - وما العجب في ذلك يا رجل ؟ ألا تعلم بأن الله على كل
 شيء قدير !
 وظن الرجل أن الخباز يسخر به . وانه قد طمع في أوزته
 فسرقتها منه . فثار وغضب وأمسك بالخباز ، وكان الخباز
 أشد قوة من صاحبه . فأمسك به وراح يوسعه ضرباً ، ومر
 عابر طريق وكان رجلاً يهودياً . فتقدم من الاثنين ليفصل
 بينهما . فانهاه عليه الخباز ضرباً حتى فقا له عينا . وعز

هذا على امرأة حامل كانت فى الطريق فتقدمت لتشبهه على الخباز بأنه ضرب الرجل وفقاً عين صاحبه ، فاغتاض الخباز غيظاً شديداً وركلها بقدمه ركلة موجعة اجهضتها ، وتصادف أن مر شيخ على حماره ورأى بعيني رأسه كل هذا الذى حدث فأعلن أنه لن يكتفم الشهادة فركض الخباز خلفه وأمسك بذيل حماره وجذبه اليه فى قوة حتى قطعه ومن ثم انهال بذيل الحمار على الشيخ فأوسعه ضرباً ، وعلا صراخ الناس وتجمع نفر من المدينة . وأمسكوا بالجميع وذهبوا بهم الى قاضى القضاة ليفصل فى الامر بينهم .

واستدعى قاضى القضاة صاحب الاوزة وسأله عن قضيته فقص عليه القصة . وكيف أن هذا الخباز الماكر يدعى أن الحياة قد دبت فى الاوزة من جديد . وأنه رآها بعيني رأسه تخرج من التنور ، وتطير صاعدة الى السماء . فقال له القاضى :

— ألا تعلم يا رجل بأن الله على كل شىء قدير !
— أجل .

— وتعلم أن الله عز وجل قال فى كتابه العزيز « واذا قال ابراهيم رب ارنى كيف تحينى الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً . ثم ادعهن يأتينك سبيعاً » . . .

فقال الرجل :

— اعلم يا شيخ القضاة .

فقال القاضى :

— ومن أجل أنك تعلم حكماً عليك بالسجن . . لانك لم تؤمن . ولأنك ظلمت مؤمناً .

وما أن سمع صاحب الاوزة هذا حتى تنازل عن قضيته وخرج شاكراً للخباز أنه هو الآخر قد تنازل عن حقه .
ثم نظر القاضى الى الرجل الذى فقأ عينه وقال :

— أما وقد ثبت أن الخباز قد فقأ لك عينا . وان عين رجل مؤمن ، بعيني رجل غير مؤمن . فقد حكمنا بأن يفقأ لك الخباز العين الثانية . لتفقأ أنت له عينا واحدة .

- فصاح الرجل خائفاً :
- ابق لي عيني الثانية . ولن تراني بعد اليوم ابدا .
 - ثم انصرف يركض على عجل ، غير آسف على شيء
 - ثم تقدمت المرأة التي ركلها الخباز فأجهضها ، فقصت شكواها على القاضي فأشفق عليه وقل :
 - أما وقد ثبت يا امرأة أن هذا الخباز قد أفرغ ما في بطنك وأن على الانسان أن يصلح ما أفسد . فقد حكمنا على الخباز بأن يخلو بك حتى يملاك .
 - فصرخت المرأة صراخاً شديداً وفرت هاربة متنازلة عن شكواها وما أن سمع صاحب الحمار الذي قطع ذيله هذا حتى لكز حماره لكزة قوية . وقال لحماره وهو يركض به هارباً :
 - انج بنا . . أزعر . . أزعر . .
 - ثم أمسك بذيل حماره وراح يضرب الحمار به .
 - وأقلع جحا عن الحديث . فنظر اليه الملك شاحباً مصفراً وقال :
 - وبعد يا جحا ؟
 - فقال جحا :
 - وبعد فقد انتهت القصة يا مولاي .
 - فتحسس الملك سريعاً ، يديه ، ولسانه ، وعينه ، ولما وجد نفسه أنه مازال كما هو . فرح فرحاً شديداً وقال لجحا ساخراً :
 - وماذا في هذه القصة يا جحا التي أثرتنا بها كل هذه الثورة ؟
 - فقال جحا ضاحكاً ملء شذقيه وهو ينظر الى الجسماء الغفيرة المحتشدة حول سرير الملك :
 - فيها يا مولاي انه لم يكن في المدينة غير قاضي قضاة واحد . وهو الذي أصبح فيما بعد ملكاً .

الام جيزابيل



كنت اذ ذاك أقيم فى مدينة صغيرة فى الريف، وكنت أتردد على عيادة أحد الاطباء فى الاسكندرية ، وكنت بحكم المرض الذى أصابنى به القدر ، وأمر الطبيب الذى يعالجنى، وكلاهما واحد فى مرارته ، فما أصاب القدر الا ليخطيء الطبيب ، وما أكثر ما يخطيء هذا ليصيب ذاك . كنت بحكم ذلك أتردد على الاسكندرية ثلاث مرات فى الاسبوع ، وقد أرهقنى هذا كثيرا وحملنى مالا أطيع ، حتى ضاقت بى الحال ، وأظلمت الدنيا فى عينى ، ووددت مخلصا لو اتخلص من هذه الحياة التى نعيشها ، ولكن . ولست أدري أهذا من سوء حظ الانسان أم من توفيقه ، اننا نملك حق التصرف فى كل شئ ، الا الشئ الذى نملكه وهو حياتنا . حتى الذى ينتحر نفسه ، فهو لا يملك هذا الحق الا اذا اعطى اليه ، وقلائل هم الذين تجود عليهم السماء بهذا الحق فتريحهم من عناء طويل ، وكما أن الحياة لاحيلة لنا فيها فكذلك المرض . وكذلك الطبيب ، الذى

هو عند المريض اله ، تواضع فعاش بين الناس .
وقد قرر الطبيب أن مدة علاجي ستزيد على ثلاثة أشهر ، وعلى أن
أتردد عليه ثلاث مرات في الاسبوع . وقد ضايقني هذا كثيرا والى
حد كبير . لذلك فكرت في أن أستأجر لي مسكنا في الاسكندرية
أقضى فيه المدة اللازمة لعلاجي ، وأجد فيه بعض الهدوء حتى
لا أضايق الناس بمرضى ، أو أضايق نفسي بالناس اذا ما نزلت
في فندق عام ، ولكن الطبيب وكانت تربطني به صلة قديمة
أشار على بأن أنزل عند الام جيزابيل التي يعرفها من زمن بعيد
والتي عرفت بعطفها على نزلائها القلائل ، ورعايتها لهم وحدبها
عليهم . واننى سوف أجد عند هذه الام الرعوم . ما أنشده
من راحة وعناية وعطف . وقد اتصل الرجل بها تليفونيا
وأوصاها خيرا بى ، لاننى فى حاجة الى هذا الخير منها ثم زاد
بأن أعطاني بطاقة اليها ، دون عليها عنوانها ، ثم بعض عبارات
رقية أخرى . فشكرت له هذا الصنيع ، وانصرفت الى شارع
معين فى الرمل ، حيث نزل الام جيزيل ، وكان الوقت ليلا ،
والطقس مكفها ، والعاصفة ينبعث زئيرها فى الليل ، كما
ينبعث زئير الاسود فى الصحراء . . حتى ليخيل اليك أن
الطبيعة قد جنت فى تلك الليلة . ودلفت مكفكا من السيارة
التي أقلتني الى هناك ، ورحت أتمس بقدمي الهزيلتين طريق
المصعد . حيث الدور الرابع كما قال لي العنوان ، وما أن وقف
بى المصعد حتى وجدت أمامي مباشرة بابا كبيرا مغلقا ، وضعت
على جانبه لافتة نحاسية صغيرة تحمل اسم الام جيزابيل . .
فمددت يدي المريضة وضغطت على زر صغير كان بجانب اللافتة
تماما ، فانفتح الباب رويدا ، على بهو صغير أنيق يكتنفه
الصمت ، ويكتنفه أيضا ضوء شاحب ضئيل ينبعث من أباجرة
صغيرة وضعت فى أحد الاركان ، فوق رأس تمثال من البرونز
يمثل امرأة عارية ، فكانت الأباجرة الصفراء على رأسها
أشبه بتاج من الذهب ، على رأس ملكة من الزنوج ، وكان
الداء الذى أصابنى قد عاودنى فجأة ، فشحب لوني ، وارتعش
جسمي المتعب ، وراحت الحمى تأكل فيه ، كما تأكل النار
فى الشيء الهش . فألقيت بالحقيبة التي فى يدي ، وارتيمت
على أول مقعد قابلنى ، لاهث الانفاس ، وما أن اغمضت عيني

حتى غبت عن كل شيء ، كما هي العادة كلما عاودني الداء .
ولم أدر ما حدث بعد ذلك ، ولكنني فتحت عيني الملتهبتين بعد
حين فوجدتني مسجى على فراش وثير ، وأمامي سيدة عجوز
تنظر الى بعيني أم . وقد أطبقت أناملها في رفق على معصم
يدي . ووضعت يدها الثانية على جبهتي ، ومن ثم راحت تنظر
الى شيء ما تبينت فيما بعد أنه ساعة صغيرة كانت في يدها .
فعاودت النظر اليها ثانية . وحاولت أن أشكرها ، ولما عجزت
عن تحريك شفتي ، نظرت اليها وشكرت لها في صمت هذا
الجميل ، وكأنها أحست بما يعتمل في عيني ، وما توشوش
به نظراتي اليها ، فانفرجت شفاتها عن ابتسامة جميلة
أضفت على وجهها كله اشراقاً منورة ، وقالت وهي تربت
بيدها على رأسي :

— اطمئن ، انك بخير .

— شكراً .

— فقط تأخذ ملعقة من هذا الدواء .

— أي دواء ؟

— الذي أشار به الطبيب ، فقد استدعيته ، وهو الذي
طمأنني كثيراً ، فقط أشار بأن تأخذ ملعقة من هذا الدواء
عندما تستيقظ .

قالت ذلك ، ثم مدت ذراعها الى كتفي وأنهضتني ، ثم جلست
بجوارى بعد أن أسندت كتفي الى صدرها في حنان كبير ،
وأعطتني الدواء ، وما أن فعلت حتى طمرت الدموع من عيني
وأنا انسان وحيد في هذه الدنيا ، لا أب ، ولا أم ، ولا زوجة
ولا أحد يعطف علي . لذلك فالحسنة الصغيرة كبيرة جداً في
عيني يستروحها قلبي ويستشعرها فؤادي ، وتفيض علي
جوارحي فلا انسأها . لأنها تنقلني الى شيء جديد كنت أجهله
وأجهل أن له مكاناً في نفوس الناس

وكما أن ابن السبيل لا تسعده قطعة النقود ، بقدر ما تسعده رؤية
اليدين التي تمتد بها كذلك أسعدني أنني عرفت الام جيزابيل أكثر
مما أسعدني الخير الكثير الذي تلقيته على يديها ، لذلك ما أن مرت
أيام علي اقامتي في نزلها ، حتى غدونا وكأننا متعارفان من
زمن بعيد وكنت بحكم المرض لا أغادر النزل الا الى الطبيب
ثم أعود ثانية ، وكانت هي لا تخرج أبداً ، ولا تغادر بيتها الا

فى القليل النادر • وكانت كل لذتها ، أو كل حياتها ، أن تستيقظ مبكرة جدا ، فتشرف على شئون نزلاتها ، وكانوا قلائل ، فالغرف الخمس التى يتكون منها النزل ، يقطن ثلاثا منها بصفة دائمة ، ثلاثة أشخاص جميعهم يشتركون فى السن التى تقدمت بهم ، ومتاعب الايام التى جمعت بينهم ، فالسيد العجوز هيرمان ، وهو فرنسى الاصل ، فقد زوجه وبناته الثلاث فى الحرب العالمية الاخيرة ، اذ قذفت احدى الغواصات الالمانية السفينة التى كانت تقلهم الى مصر بطوربيد اودى بها الى قاع البحر ، لذلك فهو صامت دائما ، لا يكلم أحدا ، ولا يتكلم أحد ولا تراه ان رأيتة الا ساهما واجما يأتى مع الليل كل يوم الى غرفته ، ويغلقها عليه ، ثم يجلس الى زجاجة من الخمر ، حتى اذا ما أقبل الصبح ارتدى معطفه ، وهو من الفرو الثقيل • وقبعته السوداء الكبيرة ، وتناول عصاه الضخمة ، وذهب الى الشاطئ وجلس على حافته ، ومن ثم راح من خلف منظاريه الاسود السميك ، ينظر الى البحر ، ويتأمل زرقته فى هدوء حتى اذا أقبل الليل عاد الى المنزل ، واغلق غرفته عليه وجلس الى الزجاجة •

وتقطن الغرفة الثانية ، السيدة «جيهان هانم» وهى تركية الاصل ، فى الحلقة السادسة من عمرها ، لا تفتح باب غرفتها أبدا ، الا مرة واحدة كل صباح ، لتسأل هل ورد اليها خطاب من استانبول ، ومع ذلك تقول الام جيزابيل ، أن لها ثلاث سنوات ، ولم يرد هذا الخطاب بعد • أما الغرفة الثالثة فقد كان يقطنها أيضا وبصفة دائمة ، ضابط روسى عجوز ، عاصر جميع الحروب وابلى بلاء حسنا فى حرب القرم حتى فقد ساقه وعينه اليمنى ، وهو لا يخرج من غرفته أبدا ، ولا عمل له طوال اليوم سوى قراءة انباء العالم فى الصحف ، وجمع قصاصات هذه الانباء ، وتجليدها تجليدا أنيقا •

ويقابل هذه الغرف الثلاث ، غرفتان أخريان ، احدهما فسيحة رخبة ، وان كان أحد لم يدخلها أو ير ما بداخلها وقد أستدلت الستر الغالية على نافذتيها وبابها ، وهذه هى غرفة الام جيزابيل ثم غرفة صغيرة متواضعة هى التى أتىح لى أن أقطنها ولا يفصلها عن غرفة الام جيزابيل سوى ممر صغير ، يوصل الى البابين

وفي نهاية الممر مقعد وثير من الجلد، تجلس اليه الام جيزابيل طوال النهار وأغلب الليل، منكفئة على ابرتها في هدوء عجيب وكانت ماهرة في هذه الصناعة الى حد كبير، حتى أن جميع ستر البيت ومفارشه، من صنع يديها، كما حدثتني بذلك فيما بعد، وكانت هي الاخرى تحب العزلة، وتميل دائما اليها فتجلس الى ابرتها هذه الساعات الطوال، والطوال جدا، دون أن تحرك شفة أو ترفع رأسها . وكنت أختلس النظر اليها من باب غرفتي . وهي في جلستها هذه، والاباجورة الصغيرة ترسل ضوءها الهاديء على وجهها الأبيض الصامت الذي ما زالت به مسحة من جمال قديم تثير فضولك، وتجعلك ترجع الى الماضي البعيد، الى أربعين سنة مثلا، أيام أن كان هذا الوجه في عنفوان فتنته وجماله . . كان وجهها في مجموعته أشبه بمصباح جميل دقيق الصنع، ولكنه منطفيء، ترى زجاجه الشفاف، وقد علق به بعض الغبار الذي يطبعه الضوء القوي على الزجاج عندما يتوهج النور في قلبه . وكما أن هذا الغبار هو الذي يدل على الضوء الذي كان . كذلك تكون بعض التجمعات في الوجه الجميل، وكذلك يكون بعض السواد على الشفاه، فهو لا يشير الى القبح كما هي العادة، وانما يشير الى أن هنا كانت جذوة تنقد من أربعين عاما . وكذلك أيضا يكون الشعر البعد الذي تحوله الايام الى كتلة من الثلج . . تظل ترسل برودتها على جبين يرتعش، كان فيما مضى يشيع بنوره الدفء في العيون .

كنت أنظر الى هذا كله وأتأمله في صمت، ثم انظر الى عينيها الجميلتين، وما ترسلان من نظرات شاحبة تتركز من حين الى آخر على صورة صغيرة في اطار أنيق، ثبتت على الحائط الذي يقابل المقعد الذي تجلس اليه، كانت الصورة لفتي جميل في عنفوان الشباب ونضارة الصبا . . . كانت هذه النظرة التي تتركز على الصورة من حين الى حين، ثم لا تتردد عنها الا وفي العين بعض الدموع، هي التي تهز أعصابي هذا عنيفا وتثيرني الى حد كبير، فالنظرة دائما ساهمة واجمة حزينة كأنها نظرة الوداع الاخير . وكثيرا ما كنت أرقب الام جيزابيل، فأراها تنظر الى الصورة وتأملها حتى وكأنها تسر

اليها شيئاً بعينها • وتظل كذلك طوال جلستها ، حتى اذا
ما حان موعد نومها جمعت خيوطها وابرتها وأطفأت الاباجورة
ونفضت الى الصورة وانتزعتها من الحائط وتأملتتها حتى
لكأنها لم ترها من قبل ، ثم تطبع عليها قبلة طويلة صامتة •
ثم تضعها في رفق في حقيبة الخيط ، وتنصرف بها الى غرفتها
حتى اذا ما كان الصباح عادت الى خيوطها ومقعدها بعد أن تكون
قد ثبتت الصورة في مكانها

وهكذا كانت تفعل كل يوم حتى أننى
فكرت ذات مرة أن أسألها عن صاحب هذه الصورة • •
ولكنى لم أجرؤ ، وظلمت كذلك الى أن تشجعت مرة ، وسألتها
متجاهلاً كل شيء ، وهى تدخل على غرفتى ذات صباح وقلت :
- لقد استيقظت مبكراً هذا الصباح وخرجت الى الممر • •
فلم أجد الصورة الصغيرة أمام مقعدك كالعادة •
فنظرت الى وافتتر ثغرها عن ابتسامة حلوة وقالت :

- وما الذى يهمك فى الامر ؟
فشعرت ببعض الحرج ولكنى قلت :
- انها مجرد ملاحظة •
فقالت وهى تبتسم ابتسامة من تمر بخاطره ذكرى جميلة :-
- انها صورة ابنى روبير • وقد تعودت منذ أن مات
أن أحتفظ بها معى دائماً •

ولذلك فأنت لا تراها فى مكانها الا اذا رأيتنى معها •
ثم جرننا هذا الحديث القصير الى أحاديث قصيرة أخرى
عرفت منها أشياء كثيرة عن الام جيزابيل ، وعن ابنها الذى
فقدته ، وكيف أنه كان وحيداً فى الدنيا وذخيرتها فى الحياة
وكيف كانت الامال التى تعقدتها عليه ، والخير الذى كانت
ترجوه منه ، ولكن الموت أبى الا أن يسطو على شبابه عنوة
ويختطفه من أحضانها اختطافاً ، وهو لما يزل بعد فى نضارة
الصبا وعنفوان الشباب •

قالت لى الام جيزابيل هذا ، ثم أرادت أن تقول لى شيئاً
آخر ، ولكن الدموع خنقتها فأقلعت عن الحديث ، وظلمت من
حين الى آخر تذرف بعض الدموع فى صمت ، كما تختلس
النظر الى الصورة فى صمت ايضا ، فأشفقت عليها ، وتأملت
كثيراً لهذه الامومة التى تيممت منذ ثلاثين عاماً أو تزيد وظلمت

آلامى هذه تزداد يوما بعد يوم . ولا سيما كلما رأيته مصادفة
أو غير مصادفة تنظر الى الصورة ، الى أن مرضت الام جيزابيل
ذات يوم أثر نوبة برد حادة أصابته كالعادة وسألت عنها الخادم
ولم أرها فى الممر جالسة الى ابرتها كالعادة وسألت عنها الخادم
الصغيرة فأخبرتني انها ملازمة الفراش ، فأرسلت لها تحيتي
مع الخادم . لان الام جيزابيل كانت لاتسمح لاحد أيا كان
بأن يدخل غرفتها ، غير أنه حدث فى المساء ، وكانت الخادم
قد انصرفت لتبيت فى دارها حيث تعودت ذلك . وخلا المنزل
من كل شيء . وران عليه صمت مطبق موحش لا يشوبه سوى
دقات الساعة المعلقة فى البهو . ان داخلنى شعور بأن الام
جيزابيل قد تكون فى حاجة الى شيء فعلا . فذهبت الى غرفتها
ووقفت خلف بابها وناديت ، وما أن سمعت صوتي حتى أذنت
لى بفتح الباب . وكانت مفاجأة أن تأذن لى بذلك . ففتحت
الباب وما أن رأت وجهي حتى طلبت منى فى صوت خفيض
مرتعش أن أصنع لها كوبا من الشاي . فقفلت راجعا وصنعتة
لها سريعا . وقدمته اليها وهى فى الفراش مع قرص من
الاسبرين كان على مائدة صغيرة بجانب السرير .
وكانت هذه أول مرة أرى فيها غرفتها . لذلك أدهشنى جدما رأيت
فقد كانت الغرفة فى مجموعها منسقة تنسيقا جميلا رائعا يلفت
النظر ، اذ كل ما فيها يدعو الى البهجة والروعة معا ، حتى
ليخيل اليك أنها غرفة عروس فى ليلة زفافها ، فالسرير الكبير
تحف به الطنافس الغالية والستر الحريري الثمين ، كما
تزينه عدة ثريات صغيرة وكبيرة ذات ألوان متعددة، والصوان
الكبير تجمله عدة تماثيل رائعة من البرونز تمثل كيوبيد
الصغير يطلق سهامه وكذلك المرأة الكبيرة الجلوسة التى
وضعت بجانب السرير وصفت عليها أدوات الزينة الفاخرة
المتعددة الالوان والاصناف . وكان هذا كله بطبيعة الحال
يدعو الى شيء من الدهشة . لذلك رحت فى فضول كبير أتطلع
اليه والى غيره من محتويات المخدع الجميل . وبينما أنا كذلك
لفت نظرى شيء غريب آخر . فقد رأيت صورة غريبة فى اطار
رائع دقيق الصنع من خشب الابانوس ، يزين الغطاء
خفيف جدما من الحريري الاخضر الذى تلتصق تحته بعض الثريات

الصغيرة ، فتضفى عليه لونا غريبا • ويمسك هذه الصورة الكبيرة الى الحائط مقلب طائر كبير نشر جناحيه على الصورة وكأنه يحتضنها • ثم مال عنقه الطويل عليها ، فتدلى من ثغره مصباح أزرق دقيق ، راح يرسل ضوءه القوي على الصورة فيحيلها الى ما يشبه الشيء الذى يتوهج تحت الشمس ونظرت الى الصورة ودققت فى معالمها فلم أر شيئا فى أول الامر • • فعدت ودققت فيها مرة أخرى، ثم مرة ظالمة ورابعة حتى وضحت معالمها شيئا فشيئا ، ورأيت صورة روبير بوجهه الفاتن الجميل وشعره الناعم المتهدل على فوديه ، مسجى على فراش أبيض • وأمامه فتاة رائعة الحسن ، وقفت حافية القدمين عارية الجسم الا من شعرها الطويل المرسل على نحرها وكتفيها ، وثوب خفيف للرقص ، تزينه عدة قرنفلات حول الخصر ، وتجمله وردتان كبيرتان على الصدر، وقد مدت يدها الى روبير فانعقدت اليدان تحت منديل أبيض ، وقد وقف بين الاثنين قسيس عجوز يرسل اللحية • ينظر الى الاثنين نظرات حزينة متهافئة وكأنه يتلو شيئا •

نظرت الى هذا كله وتأملت طويلا فى صمت ودهشة عقدت لساني • وظلمت كذلك مأخوذا أنظر الى الصورة التى أمامى الى أن تحركت بجوارى فى الفراش الام جيزابيل وطلبت منى ان أسند رأسها المتعب الى الوسادة ، ففعلت • ولما استراحت قليلا نظرت الى وشكرتنى فى صوت محموم يرتعش ، ثم قالت وهى تنظر الى عيني المنبتتين على الصورة :

— فيم تفكر ؟

— فى هذا الشيء الغريب الذى أراه •

قالت وهى تريح رأسها مرة أخرى على الوسادة :

— ليس فى هذه الدنيا شيء غريب الا وجودنا فيها •

وخشيت أن يتطرق بنا مثل هذا الحديث كما هى العادة

فبعدنا عن الصورة التى مازالت عيني عليها فقلت :

— أقصد هذه الصورة الغريبة فى وضعها •

— أبدا لم يكن فيها شيء غريب • انها صورة روبير وهو على

فراش الموت •

قالت هذا وصمتت قليلا ، ثم بعد أن استردت أنفاسها

المتعبة ، تمتعت وكأنها تخاطب نفسها :
 — ألم أقل لك أن لروبير قصة ؟
 وكنت لا أعرف ان لروبير قصة ، غير أن الموت فاجأه وهو في
 ريعان الشباب ، لذلك التفت اليها وقلت :
 — وهل أطمع في أن يكون لروبير شقيق ثان ، فتقص الام
 على ابنها المريض قصة ابنها الذي مات .
 فمدت الام جيزابيل يدها المرتعشة التي تلهبها الحمى الى
 يدي ، وضغطت عليها في حنان كبير . ثم قالت ويدها لا تزال
 في يدي ، ونظراتها على الصورة وكأنها تراها لأول مرة :
 — كان روبير اذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره ، وكان طالبا
 في الجامعة ، ينشد العلم والمعرفة كغيره من الطلاب ، ولكن
 ذكائه المفرط اللماح كان يميزه عن غيره ، كما كان يميزه ايضا
 جماله وفتنته الرائعة التي لم تتوافر لغيره من الشباب الذين
 هم في مثل سنه ، وكان ينحدر من أسرة عريقة في الريف .
 انقضت جميعا أو كادت ، ولم يبق منها سوى روبير يحمل
 اسمها ، ويحفظ مجدها . ولذلك فأنت لا تراه الا رجلا دائما
 قد فات سنه بزمان بعيد ، ينفرد بنفسه دائما ، حتى اذا ما حملها
 ما لا تطيق . ويطيق شبابها الثائر ، تركها وانفرد بكتاب يقرؤه
 أو درس يستذكره ، أو محاضرة يجلس يستمع اليها في صمت
 ومثل روبير كان لابد أن يكون حديث الطلاب في الجامعة . .
 الطلبة يتحدثون عنه وعن ذكائه المفرط الذي كان يدهشهم
 كثيرا ، والطالبات يتحدثن عن جماله الرائع . . وفتنته هذه
 التي تطالعك في الصورة كنوارة الزهرة عندما تغمرها انفاس
 الربيع فتتفتح عن شيء جميل يبهجنا ، وكانت هي الى ما بعد
 التحاقها في الجامعة بعام لم تره ، ولم تسمع عنه شيئا . . .
 اللهم الا بعض الاحاديث العابرة . التي كانت تحس قلوب
 أترابها تهمس بها ، أو ترى عيونهن تتحدث عنها ، ومع ذلك
 لم تفكر يوما في أن تقطع ذلك الممر القصير الذي يفصل بين
 كليتي العلوم والحقوق لتراه . الى أن انقضى العام الدراسي ،
 واختيرت هي بالذات دون فتيات الجامعة على كثرتهن لتمثل
 دور — سالومي — التي ترقص عارية أمام الملك هيرود ، لتقديم
 رأس يوحنا على طبق من أطباق الملك كما جاء في بعض النصوص

وذلك فى الحفلة الساهرة التى اعتادت الجامعة أن تقيمها فى نهاية كل عام دراسى • وأقيمت الحفلة ونجحت سالومى نجاحا رائعا فى رقصتها ، حتى ألهمت آلاف الأكف التى راحت تصفق لها • غير أن شيئا ما ألهاها عن هذا النجاح كله ، وألهاها أيضا عن ذلك الدوى الذى كان ينبعث من الأكف كالرعد اعجابا وتقديرا لها •

ذلك أن يدا تقدمت لها وهى على المسرح وشدت على يدها بحرارة • • وما أن رأت وجه صاحب تلك اليد التى تضغط على يدها حتى وقفت مبهورة تهتف من أعماقها دون ريث أو أناة قائلة : « أنت فتى كلية العلوم » فأغضى الفتى حياء ، وتمتم وهو يسحب يده من يدها فى رفق يشبه الادب :

« أجل • • روبير اندريه » •

ولم تدر الفتاة ماذا حدث لها بعد ذلك ، ولكن الشيء الذى تدريه ، وتدرية جيدا جدا • لأنها عاشت فيه بعد ذلك طوال حياتها ، هو انها أحبت روبير ، وان روبير أحبها • وان ذكرى حفلة الجامعة ، ورقصة سالومى ، والثوب الذى رآها أول ما رآها ترقص فيه • كل ذلك كان كتاب حبهما الخالد الذى حفظا صفحاته صفحة صفحة ، حتى انتهى بهما الكتاب الى اعلان خطبتهما ، وان كانا قد أرجأ العقد والزفاف الى ما بعد عام حتى تنتهى دراستهما فى الجامعة وانقضى العام فعلا : وانقضى سريعا كما كانا ينتظران ، وأتيح النجاح للاثنتين فتخرجت هى فى كلية الحقوق، كما تخرج هو فى كلية العلوم وكان روبير أسعد ما يكون بذلك كله ، بالعام الذى انقضى ، والنجاح الذى أتى ، والزواج الذى سيكون •

غير أنه ذات ليلة وكان ذلك قبل الزفاف بأيام معدودات ، وكان روبير لا يزال يقطن النزل الذى كان يقطنه أيام الدراسة والفتاة تقطن غرفتها المتواضعة التى استأجرتها فى حي الطلبة منذ أن التحقت بالجامعة • حدث أن دق جرس غرفتها عند منتصف الليل ، وانساب رنينه فى أذنيها مزعجا على غير العادة فهبت من فراشها مذعورة ، وما أن فتحت الباب ، حتى رأت أمامها شيخا عجوزا قد انسابت دموعه على لحيته البيضاء المسترسلة حتى عشبشت عليها الدموع كما تعشش أنداء

الليل على خيوط العناكب ، وترسم عليها تلك الخيوط المائية المتعددة . وما أن رآها الشيخ حتى مد لها يده المرتعشة . . وأمسك بكتفها وكأنه يريد أن يسندها إليه ، ثم أخرج ورقة صغيرة من جيب صدريته السوداء المبللة . ولما قرأ العنوان . وتأكد من اسم الفتاة ، تمت بشفتيه المقرورتين وقال :

— ان روبير يموت ، وهو يريد أن يراك .
وتعلقت نظرات الفتاة بالشيخ ، كما يتعلق الانسان بربه ، وسألته أن يقول شيئاً آخر ، وأشفق الشيخ على الفتاة ، ثم عاد وأشفق على نفسه ، وهو يلهث خلف فتاة صغيرة تركض في الليل حافية القدمين ، ممزقة الثياب ، تصرخ وتعول .
أقبلت الفتاة على غرفة روبير فرأته مسجى على الفراش . ومن حوله ثلاثة من الاطباء أقبلوا سريعا لاسعافه في الليل ، غارت على وجهه وهمت أن تحتضنه . . ولكن أحد الاطباء حملها في رفق الى غرفة مجاورة . . ثم أفهمها الحقيقة ، وهي أن روبير أصيب فجأة بانفجار في المخ .

ونظرت الفتاة الصغيرة الى الطبيب وسألته ، ولكن في هدوء عجيب :

— اذن سيموت ؟
فقال الطبيب والالم يكاد يمزق صدره :
— أجل بعد ساعات .

فجفت الفتاة دموعها ، وتسالت خلسة من النزل ، دون أن يراها أحد . ولكنها لم تمكث غير بعيد حتى عادت ، ولكن في وضع غريب أثار دهشة الاطباء ، والنزلاء جميعا الذين التفتوا حول سرير المريض الذي يموت . . فقد عادت الفتاة وهي في أبهى زينة لها . عارية الجسم الا من ثوب خفيف للرقص . هو الذي كانت ترقص فيه سالومي للملك لتقدم له رأس يوحنا على طبق من أطباقه ، ثم تقدمت من السرير وتناولت يد المريض . وطلبت من القسيس الذي أحضرته معها أن يعقد لها عليه ، فقد كانت أعز أمانى روبير أن يعقد عليها وأن يراها ليلة الزفاف في ثوب الرقص الذي رآها أول مارآها فيه . . وكان أن عقدت عليه ، وكان أيضا أن ظلت ثلاث ساعات كاملة ترقص له أمام السرير ، وهو مفتوح العينين ،

ينظر اليها .. وينظر .. وينظر ، الى أن أغمض عيني .
وما أن بلغت الام جيزابيل هذا الحد من الحديث ، حتى
كانت الدموع قد غمرت وجهها ، فصمتت وأقلعت عن الحديث
ولست أدري لماذا بعد هذا الحديث ، أحسست أن شيئاً ما
أصبح يربطني بالام جيزابيل . وان خيطاً رفيعاً لا يكاد يرى
يعقد بيننا ، كما يعقد البؤس أحياناً بخيطه الزفيع بين صنفين
من الناس ، تشابهت حياتهما ، فقد شعرت بأن أشفأقي عليها
وألمى لها ، قد تحولاً الى حب كبير ، حب يجعل من حقى أن
أصنع معها كل ماأريد أنا ، لاكل ما تريد هى ، لذلك لم أصغ
اليها عندما طلبت منى أن انصرف الى غرفتى لاستريح ومكثت
فى غرفتها الى منتصف الليل وصنعت لها كوباً آخر من الشأى
وأعطيتها قرصاً ثانياً من الاسبرين ، كما ملأت لها الكيس
الجلد بالماء الساخن ووضعته عند قدميها . ثملاً هدأت نفسها
شيئاً ، وتلاشت عن وجهها تلك الخطوط السوداء التى كانت
قد ارتسمت عليه أثناء الحديث .. وأحسست بأن جسدها
المتعب ، قد استراح الى الدفء ، سحبت عليها الغطاء وانصرفت
الى غرفتى ، وأنا غير مبتئس أو حزين . فما وجدت مثل
الشقاء الحقيقى ، ينظف النفس ويظهرها ، ويحيلها الى ذلك
الهدوء الروحى الذى نستشعره عندما نكون فى المعبـد
نصلى ونتعبد .

بيد أنه حدث عند الفجر — وكنت لم أنم بعد — أن أحسست
حركة فى غرفة الام جيزابيل ، فظننت انها فى حاجة الى شىء
كأن تصنع كوباً آخر من الشأى أو تغبر الماء الساخن فتسللت
من الفراش سريعاً ، وما أن أقبلت على باب غرفتها ، ودفعته
دون استئذان ، حتى رأيت شيئاً غريباً لم أكن لاتصور أبداً
أننى سأراه .

فقد رأيت الام جيزابيل حافية القدمين عارية الجسم الا من
ثوب خفيف للرقص تزيينه عدة قرنفلات حول الخصر وتجمله
وردتان كبيرتان على الصدر .. وكانت ترقص .

ميرفهام



من المضايقات التي تثقل على حياتي وتسبب لي أحاسانا
متاعب عديدة ، مرض ضعف الذاكرة الذي أصبت به أخيرا
فالموعد الذي أحرص عليه ، وأدونه في كل شيء ، في الاجندة
وعلى علبة السجائر ، وفي بطاقة أضعها في مكان بارز من
حافظة نقودي ، هو الموعد الذي لأفنى به ، ولا أذكره إلا بعد
تاريخه بيومين ان لم يكن أكثر، وهذا يسبب لي آلاما ، وضياح
منافع كثيرة . ولكن تعزيتي في ذلك هي أن غيري ممن أصيبوا
بهذا الداء . هم أشد مني مرضا به ، وأكثر متاعب وآلاما ،
لهم ولغيرهم من الناس فكثيرا ما أكون في الطريق ثم يراني
شخص ما ، فيهرع الى ويشد على يدي ويصافحني في حرارة
وشوق وهو يتفردس في وجهي . ثم فجأة يسحب يده سريعا
وهو يقول :

متأسف ، حسبتك أحمد افندي . . . والذي يغيظ في ذلك
هو أن يكون اسمك فعلا احمد افندي ، كما هو الحال معي ،

والذى يغيظك أكثر هو تفكيرك فى أحمد افندى هذا سميك وشبيهك ، وأذكر ذات مرة اننى كنت فى الطريق ، فاذا بسيارة تقف أمامى ويهبط منها رجل وقور ، أسرع الى متلفها وصافحنى فى شوق ، ولكنه ما أن فتح عينيه جيذا ، ونظر الى وجهى من خلف منظاره السميك ، حتى سحب يده من يدي وهو يقول فى خجل :

— متأسف حسبتك أحمد افندى .

وأثارنى هذا وضايقنى . فقلت له على الفور مغتاظا :

— أنا أحمد افندى .

فازداد خجل الرجل وقال وهو ينظر فى وجهى مرة ثانية:

— معذرة قصدت أحمد افندى آخر ، وانصرف فأشفقت

عليه من هذا المرض .

. . . . ومنذ أيام كتبت أسير فى المزمز التجارى، وكان الزحام على أشده ، فاذا بسيدة بارعة الحسن ، رائعة الجمال ، تقبل على كما يقبل شذى العطر متضوعا من بعيد، وهلت على مشرقة الوجه متهللة المحيا ، ومدت الى يدا يزينها الذهب والماس الثمين ، وشدت على يدي فى رفق وحنان كاد يذوب له قلبى وصافحتنى فى حرارة مشبوبة ، فبلعت ريقى ، وانتظرت حتى تسحب يدها من يدي وهى تقول : متأسفة حسبتك أحمد افندى . . ولكنها لم تفعل ، ولم تقل بل تركت يدي وتأبطت ذراعى ، وسارت بجانبى وسط الزحام مرحة كما لو كنا صديقين حميمين أو زوجين مؤلفين . فارتبكت ارتباكا شديدا ونظرت الى وجهها الفاتن وجمالها الذى بهرنى وشعرت بحسرة كبيرة لاننى لم أكن أحمد افندى حقيقة وقلت فى نفسى ماذا يضر لو تركتها (على عماها) الى أن يقضى الله بيننا أمرا ولكنى عدت فاستصوبت أن ألفت نظرها فى أدب الى أننى لست أحمد افندى . ورجحت عندي هذه الفكرة الأخيرة ، وهممت أن ألفت نظرها الى الحقيقة ولكن بسمة حلوة أرسلتها فجأة فومضت فى قلبى وأنارته جعلتنى أحس بمعنى الجمال وفتنة الانوثة وصخب الشباب وحرارته المتدفقة فزمت شفتي سريعا وقلت لنفسى : فالأمد فى عمر هذا النعيم خطوات وكأنها أحست بما يجول فى خاطرى فالتفتت الى صاحبة

وقالت وهي تنظر الى وجهي وتتأمله كأنها تتحسسه بعينيها الجميلتين : «ازيك يا احمد» ، ولم أدر حتى الان على وجه التحقيق هل رددت عليها هذه التحية أم لا ، لان الفرحة التي أحسستها عندما ذكرت اسمي وذكرته مجردا كانت قد غمرتني وفاضت على حتى أنستني كل ماعداها . بيد أن هذه الفرحة سرعان ما تلاشت فجأة عندما تذكرت احمد افندي الاخر . وقلت لنفسي : ومن يدري لعلها تقصده ، وأثار هذا الاحساس في نفسي ثورة كبيرة فالتفت اليها وهممت أن أقول لها شيئا بيد انها كانت قد سبقتنى قائلة، وما زال السرور ملء اهابها :
- متى عدت من السفر ؟

فأسقط في يدي وتلعثمت قليلا بيد أني تذكرت فجأة سفرى الى الاسكندرية وعودتي من أيام ، فقلت على الفور :
- عدت من ثلاثة أيام .

فقال ضاحكة نفس الضحكة التي مازال وميضها يشع نورا في عيني :

- أقصد متى عدت من أوروبا ؟

وهنا حظ طائري وهدأت نفسي، وعلت وجهي تلك الاشراق التي تغمرنا عندما تبعث الينا السماء بخير عظيم، فقد كنت في أوروبا فعلا . ولذلك تأبطت أنا ذراعها وقلت وأنا أتحسسها بأصابعي وكأنني أتحسس قلبي الذي بين جنبي :

- عدت منذ عام .

- وكم مكثت هناك ؟

- سبع سنوات .

فقال وكأنها تأسف على شيء :

- سبع سنوات ومن قبلها عشر لم أرك .

وكنا قد قطعنا الممر ، وخرجنا الى شارع عدلى ففتحت حقيبتها وأخرجت مفتاحا صغيرا ثم وقفت أمام سيارة فخمة كبيرة ، وقفت الى جانب الطريق كما تقف الدنيا الى جانب انسان ، وقالت بعد أن فتحت بابها واستقرت أمام عجلة القيادة . .

- لولا اني «معزومة» على الغداء لما تركتك ، فمتى ستحضرالى وكأنها قرأت شيئا في عيني فعقبت ضاحكة وهي تعابث

يـدى بأصابعها الرقيقة :

— لعلك لم تعرفنى بعد ، وفى هذا ما يضايـقك وانا أحب أن أريـحك ولكنى أحب ايـضا أن أتعبك قليلا من أجلـى ، ولذلك فأنا أـرجىء ما تريد الى أن تزورنى فى بيتى .

وفتحت حقيبتها مرة ثانية وأخرجت «أجنـدة» صغيرة بلون الذهب ثم قلما ثمينا من الذهب الخالص وكتبت لى عنوانها على ورقة صغيرة ثم رقم تليفونها ثم نـمرة أخرى أفهمتنى انها سرية ، ثم تواعدنا على اللقاء فى بيتها مساء اليوم التالى . . . وانطلقت بسيارتها الفخمة تلوح لى بيدها الجميلة حتى غابت فى زحمة الناس ، كما يغيب النور المتألق فى زحمة الظلام فانصرفت تغمرنى فرحة لأعهد لى بها ، وتفيض على سعادة خالصة أشعرتنى بمعنى الحياة، وجعلتنى أحس بأننى انسان آخر يعيش ويـطرب ، ويضحك ، ويريد من الحياة كل شىء ، وعجبت من نفسى ومن الناس ولماذا لانعيش سعداء دائما ، ونطرح عن أنفسنا ذلك الشقاء ، وتلك المحن ، ما دامت فى الحياة هذه المصادفات الجميلة ، وما دامت السماء تلقى الينا فى الطريق بمثل هذه الكنوز الغالية التى تحيل حياتنا الى سعادة دائمة وهناء مقيم ، وشعرت برغبة شديدة فى أن أعيش فى ذلك اليوم ، فضحكت وترىضت ، وزرت بعض الاصدقاء ، وذهبت الى السينما ، واشتريت بعض الكتب ، ولما لم يبق شىء ذهبت الى بيتى فرحاً مسرورا ، وأويت الى فراشى خفيفا رشيقا ، كما يأوى العصفور الى عشه بين الحماثل بيد أننى ماكدت ألقى برأسى على الوسادة وأستعيد صورة ذلك النهار الجميل ، وتتمثل لعينى فتنة تلك الانوثة وروعة ذلك الجمال ، حتى شعرت بخيبة قاسية ، واكتنفتى تفكير ثقيل ، انقلب الى قلق وضيق شديدين ، حتى صرت لا أكاد أسترد انفاسى الا بصعوبة ، فقد قفز الى ذهنى فجأة « احمد افندى» — لعنة الله عليه — وقلت : لابد أن يكون هو الذى قصده ، والا فكيف تعرفنى هذه الحسناء، وتستقبلنى بتلك التحية وهذه الحفاوة البالغة ، ثم تدعونى الى بيتها وانا لم أعرفها ولم أرها من قبل . . . حقيقة هى نادتنى باحمد . . . ولكن هو الآخر اسمه احمد ، وحقيقة هى سألتنى عن رحلتى

الى أوروبا ، والسنوات التي قضيتها هناك ، ولكن هل أنا
وحدى الذي ذهب الى أوروبا ؟ ٠٠٠ هناك مئات من الناس
ذهبوا الى أوروبا وقضوا سني دراساتهم هناك ، فلماذا لا يكون
هو أحدهم ٠٠٠ ولكن هل هي من ضعف الذاكرة بحيث لم
تستطع أن تفرق بينى وبينه ؟ ٠٠٠ ولم لا ؟ أنا نفسى
مصاب بهذا الداء اللعين ، والرجل الذى هبط من السيارة
مصاب به أيضا ، والرجل الذى قابلنى ذات يوم فى التراب
وعانقنى وقبلنى ، ثم قال لى فى النهاية : متأسف حسبتك
صديقى هو أيضا مريض ، وفوق هذا كله ، لماذا لا يكون ذلك
الوغد المسمى «احمد افندى» يشبهنى تماما ، وبذلك يلتمس
لها العذر ولغيرها من الناس ٠٠٠ وعلى هذا قضيت ليلة
طويلة مسهدة لم اتنبه الى طولها المروع الا عند ما نظرت الى
وجهى فى المرآة وانا أحلق ذقنى ورأيت اصفراره والشحوب
الذى ران عليه ، وكذلك ايضا قضيت اليوم ، وكان أشد
سخفا وطولا من ليلة الذى مضى ، كان يوما أشبه بجثة ميت
عزيز بقى تشييعها حتى يحضر الاهل من أقاصى البلاد ٠٠
ولما أوفت الساعة على السادسة مساء ، وهو المسعود الذى
حددته للزيارة فى منزلها ، شعرت بكرب شديد لاننى فكرت
فى عدم الذهاب ، خشية أن تكون قد استردت ذاكرتها ، أو
يكون «احمد افندى» الحقيقى قد سبقنى اليها ، وبذلك يتحرج
موقفى ، وأنا بطبعى رجل خجول حىي تؤذيني حتى الهمسة
غير المقصودة ، وأكربنى أكثر من هذا كله تفكيرى المبلبل الذى
لم يقطع برأى ٠٠٠ هل أذهب أم لا ؟ ٠٠٠ ورحت أذرع الطرقات
كأننى دمية يحركها طفل صغير ، ولكن الشئ الذى دهشت له
والذى هو فى كياننا جميعا ولم نفطن اليه ، هو كيف اننا فى
مثل هذه اللحظات نغالط انفسنا مغالطة كبرى ، اذ وجدت
نفسى فجأة وعلى غير قصد فى طريق الهرم ، أقف أمام فيلا
فخمة ، وأدقق النظر فى اللافتة النحاسية المثبتة على بابها
الجميل ، وأقرأ بعينى هذا الاسم : «فيلا ميرفت» .
وطرقت الباب ، أو على الاصح لمست الزر الكهربائى ٠٠
فانفرج باب الحديقة الكبير عن خادم نوبية جميلة ، تعرف
كيف تستقبل الناس وتحييهم ، وما أن قطعت خطوات فى

ممر الحديقة ، وبلغت ذلك التمثال الذى يمثل «فينوس» عارية ، والماء يتساقط رذاذا على جسدها من نافورة لا ترى . حتى هرعنت الى «ميرفت هانم» واستقبلتنى فى ثوب للسهرة لم أر أحكم منه فى إبراز مفاتن الجسد والكشف عن كنوزه الغالية ، وحيثنى فى نفس الشوق الزائد ، وصافحتنى فى نفس الحرارة الملتهبة وزادت فبالغت فى الكرم ، بأن قدمت لى خدها الاسيل ، لارشف منه قبلة أو قبلات ان شئت ، ثم دلفت بى الى الداخل فرحة لمقدمى وقد أحسست ذلك من فرحة أصابعها الجميلة الضاغطة على ذراعى ونحن نصعد معا ذلك الدرج المرمى ، الموصل الى البهو اليابانى الذى يمثل فى أناقة رائعة ركن الامبراطور ، وما أن بلغناه حتى اجلستنى على مقعد وثير وجلست بجانبى مريحة ، تحدثنى حديثا جميلا عذبا ، كان أهمه فرحتها التى لاحد لها بتلك المصادفة الجميلة التى جمعت بيننا .

وهممت أن أقول لها شيئا هاما يتوقف عليه مصيرى معها لولا ان الخادم النوبية الجميلة أقبلت علينا وقالت لها شيئا بالفرنسية ، نهضت على أثره متهلة وهى تقول :
— لحظات .. استقبل فيها ضيوفك

فقلت فى دهشة :

— ضيوفى أنا ؟

فانثنت ضاحكة تربت على كتفى فى حنان جم وهى تقول :
— ألا أقل من حفلة ساهرة أقيمها فى بيتى لمناسبة لقائك ثم انصرفت ، وبقيت فى مكاني لاهثا ، فقد تأكدت تماما من اننى بعد لحظات سوف أطرد شر طردة ، عندما تكتشف الحقيقة وتعود اليها ذاكرتها وتعرف اننى غير «احمد افندى» الذى تقصده ، وان كنت أحسست بالاشفاق عليها من المرض الوبيل الذى تعانيه ، كما شعرت بكراهية لاحد لها ، لهذا «الاحمد افندى» ووددت لو أراه لاقتله ، ولذلك جلست فى مكاني أرقب من بعيد كل سيارة تقف أمام الحديقة ، وكل ضيف يهبط منها ، وكلما رأيت شخصا يماثلنى قصرا أو طولا حسبته «أحمد افندى» ..

وغاض الدم من وجهى ، وتدهورت أنفاسى ، الى أن أقبل المدعوون جميعا وكانوا من علية القوم ونجوم المجتمع ، فقد

رأيت من بينهم بعض الكبراء والعظماء ، وبعض نجوم السينما والمسرح وكبار أهل الفن ، كما رأيت رئيس وزراء سابقا وعددا من الوزراء ، وأشهد أنها كانت حفلة رائعة ، لم تشهد عيناى ما يماثلها بهاء وفتنة وثراء ضخما اللهم الا فى الخيال أو فى بطون الكتب . وقد امتد الحفل الى وقت متأخر من الليل بين مرح وطرب . الى أن لعبت الخمر برؤوسنا جميعا واختلط الحابل بالنابل ومكثنا كذلك حتى أعلن ختام الحفلة برقصة شرقية للداعية ، واستطاعت فيها أن تستلب عقولنا جميعا ، وان تلهو بعيوننا التى تعلقت بجسدها العارى ، وهو يتلوى كأفعى كبيرة ، يتجمع جسدها حيناً فيصبح كالكرة وينفرد فجأة كأنه السيف ، تغدو وتروح فلا ترى لها قدما ، وانما ترى صدرا يروح وظهرا يجىء ، وثديا ينطلق كأنه السهم وردفا يترنح كأنه الطير المهفهف بجناحيه ونحن جميعا كالدمى ، لا يختلج لنا طرف ولا يرف لنا هندب الى أن ثقلت علينا النعمة، وتعبت نفوسنا من كثرة السرور، فأنتهت رقصتها الرائعة .

ثم أخذ العقيد ينفرد وانصرف المدعوون شاكرين لها هذا الفضل الكبير ، ومددت يدي مع أيديهم لأصافحها وأشكرها ، ولكنها استبقتنى هامسة فى أذنى أن أنتظر . ولما انصرفوا جميعا وبقيت وحدى معها فى البيت جلست قليلا لتستريح ثم راحت معى تجوس خلال قصرها الفخم وقرينى غرفه واحدة بعد أخرى . وأثاثه الفاخر قطعة قطعة ، كما أطلعتنى على بعض أسرارها وتحفها فرأيت فيما رأيت صندوق جواهرها الثمينة ، التى قدرت قيمتها بحوالى عشرة آلاف جنيه كما اطلعتنى على ثوب ثمين للرقص غير الذى رقصت لنا به محلى بالذهب الخالص وزانته عدة ثريات من الماس الثمين . أهدها اليها أحد ملوك الشرق عندما رقصت أمامه فى إحدى المناسبات كما اهدى اليها رئيس إحدى الدول العربية قرطا شرقيا كبيرا يمثل كفا جميلة طعمت أصابعها بالزمرد والياقوت وحليت أناملها بحبات اللؤلؤ . وهو كبير جدا بحيث ينسدل على جانبيه الجيد ، ومعه «صفا» من الذهب يمثل غدة أهلة ونجوم ، تغطى الصدر كله ، ويهبط بهلال كبير تزيينه ثلاث نجوم من اللؤلؤ وقالت لى أن ثمنه مع القرط ثلاثة آلاف جنيه

ثم اطلعتني على أشياء أخرى كثيرة لم اكن أتصور انها في حوزة امرأة من النساء ثم قادتني بعد ذلك الى البار وأجلستني تحت صورة جميلة في اطار ثمين لامرأة ترقص عارية للنيل ليلة زفافها اليه ، كتبت تحتها كلمة «القربان» ثم قالت وهي تنظر الى وتتناول زجاجة من خمر معينة، قالت انها تفضلها على غيرها: - لنشرب معا نخب هذه الليلة .

وجلست بجانبى تناولنى كأسا ، وتتناول غيرها ، وأنا رجل لأحب الخمر ، ولا أميل اليها كثيرا ، ولذلك لعبت بعقلي سريعا ونقلتني فجأة الى عوالم أخرى ورحت من خلال الضباب الذى غشى عيني أتطلع الى جمالها الساحر وأنوثتها الدافئة وتحرك فى كيانى انسان آخر لاعهد لى به بيد اننى تذكرت فجأة احمد افندى ، فأظلمت الدنيا فى عيني وهرب سريعا ذلك الانسان وبقيت وحدى حائرا أسأل نفسى عدة أسئلة فلاأظفر بجواب واحد . وضايقنى هذا جدا وأردت أن أضع له حدا وشجعتنى الخمر وأشعرتنى بقوة هائلة تدفعنى دفعا الى أن أوجه بعض أسئلة وليكن ما يكون وكأنها فطنت الى ما يجول بنفسى فقالت ساهمة تدغدغ بشفتيها ثنايا الكأس :

- فيم تفكر ؟

فقلت على الفور :

- فى أمرك معى . أريد أن أعرف من أنت ، ومن انا بالنسبة اليك .

- وماذا تفيد المعرفة .

- أن يعرف الانسان نفسه على الاقل .

فاكتنفت وجهها كآبة وقالت ساهمة تنظر الى :

- أخشى أن انا صدقتك القول ، أن أفقدك هذه السعادة

وأحرمك من هذا الهناء

- كيف ؟

- هكذا النفس تنعم بالخيال وتعيش فيه ، وتشقى بالحقيقة

وتهرب منها .

قالت ذلك وصممت لحظات جالت خلالها فى عينيها بعض الدموع وسقطت احداها خلسة على زجاج الكأس وانسابت على جداره وكأن هذا المنظر أعجبها فتأملته طويلا وتفرست

فيه ثم أفرغت سريعا مافى الكأس فى جوفها مرة واحدة
وقالت على الفور :

- نسيت أن أسألك كيف حال الست الكبيرة ؟
ونطقت اسم أمى فى جلال مهيب فأدهشنى أنها تعرفها
وان كان هذا قد سرنى بعض الشيء ، ولما أخبرتها بأنها ماتت
اكفهر وجهها وهى تترحم عليها ... وحين سألتها .. كيف
عرفت أمى تركتنى وانصرفت تتمايل من كثرة الخمر التى
تجرعتها ولم تلبث حتى عادت ، واستلقت بجانبى على المقعد
كأخت عطوف . وأسندت رأسها الجميل الى كتفى ، ثم
راحت ترينى فى يدها صورة فوتوغرافية صغيرة ، رأيت فيها
رسم أمى جالسة على مقعد وثير ، وانا بجانبها ومن خلفنا فتاة
تحمل على رأسها أخى الصغير ورحت أتأمل الصورة وهى تتأملها
معى وتشير بأصبعها الى رسم أمى وتقول : أليست هذه هى
الوالدة ... وهذا هو أنت ... وهذا هو آخر العنقود ...
ثم بلعت ريقها وأردفت : وهذه هى : أنا

- انت ... أنت من ؟

فقلت وهى تربت بيدها على كتفى وتريد أن تضحك :
- انا مرزوقة .

ثم انتصبت واقفة ، وقالت وهى تصب من الزجاجه خمرًا
وتفرغها فى جوفها :

- أنسيت مرزوقة ... مرزوقة التى هربت ذات يوم مع
«محمد افندى» كاتب الصحة ، وقيل انها ماتت .

. وهمت أن تقول شيئًا آخر ، وأحست بالكلمات تتزاحم
على شفتيها وتريد أن تنطلق ، ولكن الخادم النوبية الجميلة
كانت قد أقبلت علينا متجهمة الوجه ، وأنهت اليها سريعا بأن
السائق قد اعد العربة ، فصافحتنى مودعة على أن نلتقى فى
الغد ، ولما مدت لها يدي أحسست بشيء دافئ يغمرها ، ولم
أفطن الى انها الدموع الا بعد أن خرجت .

وهنا صمت محدثي لحظات ، أطرق خلالها حينًا ، ثم رفع
رأسه الثقيل وعينييه المغرورقتين وقال بصوت خافت لا يكاد يبين :
- وكانت مرزوقة بالنسبة لى ... بيد أنه لم يكمل لان
الدموع كانت قد غلبته وفاضت على شفتيه فأغرقتهما ، كما
أغريت معهما ما كان يريد ان يقول .

شيخ على



بالرغم من أن لي أكثر من أربعين عاما قضيتها في وزارة المعارف * التحقت بها طالبا ، ثم مدرسا للغة العربية ، ثم مفتشا لها بعد ذلك * فأننى مع هذا العمر الطويل ، لأستطيع أن أذكر عاما واحدا مر على فيها بخير ، ولا سيما فى السنوات الاخيرة ، وفى موسم الامتحانات بالذات ، وما يجره هذا الموسم من ويلات لا حد لها ولا قبل لي باحتمالها * فالوزارة فى كل عام تتفضل غير مشكورة فتتدبنى للاشراف على الامتحانات فى بلد ناء ، ليس من سبيل الى الوصول اليه غير المتاعب التى ترهق النفس ولا يحتملها الجسد * وانا رجل بطبعي الريفى أكره السفر * ولا أحب الانتقال * ولا يضايقنى شيء مثلما تضايقنى رؤية القطار الذى ينبعث صفيره المزعج الى أذنى كنواح الثعالب * ولولا لقمة العيش لما ركبت قطارا فى حياتى ولا ارتحلت عن قريتى يوما * وسبب ذلك هو حياتى الخاصة التى

رتبتها على وتيرة واحدة أو بمعنى أصح وأصرح • رتبتهـا لى المرأة التى تزوجتنى من ثلاثين عاما ، ايام أن كنت طالبا فى السنة الثانية فى تجهيزية دار العلوم • والتى كانت تكبرنى بخميس سنوات ، فاتخذت من تباين هذه السن ، ومن ضخامة جسدها وطوله وعرضه الذى يفوقنى بكثير ، وسيلة الى فرض ارادتها على • وقد استطاعت زوجتى بـارك الله فيها وأنزل الرحمة على قلبها الغليظ • ان تروضنى كما تروض الام ابنها على شىء معين • وان تضع لى نظاما جعلتنى لا أحيد عنه مهما امتد الزمن واختلفت الايام •

فالبـيت الذى نقطنه - وكان هذا من فضل الله على - يقع بجوار المدرسة التى أعمل فيها ، فأنا أخرج من البيت مع الصباح الى المدرسة ، وأعود من المدرسة مع العصر الى البيت ، ثم أخرج بعد ذلك - اذا ما سمحت الظروف بالخروج - لاصلى المغرب والعشاء فى مسجد السيدة ، لانه أقرب المساجد الى البيت ، ثم أشرب فنجانا من القهوة فى قهوة المحمدى • ثم أعود بعد ذلك الى البيت • وغير هذا فأنا لا أعرف شأننا آخر من شئون الحياة • ولا من شئون بيتى أيضا • فزوجتى هى صاحبة الامر والنهى فى كل شىء ، وهى الحاكم المطلق فى البيت • أما أنا فما على الا أن أقبض مرتبى أول كل شهر ، واحتفظ به أمانة فى جيبى الى أن أعود الى البيت فأسلمه اليها كاملا غير منقوص • حتى السبعة القروش والمليمات الثلاثة التى يعطيها لى الصراف فوق الاوراق الصحيحة ، أعطيها اياها • لا تنقص قرشا ولا تقل مليما • وما زلت أذكر جيدا ذلك اليوم المشؤوم الذى أعطيتها فيه الظرف وبداخله المرتب وكان أول الشهر كما هى العادة ، ولما فضته وجدت به زيادة • ورقة مالية من فئة الخمسة والعشرين قرشا ، كنت قد ادخرتها من مصروفى اليوم الذى تعطينيه • وكنت من سوء الحظ قد أخفيتـها فى الظرف الذى وضعت فيه المرتب دون أن أفطن الى ذلك •

وحاولت أن أقنعها بهذه الحقيقة فلم تقتنع ، وظننت أننى أتناول مرتبا يزيد على الرقم الذى تأخذه ، وأننى أخفى عنها ذلك ، وثارت ثائرتها ، والويل لى اذا ثارت يوما • وراحت تكيل

الى الاتهامات بغير حساب . . . اتهمتنى بالكذب . . . واتهمتنى بالحيانة . . . واتهمتنى أيضا بعدم صلاحيتى كزوج ، أقل واجباته أن يكون صادقا مع زوجته وشريكة حياته . وكادت تجمع ملابسها وتعود الى القرية ، لولا أنها ذهبت فى اليوم الثانى بنفسها الى ادارة المدرسة ، ولانها لا تعرف القراءة ، اصطحبت معها جارة لها اشتهرت فى الحي - بفك الخط - ولم تهدأ ثأثرتها الا عندما أقنعها السكرتير وأطلعها على كشف المرتبات ، وقرأت صاحبته أمام اسم الشيخ على سالم الدجمنى « مبلغ وقدره : ٣٥ جنيه ، و ٧ قروش ، ٣ مليمات » . أما البارة فمنقوط كما يقولون فى حسابات الدوبيا .

وبذلك هدأت الست زكية ، وانشرح فؤادها ، وان كانت قد رجعت الى مصروفى اليومى وعملت فيه بحكمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عندما صنعت له زوجه حلوى ذات يوم ، ولما سألها عن مصدرها ، أفهمته بأنها كانت تدخر فى كل يومين حفنة من الدقيق حتى كان هذا الذى صنعت . فأمر عمر بانقاص هذا القدر من الراتب كل يومين ما دام زائدا على الحاجة وأعاده الى بيت المال . وهذا ما فعلته معى زوجتى فقد أنقصت القروش العشرة التى تعطيها لى يوميا لمصروفى الخاص الى ثمانية فقط . وحاولت أن أقنعها بعكس ذلك ، وكيف أننى رتبت حياتى اليومية على هذه القروش العشرة ، وانها اذا أنقصتها فستسبب لى بذلك ارتباكا ماليا مؤكدا ، ولكنها لم تقنع ونفذت رغبتها . وقد اتعبنى هذا كثيرا ونغص على حياتى ، لاننى كنت قد رتبت هذا المصروف اليومى على نظام معين :

علبة سجائر ماركة الفيل بستة قروش .

مسح الحذاء . . . قرش

كوب عرقسوس . . . قرش

قنجان سكر زيادة فى قهوة المحمدى . . قرش

صحيفة . . . بقرش

ولذلك عندما نقصت القروش العشرة الى ثمانية ، أتعبنى جدا أن أوازن بين الايراد والمنصرف . ولم أستطع ذلك الا بعد

ان استغنيت عن الصحيفة . . . واكتفيت بقراءتها في غرفة الناظر في أوقات الفسحة . وكذلك مسح الحذاء . . . فبعد أن كنت أمسحه كل يوم ، جعلته كل بضعة أيام . . . أما قهوة المحمدى فقد قل ترددى عليها ، وأصبحت لا أذهب اليها الاكل مساء خميس ، حيث كنت أشرب فنجان القهوة مضافا اليه مسحة من عنبر الشيخ الخزرجى مدرس الحساب الذى اتخذ من قهوة المحمدى محلا مختارا له . .

لهذا كان موسم الامتحانات كما قدمت ، يرهقنى ارهاقا شديدا ، ويسبب لى متاعب لاحد لها ، لانه يضطرنى الى السفر والسفر يضطرنى الى تغيير هذه الحياة الرتيبة ، ويضطرنى أيضا ، وهذا هو المهم ، الى كثرة النفقات التى كانت زوجتى لا تقرها ولا تعترف بها الا بعد جهد دونه حفظ الفية ابن مالك . أو شرح معلقة زهير . ومع أنى كنت طوال مدة السفر ، أعد لها كشوفا يومية أثبت فيها جميع نفقاتى من الصباح الى المساء ، الا أن زوجتى كانت لا تصدق عليها الا بعد عراق طويل ، تذرف عيناها خلاله الدموع الغزار ، تحسرا على « بختها المائل » ، وحظها العاثر الذى أوقعها فى زوج مبذر لا يرعى للمال حرمة ، ولا يعمل للقرش حسابا . ولا يحترم مشيئة الزوجة .

وما زلت أذكر ذلك الحادث الذى تورطت فيه تورطا شديدا فقد انتدبت ذات مرة للاشراف على الامتحانات فى بلدة كفر صقر . وكان الجو حارا والعمل مرهقا الى حد كبير . ولذلك لما خرجت من اللجنة بعد المجهود الكبير الذى بذلته أردت أن أروح عن نفسى بعض الشيء ، فأطوف ببعض شوارع المدينة وشسعت أتساءل سيرا بأننى جائع ، ومررت بمصادفة بمطعم اشتهر هناك بجودة صنع الكوارع والثريد المجهز بالخل والثوم ، وكنت أشتهى هذه الاكلة منذ زمن غير قليل . وترامت الى أنفى من بعيد رائحة الثوم النفاذة فسأل لعابى وتلمظت شفتاى ، فوقفت أفكر ولكنى لم أسترسل فى ذلك خشية أن يحول التفكير فى بعض الامور ، بينى وبين الاقدام لذلك انفلت سريعا . ودلفت الى المطعم ، وطلبت فى سرعة - حتى لا أراجع - جميع ما أشتهى دفعة واحدة . نصف رأس ضانى . . . كوارع عجالي بالتربية . . . « فتة » .

بالخل والثوم • وما أن جاء كل ذلك أمامى •• حتى ألقيت
بكتاب النحو الواضح الذى كان فى يدى ، جانبا ، ثم نزع
العمامة عن رأسى وألقيت بها عليه •• ثم شمرت عن ساعدى ،
وفجأة غبت عن دنياى فلم أفطن الى نفسى الا بعد أن امتلأ بطنى
وشرعت فى دفع الثمن فاذا به نصف جنيه الا بضعة قروش ،
وعندها أسقط فى يدى ، وذهبت الى اللوكاندة ، ومكثت الى أن
صليت الفجر ، اعصر ذهني واستجمع شتات أفكارى ••• اذ
كيف أثبت هذا المبلغ فى الكشف اليومى •• وماذا أكتب أمامه؟
وماذا أقول لزوجتى عنه •• وأخيرا بعد مجهود عقلى يفوق طاقة
البشر ، أثبت الاتى :

عشرة قروش • غداء ، خضار سادة وواحد ارز •
خمسة قروش عشاء « فول وطعمية » قطعة من الجبن •
قرشان للقهوة
خمسة قروش سجاير

قرشان لمسح الحذاء وثمان الجريدة •
ثم أثبت الـ ٢٦ قرشا الباقية •• وكتبت أمامها « منظورة »
ولما عدت من السفر ورحت أقرأ عليها كشوف النفقات
اليومية ••• وجئت عند كلمة منظورة ، خفق قلبى خفقانا
شديدا ، وكأنها لاحظت على ذلك فسألتنى سريعا عن هذه
المنظورة وما هى ، فأفهمتها بأنها قطعة من الزجاج تنعكس
عليها صورة جميع الطلبة أثناء الامتحان • فىرى فيها المشرف
على اللجنة وهو فى مكانه ، الذى يغش من زميله ، والذى يجيب
الإجابة الصحيحة فصدقت وقد أطربنى ذلك جدا •• بيد أن
هذه الفرحة زالت سريعا عندما أفهمتنى أن هذا يجب أن يكون
على حساب الوزارة ، ولكى أنجو بنفسى وافقتها على هذا القول
وزدت عليه أننى سوف أحصل على ثمنها مع بدل السفر • ولما
صرفت هذا البديل وأعطيته اياها ، سألتنى عن ثمن المنظورة ،
فأفهمتها أننى صرفته وعليها خصمه من راتبي اليومى •• وقد
كان •• وحرمت أياما من السجاير ماركة الفيل وكسوب
العرقسوس ومسح الحذاء والجلوس على قهوة المحمدى •
وقد أقنعنى ذلك الحادث بأن النفس فعلا امارة بالسوء وأن

من يصغى الى عواء بطنه لا يجنى غير المتاعب . وان الرجل العاقل هو الذى لا يتبع شهواته ، وان لقمة أغمسها فى الملح خير ألف مرة من لحمة الرأس والكوارع العجالي . . و « الفتة » ذات الخل والثوم . . التى يعقبها الحرمان الطويل ، والعراك الدائم مع زوجتى

وقد آمنت بذلك وعملت به عندما سافرت هذا العام الى أسوان للاشراف على اللجنة هناك ، اذ مكثت خمسة عشر يوما حتى انتهى التصحيح ، لم أذق فيها غير الفول فى الصباح وطبق الخضار السادة فى الظهر . . أما فى الليل فكنت أكتفى بقطعة صغيرة من الجبن ونصف رطل من الخيار - وكان من فضل الله يوجد بكثرة فى أسوان فى تلك الايام - وبذلك سويت كشوفى اليوميه من غير متاعب ووفق ما تشتت زوجتى . . بيد أن هذا كله قد ترك أثره الكبير . فعدم التغذية الكافية مضافا الى ذلك تقدم السن ، والعمل الشاق الذى قمت به أثناء الامتحانات . والجهد المضنى الذى يبذله الممتحن مع طلبه هذه الايام . . كل هذا ترك أثره فى صحتى دون أن أفطن . . ففجأة ، وقبل أن أعود الى القاهرة بيومين ، خارت قواى وهزل جسدى وشحب لونى شحوبا غريبا ، وأحسست بدوار دائم يلزمنى حتى أصبحت أشبه بالمرضى الذى يشكو داء عضالا لا يعرفه . وزاد الطين بلة . هذا المجهود الذى بذلته فى العودة ومتاعب القطار ، وطول المسافة من أسوان الى القاهرة ، ومع ذلك فقد احتملت هذا كله على الرغم منى وجلست فى قلب القطار أراجع كشوف الحساب كشفا كشفا . وأجمعها حتى لا يحدث لى ما حدث مع زكية فى المرة السابقة . وقد وفقنى الله توفيقا كبيرا ، اذ وجدت الكشوف جميعها مطابقة للواقع الذى ترضى عنه زوجتى وتقره فرحة راضية . بيد أنه فجأة حدث حادث . لا أدري حتى يومنا هذا كيف حدث . فقد أخرجت ما بقى فى جيبى من نقود لأراجع رقمها على مجموع ما أنفقته أثناء السفر من واقع الكشوف ، فاذا بى أجد النقود التى فى جيبى تنقص جنيهين . . فتشت كل شئ شال العمامة . . خوصة الطربوش . حمالة السروال . ثنايا الجورب .

قلب الحذاء • الجبة • • القفطان • الجيب السرى الذى فى السروال والذى أخفى فيه بعض القروش عن زوجتى فلم أجد شيئاً وأأسفاه •

وأخيراً أدركت أن الواقعة قد وقعت وان عصفور خادم اللوكاندة قد امتدت يده الى جيبى وانتزعت منه هذا المبلغ ، ولم أفزع لذلك فزعى للنبا المزعج اذا ما رويته لزكية • اذ كيف ستصدق • • ؟

ووصل القطار الى محطة القاهرة فى الساعة مساء وهبطت منه محموما بحق أجر قدمى جرا ، وكأني أنتزعهما من الارض وترتعش يدي فترتعش معها تلك الخقيبة التى أحملها وبداخلها القبقاب والجلباب والطاقيّة ، وبعض كتب النحو الواضح والدروس النحوية • ويممت وجهى شطر البيت وبودى أن ألقى بجسدى على الارض ان لم أجد الفراش الذى استلقى عليه ، ووقفت لاهثاً أمام الباب وتشجعت وطرقته كالعادة • وما أن فتحت لى زكية ورأتني حتى تهلل وجهها وأشرق محياها واستقبلتني فرحة مسرورة • كما تستقبل المرأة رجلاً الغائب ، أو كما يستقبل الظمان النهر الذى يروى غلته والماء الذى يتبرد فيه ، فقد كانت الخمسة عشر يوماً قد زادت شوقاً ، ثم تركتني وذهبت الى الداخل وأيقظت الاولاد ليجلسوا معي حتى تعد لي العشاء ، ثم أسرع الى المطبخ وتخيرات دجاجة سميكة وذبحتها وبينما كانت الدجاجة تهيأ للنضيج على النار كانت هي فى الحمام تستحم وتصب الماء على جسدها فرحة طروباً ، وتدندن بصوت جميل • أغنية معروفة •

ولست أدري لماذا ضايقتني كثيراً فرحها هذا بعودتى ، واحتفاؤها بي هذا الاحتفاء الزائد • ودون وعى منى رحت فى حسرة بالغة أتحمس جسدى الخائر وقواى المتعبة ، وفجأة أحسست برغبة شديدة فى النوم بيد أنها كانت قد خرجت من الحمام ترفل فى ثوب قشيب • وزانت رأسها بمنديل حلت أطرافه بالترتر (وخرج النجف) وحبات الخرز التى انتظمت على الجبين فزادته بهجة واشراقاً وأسرعت طروباً فأعادت العشاء وأطربنى منظر الدجاجة السميكة ورائحة الادم التى

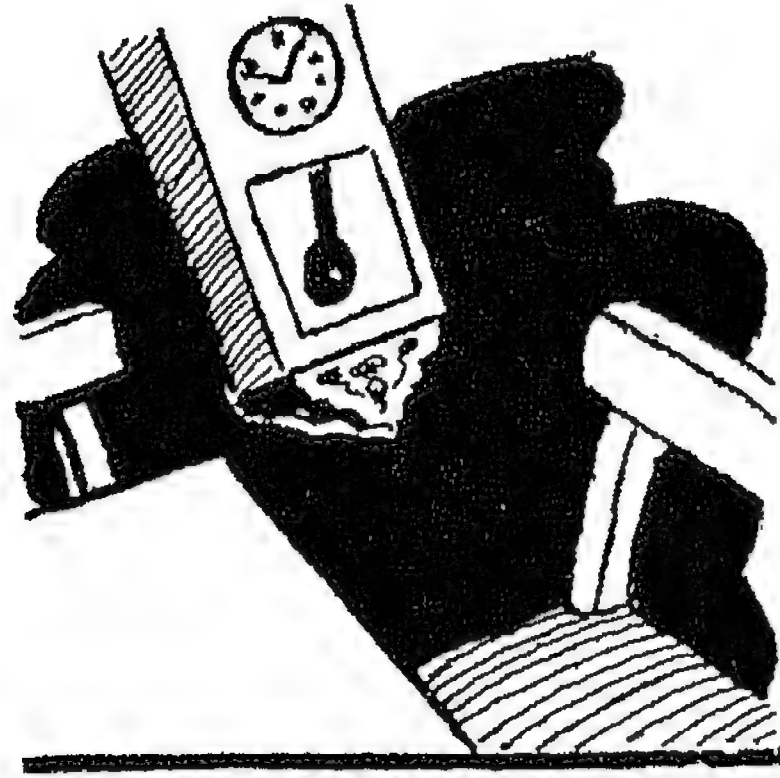
تتصاعد منها • ثم رحت ألتهمها فى بشر وابتهاج ولكنى فجأة تذكرت المبلغ الذى سرق منى فانقبض صدرى ولاحظت دلائل الحزن والخوف على وجهى ، وكأنها لاحظت على ذلك فسألتنى عما يشغلنى ، فنظرت اليها ووقعت عينى على منديلها المطرز وثوبها الجديد فانقبض صدرى • بيد أنى أكدت لها أن لاشئ مطلقا ولكنها لم تصدق ، وللمرأة حاسة سادسة تشم بها ما يعتمل فى قلب الرجل ، فأعادت السؤال فأكدت لها أن لاشئ فتركتنى وغابت حيناً ، ثم عادت وقد ارتدت ثوبا آخر هو الذى ترتديه فى المخدع ثم جلست بجوارى تسألنى عن الرحلة وكيف كانت وخشيت أن يتطرق بنا الحديث الى الحساب ، فتركتها وانصرفت الى المخدع متخاذلا أجر قدمى جرا بطيئا. وبينما أنا أنزع ثيابى رويدا لاهت الانفاس ترامى الى أذنى صوت ضحكة عريضة أرسلتها زوجتى وهو تغلق باب الشرفة أثر حديث قصير بينها وبين أم رستم التى تقطن أمامنا والتى أرسلت نكتة طريفة عن عودة الزوج بعد غياب طويل • ولست أدري لماذا ترامت الى أذنى أنغام تلك الضحكة مزعجة بغیضة أشبه بالقطار الذى يرسل صغيرا كنواح النعالب • ولذلك رحت أفكر وأفكر طويلا فى حل موفق ينقذنى من كل هذا التسورط وكان أن هدانى الله تعالى الذى يأخذ بأيدي الضعفاء فى أخرج المواقف الى حل موفق يخلصنى منها ومن النقود التى ضاعت معا • ويرىحنى من مراجعة كشف الحساب أيضا •

وانتظرت حتى أقبلت فرحة ترفل فى ثوبها القشيب وما أن بدأت تداعبنى وتحدثنى عن أساها طول غيبتى ، حتى طلبت منها أن تحضر الحقيبة التى كانت معى فى السفر ، فأحضرتها وأخرجت منها بعض حاجياتى : كالقباب • وشال العمامة ، والسواك وعلبة الورنيش ، وما الى ذلك • ثم بدأت تخرج بعض كتب النحو التى كنت أحتاج الى مراجعتها أثناء الامتحانات • وترىثت قليلا حتى تخيرت من بينها كتابا غلف تغليفا أنيقا • وقلت لها : متخابثا وأنا أشير الى الكتاب •

— بين صفحات هذا الكتاب ورقة مالية من فئة الجنيهات الخمسة صرفتها الى الوزارة مكافأة لى عن ساعات العمل

الزائدة ، وهى هدية منى اليك •
وما أن قلت لها ذلك حتى أشرق وجهها فجأة كما شرق
حلقةا بعبارات الفرحة التى تغمر القلب وتفيض على فؤاد من
يحب المال ، وراحت تشكرنى بعبارات متدافعة سقطت معها
- اللبانة - التى كانت تطرقها بصوت منغم جميل • ومن ثم
راحت فى نشوة غامرة تقلب صفحات الكتاب وتفر ورقاته
سريعا • ثم تعود فتقلبها مرة أخرى ، وتقرأ ثانية ثم أعادت
الكرة الثالثة ورابعة وخامسة • وأنا أكتم فرحة خبيثة فى قلبى
ولما لم تجد شيئا نظرت الى واجفة ، فنظرت اليها مدعورا
ورحت أقلب معها صفحات الكتاب فى خوف ظاهر ، واضطراب
ملحوظ ، عرفت كيف أجيد تمثيلها ثم تناولت غيره من الكتب
امعانا فى التخابث حتى فتشت الحقيبة جميعها ، ولما أيقنت
زكية من ضياع هذا الكنز الثمين الذى كان سيهبط عليها من
السماء ، اكفهر وجهها ولمعت عينها • وراحت أنفاسها تتلاحق
كأنفاس الخائف المضطرب • وفجأة انفجرت باكيا - تنتحب
وتندب حظها ، و « بختها » ونصيبها الاسود ، وأنا من خلفها
أشكو الى الله هذا الظلم • وكذلك ظللت بها الى أن قلبت
فرحتها الى بكاء ودموع • وانتهزت هذا الطرف المواتى ودموعها
التي تسيل على خديها غزيرة لا تنقطع وأسرعت الى الفراش
وسحبت الغطاء على وجهى وأنا أكتم ضحكة عريضة يريد ان
يرسلها القلب لنجاح هذه الخطة التى وفقنى القدر اليها دون
أن أحتسب • ورويدا استغرقت فى النوم اللذيذ الهادى الذى
كنت أنشده لجسدى المتعب وقواى الخائرة •
بيد ان هذا ، وا أسفاه ، لم يدم طويلا • • • فقد استيقظت
على يد زوجتى ترفع الغطاء عن وجهى ، ثم تهزنى فى رفق
منادية بصوت حنون ، فيه عذوبة أخافتنى جدا وقالت : وهى
تدس فى يدي شيئا
- شيخ على • • شيخ على • • شيخ على • • قم • لقد وجدت
الجنهات الخمسة • •

همس الضمت



كانت (الفيلا) الجميلة المقامة على ضفاف النيل • جالسة على العشب المخضوضر وسط الحديقة المترامية تتيه عجباً بطلعتها الفاتنة • ولونها الاحمر الجميل • الذي يحلو له كل يوم عند الاصيل أن يتناول على الشفق وينظر الى حمسرتة مبتسما • ثم يعود فيرد الطرف ضاحكا من الضوء الفارق في بحر العقيق •

ولكن الفيلا • كانت في هذه الليلة غيرها في كل الليالي التي مضت • فقد كانت تكتنفها الوحدة ، ويعلوها شحوب جثم على نوافذها المغلقة وأبوابها الموصدة ، حتى شجرة الورد القائمة أمام مدرجها المرمى المطعم • كانت هي الاخرى صامتة كاسفه • لم تطارحها كالعادة نسمات الاصيل العابرة غرامها أو تبثها هواها • ولم يرنح غصنها المياد ، الهواء الخفيف • الذي كان ينطلق مع المساء اليها ويروح كل ليلة يشرح لوردها الاحمر قصة حبه الدامي •

وهكذا كان الصمت هذه الليلة يكتنف كل شيء ، ويشوب كل شيء داخل الدار وخارجها ولم يفتن الى هذه الفترة الزمنية الجميلة الا (المائدة) الكبيرة الفخمة ، القائمة وسط البهو الفسيح في قلب الدار . فهي التي فطنت الى هذا فحسرت عن وجهها الجميل اللامع النقاب الاخضر وتطلعت الى (البوفيه) الطويل العريض الضخم . الواقف أمامها . وكأنه في ضخامته تمثال من تماثيل الالهة وقالت له هامسة .

ـ ألم تفتن الى شيء أيها الاخ الكبير الضخم .
فقال وهو ينظر اليها ، يصعد نفسا حارا ، لفح ما بجوفه من آنية صفت كلها من ذهب وفضة .

ـ « أجل لقد فطنت الى أشياء . وأود أن أسر اليك أشياء
ـ « أجل لقد فطنت الى أشياء . وأود أن أسر اليك أشياء
تحصى أنفاس الزمن بعين واحدة (وتنفس الصعداء) نشد
ما يؤذيني أيتها الاخت صوتها هذا الذي لم يتبدل » .

وسمعت الساعة الكبيرة المعلقة في قلب البهو المظلم هذا
الهمس فقالت على الفور ، ولكن بنغم متقطع لا يكاد يبين .
ـ لكم وددت أيها الرفاق أن أريحكم ، وأريح نفسي من هذا
العناء فأشارككم يوما الحديث بل وأحدثكم لحظة عما يضيق
به صدرى بيد ان الرجاء لم يتحقق ولم تقطع بعد يد تلك
الزنجية اللعينة التي كلما أفرغت ما بجوفى عادت وجرعته
الى غصصا .

وكانت نسمة عابرة مارة فوقفت تصغي الى هذا الهمس ،
وحلالها أن تستمع الى الحديث كله . فأسرعت متسللة من
فرجة كانت بأعلى نافذة لم يحكم رتاجها ! وذهبت الى الساعة
ونفثت صقيعها في قلبها الذي اختلفت دقاته في الحال ، وما
هي الا لحظة حتى جمد الزيت في أوصالها وحتى كانت صامتة
تشاركهما الهمس . وهنا علت وجه البوفيه ابتسامة غدبة
شاركته فيها المائدة الكبيرة التي قالت على الفور فرحة :

ـ الان وقد أحال الصمت والليل والنسيم كل شيء الى
صالحنا فهل لك أن تحدثني فلكم أنا مشوقة الى حديثك العذب
أيها الرفيق .

- وهم هو أن يتحدث ولكنه عاد فآثر الجمود ، فقالت وقد
حسرت عن وجهها كله فبدت (قشرته) مشرقة بسامة .
- هه . ماذا تريد أن تقول .
فقال وقد راعته طلعتها اللامعة المتألقة بيد انه عاد فأغفى .
- أريد أن أقول أن لاشئ عندي اليوم يقال .
- يالك من عملاق أبله . لا يعبت الا اذا استيقظ .
- لانه لا يجد الا اذا نام أليس كذلك يا صديقتي المحبوبة ؟
- لم أكن صديقتك في يوم ما . فأنت أبدا لا تشاركنا
لهو دنيانا .
- أنا ؟
- أجل .
- اتعرفين لماذا .
- لماذا .
- لان لهو هذا الزمن معناه الفناء ، وانا لأريد ان أموت .
- وهل انا هي التي تريد أن تموت ؟
- لأقول ذلك ، وانما أقول انه يبدو لك أنك تودين مشاركة
انسان هذا العصر الذي يعتز بحياته موته وفنائه .
- أنا لأفهم فلسفتك هذه الخرقاء .
- وكذلك انسان هذا الزمن ، لا يفهم كيف يموت ليحيى
ولكنه يفهم كيف يحيا ليموت .
- افصح أرجوك . فما عقلي بأمننا الارض التي تعرف كل
شئ . أنا لأفهم كيف يموت الانسان وهي حي ويحيا وهو ميت
- هذا الانسان الذي قدر لنا أن نعيش في بيته ، ونتعلم
الهوان على يديه هو كذلك .
- كيف .
- صاحبة هذه الدار . تحب غير زوجها وتعمل جاهدة
لتظفر بذلك الرجل القصير الذي يصادق زوجها . ويتردد
على داره . ولو قدر وظفرت به (وهي لأبد ظافرة) فستموت
كأنسانة وتعيش كامرأة . أما ذلك العشيق ، والذي هو
الرجل القصير . فسيعيش كمخلوق ويموت كرجل .
- (هازة رأسها) وبعد .

- وصاحب هذه الدار • حبه للمقامرة وغرامه بجمع المال ليلقى به في تلك البالوعة الخضراء ألهاه عن بيته • أثنائه عن أسرته • كذلك ماتت الاسرة وعاش البيت •
- كدت أفهم •
- (مستطردا) أما الابنة الكبرى ، فقد ألهاها التفكير في الزواج عن المستقبل وعن الصواب فصاقت أكثر من واحد وأحببت أكثر من واحد وأخلصت لأكثر من واحد ومع ذلك لم تجد واحدا لان كل واحد لم يكن هو الواحد •
- مسكينة ، وما الذى صنعتته ؟
- الذى صنعتته انها رمت بآخر سهم ، فألقت بشنباك الغرام الكاذب لتضطاد رجلا • فصاها رجل •
- وما الذى حدث •
- خرجت من الحظيرة قبل أن تدخلها ، وبذلك ماتت قبل أن تعيش بزمن بعيد •
- تظن اننى كذلك ؟
- قلت يبدو لى
- دليلك •
- دليلي انك عدت فأشفقت على تلك الساق التى جرحها ظفرك ليلة الامس •
- أنا أشفقت عليها •
- أجل • كان يجب أن يكون جرحا لا يبرأ ، فساق لا ترعى الدمار • ولا تحفظ الجوار يجب أن تبتز •
- لقد فعلت ما فى طاقتى •
- فقالت الساعة جادة :
- الواقع انى سررت جدا لمنظر تلك النقطة الحمراء وهى تسيل على العاج الخالص •
- وهنا انبرى مقعد جميل • ولكنه عرف بالغباء والجهل بين أقرانه الملتفين حول المائدة وقال لزميل بجانبه :
- ما قصة تلك الساق أيها الرفيق ؟
- فقال له فى همس لا يكاد يسمع :
- أما زلت عند غبائك ايها الصديق ؟
- ترى اننى أود أن أتخلص منه • ألا تعرف أن الغباء نعمة

— ان أمنا العزيزة • ايها الغبي الناعم • ألغيت بالأمس ساقا
مرمرية متألقة تعبث بالسيفان المندلبة في قلبها ساعة الغذاء
وتبحث عن ساق معينة بالذات وظلت تبحث الى أن عسرت
عليها أمامها • وكانت ساق ذلك الرجل القصير ، الذي كان
ضيف الشرف بالأمس ، ومن ثم راحت تعابها وتغازلها وتبينها
نار الغرام على مرأى ومسمع منا جميعا •
— حقا اننى لغبي • كيف لم أفطن الى شئ من هذا ، وبعد
فما الذى حدث ايها الصديق •• قل تحدث •
— حدث أن أمنا العزيزة لم تقبل بالطبع هذا العبت فأقامت
— مسمارا — كان في قدمها وجرحته به تلك الساق الطائشه
الرعناء ••

فقال المقعد الغبي :

— يالها من أم بارة بنا ، وبأصلها • ولكن فل لمن كانت تلك
الساق العابثة الهازلة •

— لصاحبة الدار • ايها الاخ الغبي •
— لصاحبة الدار • وزوجها أين كان يا أبله ؟
— بجوارها • لا يأكل الا اذا أكلت • ولا يشرب الا اذا شربت

وهنا فتح أحد الابواب • وأطل منه مقعد كهل وفور ••
تحفه طهارة الشيخوخة وقد استهها ، وما أن أبصروا به حتى
استقبلوه في تجلة واحترام وما أن أبصر بهم حتى حياهم قائلا •
— مساء الخير أيها الرفاق الاعزاء •

فرد الجميع في نفس واحد :

— مساء الخير يا أبانا الشيخ الذى هو خير من انجبت أمنا
فقال المقعد الشيخ : وقد اتخذ له مكانا أمام الساعة ••
وبين البوفيه والمائدة •

— فيما كان حديثكم أيها الرفاق ؟

فلم يجب البوفيه • وكذلك لم تنطلق الساعة ، ولكن
المائدة قالت له دامعة •

— تعلم يا أبانا كم أنا محزونة على حياتي في هذه الدار •
وكم أنا متبرمة بها وكم شكوت لك مرات •

— أعلم — أعلم يا بني .
 — وتعلم أيضا أننا لما لم نجد لا أنا ولا أنت منفذا عاهدتك
 على أن أقف حياتي على محاربة هذا الصنف من الناس ، وقد
 كنت بارة بالعهد وفيه بالوعد — لم آل جهدا — ولم أدخر
 وسعا ومع ذلك يتهمني هذا الرفيق — تشير الى البوفيه —
 اننى أريد مشاركة انسان هذا العصر الظلام والتأخر الذى
 يتخبط فيه — وينعم به — أيرضيك هذا أيها الاب ؟
 وهنا تأثر المقعد الغبى وهمس فى أذن زميله قائلا :
 — ان أمنا تبكى .
 — صه يا غبى .

وقال المقعد الشيخ فى وقار
 — لا تغضبى أيتها إلام البارة — والاخت الحنون ويجب أن
 قلمس لهذا الرفيق العزيز العذر فى ثورته
 فقالت الساعة وهى تنظر الى جبين المقعد الشيخ وقد تغضن :
 — لم تكن بالثورة التى تظن .
 — ولتكن بالتى أظن فما الذى حدث ؟
 فقالت المائدة • ذاهلة مشدوهة
 — ماذا تقول يا أبى • أنه يرمى بأشنع تهمة ، يرمى
 بأننى كالانسان أو على الأقل أحب الانسان واحب مشاركته
 فى غيه • ومعاذ الله يا أبى أن أكون كذلك •
 وهمت الساعة أن ترد • ولكن البوفيه خرج عن صمته
 وقال محتدا فى غضب :

— أنا لم أقل
 فقالت المائدة وهى تتحفز
 — بل قلت

وكاد الخلاف يحتدم لولا أن المقعد الشيخ بدأ يتحدث
 — الواقع يرافق اننى أنا الآخر أصبحت ضيق الذرع جدا
 بالحياة فى هذه الدار ولذلك فانا احمد الظروف التى أتاحت
 لاسرة آخر الزمان هذه ان تذهب الليلة الى السينما وتخلي
 البيت وبذلك أتاح لنا القدر ساعات الصمت هذه لنستيقظ
 فيها ولنتشاور فى أمر بجد خطير ، فانا أربأ بكم معشر الجماد
 وكلكم من أصل طيب فرعه فى السماء الطاهرة ، وأصله فى

أَمَّا الأرض المباركة • أرباً بكم أن تقبلوا هذا الوضع المهين فأخشى ما أخشاه أن تلوثكم أضرار الإنسان وتضربكم أو على الأقل يغركم النور الذي يتزين به ليخفى الظلام الذي في قلبه لذلك قررت وحدي ، ومعذرة اذا اتخذت من الإنسان هذه الصفة البغيضة الى نفسي وقلت - وحدي - :

أقول قررت دون الرجوع اليكم أيها الرفاق أن أتخذ أمراً خطيراً هذه الليلة ، سيخلصنا من هذا العذاب وسيرينا من هذه الحياة النجسة الملعونة واني أشكر العناية التي أتاحت لي أمس امتلاك هذه الفرصة الذهبية التي ستكون بمثابة حجر ضخمة ألقى به في مستنقع هذه الدار • وهنا قالت المائدة والساعة في نفس واحد :

- احقا ماتقول ياأبي ؟

وقال البوقيه باهتمام •

وكيف ذلك ياخير من ولدته أمه •

- بالأمس أيها الرفاق كان الرجل القصير على موعد مع (الزوجة) في هذه الدار وهو كما تعلمون لا يحسن التعبير ولم يحدق فن الحديث لذلك كتب رسالة طويلة عريضة أفرغ فيها كل ما في قلبه من عبارات الغرام ، وتباريح الهوى ليعطيها اليها ، ولتستوعبها على مهل ، حيث أن الوقت قصير والظرف خطير • والعين لا تغفل ولما جاء الغبي كان من سوء حظه ، أو من سوء حظها هي أن صاحب الدار في الدار •

وكان المقعد الغبي يصغي باهتمام فقال لزميله هامسا :

- صاحب الدار الذي هو زوجها وصديقه •

- صه ياغبي •

وواصل المقعد الشيخ حديثه :

- وكان أن استقبل المضيف ضيفه وأكرم وفادته وجلس معه يقدم له اللقائف والمرطبات وكان من حسن حظنا أيها الرفاق أن جلس الرجل القصير على قلب أبيكم فعاقلتته وانتهزت وهو يخرج علبة لقائفه الذهبية من جيبه واختلست الرسالة ودسستها في جيبى ، ومن ثم خبأتها في مكان مكن فقال البوقيه على الفور :

- أين هي ... أمعك •

— هاهي معي • وما زالت في مكانها من جنبي ، والان
سبيأتي الزوج وسبيأتي الليلة مبكرا على غير عادته ، وسبيأتي
أيضا قبل أن تأتي زوجته ، وعندئذ سأجذبه جذبا الى ...
وسأشد نظراته شدا حتى تقع على الرسالة •
وهنا صاحت الساعة فرحة :

— انك يا أبانا ...

ولكنها لم تتمم • لان النسيمة التي كانت قد وقفت من
زمن بعيد • تصغي الى (همس الصمت) صاحت قائلة :
— صه • صه فقد حضر الزوج
وهنا عاد الجميع الى ما كانوا عليه حتى الساعة عادت
تواصل دقاتها •

ولكن ترى هل وقع الطلاق الذي عنه يتحدثون •

أما الساعة فتعجزم به •

وأما البوفيه فيسخر منه •

وأما المقعد الشيخ فكل الذي يؤكده • هو أن الرسالة
فضتها أنامل الزوج •

عندما نخب النساء



عندما جاءه بريد الصباح ، وفض تلك الرسائل العديدة ،
وجد من بينها رسالة مستعجلة تحتم عليه ضرورة السفر فورا
الى الاسكندرية ، لينجز بعض أعماله الهامة ، ويتصل بالمحامى
قبل أن تنظر غدا القضية التى رفعتها الحكومة على الشركة التى
يديرها وفكر فى الامر طويلا وتدبره . . ان زوجته
مريضة منذ يومين ، وهى تشكو صداعا خادا لا قبل لها
باحتماله فكيف يسافر ويتركها وحيدة فى الدار على هذه الحال
انه هو نفسه المريض لا هى ، لانه يستطيع ان يتصور كل
شئ ويحتمل كل شئ الا أن يرى زوجته الحبيبة يوما منحرفة
المزاج ، فهى عنده اكثر من امرأة ، وأكثر من زوجة منحها الله
كل هذه الفتنة ، ومنحها كل هذا الجمال الذى هو متعة كل
نفس وحديث كل عين ، فكيف يتركها وحدها مريضة ويغيب
لا عن البيت فحسب وانما عن المدينة بأسرها ، قبل أن تسترد
صحتها ، ويرجع الى وجهها ذلك الاشرار ، الذى يملأ البيت

نورا والقلب ابتهاجا .
 وأقبلت الخادم تحمل بين يديها قدحا من الشاي ، فنظر
 اليها وقال :
 - ألم تستيقظ سيدتك بعد ؟
 - استيقظت ولكنها ما زالت في الفراش تعالج صداع
 الامس .

وهمت الخادم بأن تقول شيئا آخر ولكنه كان قد تركها
 وانصرف الى الغرفة التي تنام فيها زوجها فألفاها ما زالت في
 الفراش ، وعلى وجهها الجميل سحابة خفيفة تكاد تأتي على
 معالم حسنه وبهاؤه ، فاقترب منها وربت على رأسها المستلقي
 على الوسادة مكدودا مهدل الخصلات كجناحي طائر متعب ، فلم
 تلتفت اليه ولم تصنع الى ما يقول ، بيد أنه لما أخبرها خبر
 الرسالة التي وصلت اليه ورغبته في ارجاء السفر من أجلها ،
 فتحت عينيها وانفجرت أساريرها رويدا ، وعلت ثغرها الشاحب
 ابتسامة حلوة أضفت شيئا من النور على الوجه كله ، ثم غادرت
 الفراش ، وما هي الا لحظة أو لحظات حتى استعاد جسدها
 نشاطه الخفيف الرشيق ، ووجهها قد استرد بسمته واشراقته
 اللتين كان زوجها يتمناها كما أنها لم تكن مريضة من قبل ، وكان
 شيئا من الصداع البغيض الثقيل لم يمر بهذا الرأس الجميل
 ويلزمه حيناً ، فاندعش لهذا التغيير المفاجيء ، ولا سيما عندما
 ألحت عليه في ضرورة السفر لانجاز أعماله التي هي عندها
 أهم من هذا المرض الذي اصطبعته اصطناعا ، فقد قيل لها أنه
 من الخير لها هذا التمارض أحيانا ان هي أرادت الحرص على
 نماء هذا النور الوليد الذي ينبثق الان رويدا بين أحشائها .
 أفهمته ذلك ثم انثنت ضاحكة وهي تناوله حقيبة السفر
 التي أعدتها له بيديها وتعقب : - أأست معي في ضرورة
 المحافظة على نماء ذلك النور - ثم اقتربت منه والتقطت من
 ثغره قبلة طائفة ، وانصرفت الى النافذة المظلة على الطريق
 لتودعه حتى يتوارى ، ورفع لها يده في الطريق وحياتها تحية
 حارة من قلبه الذي يحبها . ومن ثم انصرف وهو أسعد ما يكون
 بهذا الطائر الجميل الذي يطل عليه من عشه الجميل

بيد أن شيئاً عارضاً جعله يرد يده سريعاً ويواصل سيره
مغمض العينين مبهور الانفاس . تلك هي النافذة المفتوحة التي
تطل من البيت المجاور على النافذة المقابلة التي تقف فيها
زوجه . . . ان هذه النافذة تسبب له دائماً الحيرة والقلق .
وكثيراً ما جعلته يفكر تفكيراً فيه الكثير من العنف . وفيه أيضاً
الكثير من الضيق المرير الذي لا تحتمله النفس ، انها كثيراً ما
تفتح في أوقات معينة من الليل أو النهار . ولو أن الامر وقف
عند هذا الحد لما عناه في قليل أو كثير . ولكنها تفتح دائماً
في نفس الاوقات التي يكون هو فيها خارج الدار ، وهي
تفتح فتحة غير عادية بأن تتقابل «دلفها» عند فرجة منسورة
يسدل خلفها ستار سميك بحيث يرى الواقف خلفها الناس ولا
يروونه . والغريب أيضاً أن هذه النافذة بالذات هي التي تطل
مباشرة على نافذة مخدع زوجته التي يخلو لها دائماً أن تقف
فيها . فهل هناك علاقة بين النافذتين . . ؟ وهل هناك صلة
بين « زينات » وبين هذا الشاب العزب الذي يشتغل معيداً في
كلية الحقوق ؟

وشعر فجأة بشيء كأنه الضيق يضغط رويداً رويداً على
أنفاسه حتى ليكاد يخنقها . ولولا أنه كان قد بلغ القطر
وجلس في استرخاء الى مقعده الوثير . لتوقف عن السير أو
جلس في الطريق . ولما استراح شيئاً . . . أخرج علبة لفائفه
وأشعل واحدة . ومن ثم راح يتعمق بعينييه دخانها المتصاعد
رويداً في التواء . . . انه التقى بهذا الشاب وتعرف عليه وهو
يركب معه الترام كل صباح . واستطاع أن يعرف من قنوائمه
الفارع ووجهه الجميل وشعره المرسل المعنى به كثيراً ونظراته
التي كان يلقيها على بعض النساء في الطريق ، بأنه غمر من
الذين يباهون بالتحلل من أسار التقاليد الموروثة ، وقد آلمه هذا
أكثر من مرة ، وأثار حفيظته ، ولما داخله في أمره بعض الشك
أو خشي في المستقبل أن يداخله بعض الشك . سأل زوجته
لماذا هي تكثر دائماً من الوقوف في هذه النافذة بالذات
فأجابته بأنها الوحيدة التي تطل على الشارع ، ومع أن هذا
الجواب غير مقنع الا أنه أقنع نفسه به اقناعاً . . . ولكن أيجوز

له أن يقتنع بهذا الذي يداخله فيه الشك ؟ وهل يجوز للزوج أن يقتنع نفسه على حساب شرفه وكرامته . . . ولكن أي شرفه وأي كرامة . . . بل أن جنون هذا الذي يحدث نفسه به ؟ أمن الممكن أن تخونه « زينات » ؟ أمن الممكن أن تكون زوجته كذلك ؟ . . . وجمحت عيناه وارتدت سحنته ومشعر بشيء من الضيق يضغط على أنفاسه رويدا حتى ليكاد يخنقها ، بيد أن دوى صفير القطار أيقظه فجأة من هذه الهواجس السوداء التي يفاها في سراحة عن زوجته الحبيبة ، واعتدل في جلسته وبدأ يستعد لمطالعة الصحيفة التي في يده كما بدأ القطار يتحرك ويغادر المحطة غير أنه حدث فجأة وعلى غير انتظار ما جعله يرتعد في مكانه فرقا وينتفض جزعا وينظر مأخوذا كمن مسه طائف، وقد لمح مصادفة ذلك الشاب العزب الذي يشتغل معيدا في كلية الحقوق يقف على رصيف المحطة ويختلس النظر اليه اختلاسا وان كان يتظاهر بتوديع أحد المسافرين . وما أن رآه حتى بادله النظرات . ولكن القطار كان قد غادر المحطة وانساب كالثعبان الطائش وسط المزارع المتراصة . . . وغاظه من القطار هذا الجنون . لماذا لم يتفعل حتى كان على الأقل استطاع أن يقفز منه ثم لماذا اختار هذا القطار السريع بالذات الذي يقوم من القاهرة ولا يقف الا في الاسكندرية . ثم هو لماذا لم ير هذا الشاب قبل أن يتحرك القطار . ولكن هب أن شيئا من ذلك قد حدث وأرجأ سفره فماذا كان يحدث ؟ طبعا لا شيء . لان الاحداث متوقفة على هذا السفر والا لما جاء هذا الشاب الماكر ليتأكد من سفره بنفسه حتى تتم المؤامرة وترتكب الجريمة المدبرة .

ولكن أي مؤامرة هذه التي يتحدث عنها وأي جريمة سترتكب ؟ أصبح من المقطوع به فعلا أن هناك مؤامرة وأن هناك جريمة . . . وأن هناك علاقة بين « زينات » وهذا الشاب . . . وانفجرت شفته عن ابتسامة مريرة ، وانحدرت من عينه دموع راحته تتدحرج على وجهه المضطرب الشاحب حتى بلغت شفتيه الباردتين فاستقرت عليهما . . . إن هذا كله كان يجب أن يقطع به من زمن بعيد . . . من شهور . . . من سنوات . . . من

اليوم الذى تزوج فيه هذه المرأة الجميلة التى أحبها من كل قلبه . وهو الآن يحبها من كل نلبه ايضا . فتصرفاتها حياله كانت تنير الريبة دائما . . . حبها له كل هذا الحب الجنونى . . . عطفها هذا الذى تغدقه عليه بغير حساب . والعاطفة المشبوبة التى تخلقها له خلقا وهى بين ذراعيه . . . كل هذه الاشياء كان يجب أن يفهم أنها مفتعلة . . . وأنها إنما تخلقها له خلقا . . . وتقصطنها له اصطناعا لكي تبعد عنه الريبة والشك . . . ثم جمالها هذا الرائع الفارط الذى تحرص على أن تجعله دائما فى أوج بهائه وسخره وفتنته . . . وأنوثتها . . . أنوثتها المتفجرة الملهبة التى تكاد تتطاير جمما كلما لاذت بصدرة أو استكانت بين ذراعيه . وهو الكثير السفر والتنقل والابتعاد عنها ، أليس كل هذا كان يدعو الى التفكير والتبصر . . . الى الروية فى حياة هذه الزوجة الجميلة المثلثة أنوثة وشبابا اذا ما انشغل عنها زوجها بأعماله الواسعة . . . لقد قيل له يوما ان الزوجة الجميلة كالزهرة البكر . . . كالتأهيا يثير أريخها النحل . فهل فكر فى هذا . هل جعلته يوما موضع اهتمامه ؟ أبدا . انه لم يفكر فيه سوى الآن . . . هذه الساعة . هذه اللحظة ، وأريدت سجنته ولمعت عيناه ولاحظت جحوظا كبيرا وهو ينظر مغتاضا الى هذا القطار الذى يثأى به فى جنون عن القاهرة وود لو ارتطم رأسه هذا الذئير الاسود بصخرة وتعلم . اذن لعاد قورا الى القاهرة فى قطار اخر . . . فى سيارة . . . على قدميه . . . وتكن أهو من الغباء الى هذا الحد . . . من البلاهة والغفلة بحيث لم يفتن الى صوت النحل وهو يحوم على الزهرة الجميلة ، الا اليوم . . . اليوم وهو ينهى اليها نبال السفر ، لم يفتن الى مكرها وهى تدفعه دفعا الى السفر لئلا يبتعد عن البيت . . . وهى تتمارض لكي تبعد عنه الشك . . . حقا ان المرأة كالخرباء تدارن دائما باللون الذى تريد . . . ولكن من الذى أخبر هذا الشاب الخبيث بالذهاب الى المحطة ليتجنس عليه ويتأكد من سفره ، وهو لم يخبر واحدا بهذا السفر . الا هى ولحظة السفر بالذات ؟ وفكر طويلا . . . أجهذه . . . فكيز ، وفجأة لطم رأسه انعموم بيده لكمة قوية كادت تحطمه . . . انه أباه . . . انه ميمون . . . انها

وهي تعد له الحقيقية فرحة منتشية خرجت لحظة الى البهو وأسرت شيئا الى الخادم التي انصرفت مباشرة الى الخارج ، ولما عادت بعد لحظات نظرت الى سيدتها مبتسمة وكأنها قالت لها شيئا يعنيها .. حتى الخادم تعبت به وتسخر منه ، وتعرف من أمره ما لم يكن يعرف ، وانفجرت أسساريره عن ابتسامة صفراء شاحبة ، وأرسل بصره الى الفضاء ، والمروج الخضرا التي يطويها القطار سريعا كما يطوى القدر حياته الان ..

ولكن ما الذي يضيره في هذا .. أهو أول زوج تخونه النساء ؟ أهو أول رجل أعماه جمال امرأة ؟ ان الامر لا يتطلب منه أكثر من كلمة واحدة يلقيها عليها .. يصفعها بها صفعاً .. يطلقها ، فهي لا تستحق أن يقتلها .. انه من العار أن تلوث يده بدماء دنسة .. فقط كان يجب أن يكون ذلك من زمن بعيد .. من شهور .. من سنوات .. من اليوم الذي تزوجها فيه .. ولكنه كان يحبها .. كان يعبدها وهو ما زال يحبها ويعبدها ، انها المصباح الذي ينير له الطريق .. انها النبراس الذي يهتدي به في ظلمة الليل الموحشة .. ولكن أيمن لهذه العيون النجمل أن ترى غير وجهه .. ؟ أيمن لهذا الصندر الحنون ، الذي كثيرا ما لأذ به كلما أراد أن يستشعر سعادة الدنيا وبهجتها ، ان تلوثه أحضان رجل آخر .. ؟ أيمن لهذا الجسد الفتى المشبوب الممتلئ حرارة وقوة وحياة ، والذي يفيض عذوبة وطهرا ويتألق نورا كأنه القمر .. أيمن لكل هذا أن يغرقه الاثم في بحره الملوث .. ؟ أن يجترفه الدنس الى مستنقعه الآسن .. ؟ وغير ذلك كله أيمن أن يكون ذلك الجنين الذي بين أحشائها الان من ... وشعر بشيء كأنه الضيق يضغط رويدا على أنفاسه حتى ليكاد يخنقها .. وتفجرت الدموع من عينيه وراحت تنساب على وجهه المضطرب حتى بلغت شفتيه الباردتين وراحت تتجمع عليها .. ولكن فجأة وقف القطار فاسترد أنفاسه سريعا وانتصب واقفا ليري تلك العناية التي حطمت رأس القطار وأوقفته ، ولكنه لم ير غير نفسه يقف حائرا على رصيف محطة الاسكندرية ، ينظر ذات اليمين وذات الشمال وحانت منه التفاتة فرأى قطارا آخر يتأهب الى العودة فهم بأن

يلحق به ، وأسرع لكي يتخطى الرصيف اليه ، ولكن الشركة التي يديرها ، وصاحب الرسالة المستعجلة التي وصلت اليه صباح اليوم كان قد تقدم منه وصافحه في حرارة وشوق فماذا يقول له ؟ وفيهم مجيئه اذا كان سيعود الان .. أيقول له الحقيقة .. أيقول له أن زوجة الان تخونه مع رجل آخر .. ؟ أيقول له أن « زينات » الان في أحضان ذلك الشاب الذي يشتغل معيدا في كلية الحقوق .. واربدت سحنته ولمعت عيناه وجحظت جحوظا مخيفا وراحت تقذف شيئا كأنه اللهب من تحت المنظار الاسود السميك الذي وضعه على عينيه وهو يسير في الطريق غير منتبه الى حديث الرجل الذي يقص عليه أمر قضية الغد التي عليها يتوقف مصير الشركة وجميع من يعملون فيها .

وظل كذلك غير منتبه الى شيء مما يدور حوله حتى أقبل المساء فوجد يده من تلقاء نفسها ترفع سماعة التليفون ليخاطب « زينات » في القاهرة . ليقول لها شيئا ليرى أهى في البيت أم هي الان في نزهة آثمة مع من تحب ، ورفع السماعة وتحدث واضطربت الخادم اضطرابا كبيرا عندما عرفت ان سيدها هو الذي يتحدث ولما سألتها عن سيدتها زاد اضطرابها وقالت متلعثمة أنها هنا . فطلب منها أن تستدعيها وسمع الخادم تضع السماعة بنفس الاضطراب الذي تخاطبه به .. ووقف حينئذ متدهور الانفاس . ثم سمع صوتا خافتا ضئيلا يخيبه في التليفون ويقول نعم أنا « زينات » . وجاهد نفسه حتى يبتسم وهو يقول :

— كيف صحتك ...

— ما زلت مريضة ... !

يا للرجل من خبث المرأة ... انها تتمارض لكي تبعد عنه الشكوك التي تنساوره ولكنه سيكون أشد منها مكرًا وخبثًا . وسيفضح أمرها .. وغلف ضوته بنبرات الحزن العميق وهو يقول :

— سأحضر فورا لاكون بجوارك وليكن مصير القضية ما يكون .

وأذا بالحية الرقطاء المتمارضة تنقلب الى امرأة صحيحة
قياضة الحياة والشباب والقوة وتقول فى اصرار :
لا . لا . لا تجيء . . . انجز أعمالك أولا . اننى بعافية ،
غقط صداع يزول سريعا .

ثم عقت قائلة وهى تصب أنغام ضحكة عذبة فى أذنيه .
- وما دمت أنت بخير فأنا كذلك . . . !

وأفهمها متخابثا بأنه سيمكث خمسة أيام لا ثلاثة كما كان
ينتظر ، ثم وضع السماعة التى تكاد تتحطم بين أنامله الباردة
القباضة عليها فى مزارعة وعنق . ومن ثم راح يسير على غير
هدى غير منتبه لما يدور حوله حتى انقضى الليل وأقبل النهار
وانقضى أغلبه أيضا وهو لا يدري من أمر نفسه شيئا ، ولما
أمر القضية التى نظرت شيئا ، وكل انتهى يدري أنه وجد
نفسه يلقى بجسده القاء فى قطار الغروب انذهب الى القاهرة
ولما بلغ محطة مصر وجد نفسه أيضا يلقى بجسده القاء فى
أحدى السيارات ، ويتمتم بصوت لا يكاد يبين : « حقائق القبة »
وهبط من السيارة أمام الشارع . لأنام البنت كما هى
العادة . ومن ثم راح يسير متباطئا كمن يسير بقدمين الى
نهايته . يتصيب العرق البارد من كل جازحة فيه . وتختلج
شفقاته اختلاجا متواصلا وهى تلفظ أنفاسه الملهبة كأنها النار
تنقذف أمامه . . . بيد أنه فجأة وقف مأخوذا يلقى ببصره الى
بعيد . فقد رأى مخدع زوجته مضاء ، واشتطاع أن يزي خلال
الاسجاف الخفيفة المسدلة على زجاج النافذة المفتوحة الضوء
الاحمر ينبعث منه متوهجا . . . بالله انها النافذة انوحيدة
المضاءة فى الحى . وأرسل البصر وهو كليل واشتطاع أن يرى
من خلال الاسجاف الثريا الكبيرة قد أضاءت بمصابيحها الحمراء
الثمانية . . . تماما كأن الايام ترجع بهذا المخدع الى لياليه
الملضيئات الى شهر العسل الذى قضاه مع زينات فى هذا المخدع
الوردى وكأنه قضاه مع كتاب خالد يطالع على مهل صفحاته
الرائعات صفحة صفحة ، وهذه الثريا الحمراء ترسل ضوءها
القانى على صفحات الكتاب الجميل فتحيلها مرة الى نور متوهج
ومرة الى نار حمراء . . . ولكن أفى هذا المكان الطاهر تسفك

الدماء ... أفى هذه البقعة الطاهرة يرتكب الاثم ؟ أفى الحرم
المقدس يتخذ الكلب فراشه الوثير ... ولكن ماذا ... ؟
وأربدت سحنته اربدادا مخيفا ، ولعت عيناه لمعانا خاطفا وهم
بأن ينقل قدمه ولكن قواه خائفة ، وأعصابه الخائرة غدرت به ، وكاد
يسقط لولا أنهلقى بجسده المتهاك على الحائط الذى يسير
بجواره وأسند رأسه الملهب عليه . ووقف على هذه الحال
لحظات ، استطاع بعدها أن ينقل قدميه نقلا ثقيلا متباطئا
بيد أنه فجأة وقبل أن يبلغ البيت يأمتار ، رأى الخادم تتسلل
منه وتسير مسرعه فى الظلام ، وما أن رآها حتى ارتعدت
فرائصه ... كيف سيلقاها عند ماعود الان ... وكيف كان
يلقاها قبل الان ... بل كيف كانت هذه الخادم المأكرة الحبيثة
تجيد فن التمثيل الى هذا الحد فتوليه كل هذا الاحترام ...
ولكن أين هى ذاهبة الان . وفى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟
وحانت منه التفاتة فرأى الجندى يقترب منه فخشى ان يرتاب
فى أمره . لذلك دلف مسرعا الى البيت وراح يصعد الدرج
يتحسس الخطا حتى لا يحس به أحد . ولما بلغ الباب وجده
مغلقا . فأخرج المفتاح الذى يحمله وفتحه فى حرص شديد وهم
بأن يتقدم خطوة الى الداخل . ولكنه سرعان ما ارتد كمن رمى
بسهم أصم . فقد سمع صوت رجل فى مخدع زوجته ...
وأنصت ولكنه لم يميز منه شيئا فقد كان الصوت يصل الى أذنيه
غير متصل . فامتقع لونه وتفلصت شعرات رأسه . وبدت من
تحت طربوشه الذى سقط فجأة كأنها الحراب المشهورة . كما
تصلبت أنامل يده اليمنى وهى تتحسس المسدس وتقبض عليه
فى عنف . وهم بأن يدفع الباب دفعا ويقتحم الخدر اقتحاما
عنيفا . بيد أن صوت الرجل عاد من جديد ينبعث الى أذنيه
من المخدع . فارتد منهار القوى وعز عليه ذلك فأسرع الى قواه
المنهارة ولم شتاتها سريعا . وهم بالاقتراب من الباب مرة أخرى
ولكنه يسمع فجأة الخادم تعود وتصعد مهرولة على الدرج . وهو
لا يدري لماذا يزوجه شبح هذه الخادم الان . ولماذا ترتعد
فرائصه من مجرد تصور رؤيتها وخشى أن تخونه قواه ان هو

رآها ، فأسرع بالاختفاء حتى تمر •
وراح من جديد يتحسس مسدسه وكأنه يعقد عليه أكبر
الآمال ..

وأقيلت الخادم مهرولة • واقتحمت الباب مهرولة أيضا •
ودلفت الى الداخل مسرعة تحمل شيئاً في يديها • ورآها تتجه
مباشرة ناحية المخدع • فهم بأن يتسلل خلفها ويسبقها اليه •
ولكن فجأة انفتح باب المخدع من الداخل • وخرج منه الرجل
الذى كان فيه • وما أن رآته الخادم حتى تعلقت به وقالت
ذاهلة :

— كيف الحال يا دكتور ؟؟؟ •
فقال الطبيب وهو يسقط متراخياً على المقعد الذى قابله •
— قضى الامر • وماتت سيدتك •

الشعبان الأبيض



لم تكن لتظن أن هذا كله سيحدث في يوم واحد ، وأن
 نظرة عابرة تلقيها عفوا المصادفة على شيء ما ، ستتذيب صمومات
 الماضي وتجعل الذكريات تتدفق أحزانا على مذبح الحاضر
 الذي هو أشد مرارة من الماضي . لقد استيقظت هذا الصباح
 مبكرة كعادتها منذ خمسة عشر عاما اعتادت أن تستيقظ فيها
 مبكرة ، فألقت نظرة عابرة على غرفتها البيضاء ، مأواها
 وملأها منذ هذا العمر ، منذ الخمسة عشر عاما التي قضتها
 ممرضة ثم رئيسة للمرضات في هذا المستشفى البعيد النائي
 الذي قام على طريق الصحراء ليطب جراحات الناس ويخفف
 آلامهم . ان الغرفة كما هي ، كل ما فيها يتألق بياضا ، السرير
 الصغير الذي تنام عليه ، المقعد الوثير الذي بجانبه ، المشجب
 الذي تعلق عليه ملابسها ، الدولاب الصغير الذي تحفظ فيه
 ثيابها ، حتى القميص الذي تنام فيه ، إنه أيضا ناصع البياض

حتى لكأن هذه الغرفة البيضاء التي أعدها لها المستشفى لم تكن في الأرض ولم تكن لانسانة من البشر ، وانما هي برج في السماء أعد للملاك طاهر من الملائكة ، وكأن هذا أطربها هذا الصباح على غير العادة وانتشى له قلبها وفرح به جسدها البكر الذي لم تدنسه شهوة من الشهوات ، أو نزوة من النزوات . لذلك نهضت من فراشها الوثير الأبيض خفيفة رشيقة تخب في قميصها الأبيض الفضفاض كأنها عصفور جميل سعيد بهذا الصباح الذي هب نسيمه رخاء من نافذة الغرفة المطلة على حديقة المستشفى الكبيرة وراحت أمام مرآة دولابها الصغير ترتدى ملابسها بيد انها فجأة رأت زائرا دخيلا عليها ، تسلل الى غرفتها خلسة هذا الصباح فأثارها ثورة كبيرة . وتسلل اليها ضئيلا صغيرا حتى لا يكاد يري أبيض ناصع البياض حتى لا يميز عن شيء في الغرفة .

ووقفت حينها ذاهلة تتأمل هذا الشيء الضئيل الأبيض الذي لا يكاد يرى والذي كأنه حجر ضخيم ألقي في جدول حياتها الرقراق المنساب انسيابا هادئا فأثار أمواجه ولوث ماءه ، وظلت كذلك حينها لا تعرف أطال هو أم قصر ، وانما تعرف أنها حركت ذراعها في هدوء ومدت يدها في رفق ولمست بأناملها المضطربة تلك - الشعرة البيضاء - التي تسلمت إلى رأسها خلسة واستقرت بين طيات شعرها الفاحم المتدللية خصلاته كأنها أمواج الليل على كتفين بلون العساج وعنق مشرب كأنه فلق الصبح ، ونظرت الى الشعرة البيضاء طويلا وهي تتحسسها بأناملها المرتعشة ورأتها بين جدائل الشعر الفاحم متمددة كالسكر المستطيل في آنية جميلة فهمت بأن تنتزعها انتزاعا ، ولكن هل يفيد ذلك شيئا . . ؟ وهل يمنع قتل هذا الثعبان من ثعابين أخرى تتسلل الى رأسها خلسة في النهار أو في الليل . . . وهل هذا يحول دون الاعتراف بالواقع المرير ؟ ولكن أهكذا سريعا مرت الأيام وتعاقبت السنون وقطعت من العمر أربعين عاما ، منها خمسة عشر في هذا المستشفى لم تغب عنه يوما أو تبرح غرفتها ليلة . وشجرت بشيء كأنه الضيق يكاد يطبق على أنفاسها

فترأخت ذراعها وأرسلت نفسها حارا طويلا طمس المرأة في عينيها وحجب عنها ذلك الكسر الذي أحدثه الزمن في الآنية الجميلة فحولت وجهها ، وكأنها أحست بحاجة الى شيء من الهواء فذهبت الى النافذة ساهمة وارتفعت ، ومن ثم راحت ترى صوراً تتلاحق أمامها . رأت طفولتها الحزينة التي قدر لها أن تذوق اليتم بشقيقه . . . ذاقته يوم أن بحثت عن رجل بين الرجال لتقول له . . . ابي . . . فيقول لها . ابنتي فلم تجده أبداً بين الرجال وانما وجدته هناك بين المقابر عندها ذهبت يوماً مع أمها لتزورا قبر الزوج الذي ثكلته الام والاب الذي فقدته الابنة . . . وذاقته مرة أخرى يوم أن دخلت الدار فلم تجد أمها كالعادة تقدم لها الخبز الذي تأكله ، وانما وجدت شيخاً غريباً عنها ، هو جارهم في المنزل يقدم لها عزاء وهي لم تكن قد عرفت العزاء بعد . ويحتو عليها فيضمها الى أبنائه لان يد الله لم تغفل بعض الناس في أشد الاوقات حرجاً . . . وسعدت الفتاة في كنف هذا النجار وعوضها الله خيراً عما فقدت فقد احب ابن الشيخ الفتاة وكان يماثلها سناً ، وعطف عليها وأنزلها من قلبه منزلة حسنة . . . ولامر يجل عن الفهم شاء الله أن يجعل هذا الحب مباركا حقاً طيباً حقاً ، وارف الظل مزفور الثمار حتى ذاقته الدار ومن فيها طعمه لذيذاً حلواً ، وحتى غدت الفتاة في بيت الشيخ كأنها مصدر النعيم فيه والخير له . . . وكان لا يد للفتاة من أن تحب هذا الفتى وتهبه قلبها . . . انه هو الذي كفك بحبه عبراتها وهدده آلامها وبذل خوفها أمناً وعسرها يسراً ويتمها حناناً وهناء وأملاً . . . وهو الذي جعل قلبها يتفتح أول ما يتفتح على حب لم تستشعره من قبل ، ولم تكن لتخرف قبل أن تتذوق حلاوته أن في الحياة شيئاً اسمه الحب . . . وان في الدنيا شيئاً اسمه انغرام لذلك أعطته حياتها ودنياها ووسدت هذا الحب قلبها ومن ثم جلست عن قرب ترعاه وتغذيه وترقب نماءه ، ولذلك عندما فقدته كانت تفجيعتها فيه قاسية لا تحتمل . . . ومصيبتها في فقدته عتيفة فادحة لم يقو عليها قلبها البكر الذي كأنه انقلب بما فيه من هناء وسعادة . . . وهي لم تفقده ميتاً كما تفقدنا

فقد الناس أمواتا، ولم تفقده مريضا لأمل فى برئه أو شفائه ولم تفقده أيضا بعيدا نائيا فرقت الايام بينهما كما تعودت الايام أن تفرق بين الناس وتضرب بيدى نهم بتلك الحجب الكثاف الثقال التى لا قبل لنا بها . وانما فقدته لما هو أقسى من ذلك كله . فقدته زوجا لغيرها وبعلا لامرأة أخرى من النساء ، فقد بعث القدر يوما فى طريق سعادتهما بهذه المرأة الاخرى التى أخذته عنوة واقتدارا بقوة مالها . وفرط جمالها ، وفرق بين التى خلقت وفى فمها ملعقة من الذهب لا تأكل بها الا ذهبها وهذه التى لم تعرف شفتاها غير أنات اللوعة وزفرات الجوع وكانت الصدمة أعنف من أن تحتملها الفتاة أو يصبر عليها قلبها الذى لم يكن يعرف قسوة الجراح فعرف أقساها وأمضاها فتركت القرية فى ليلة حالكة السواد وراحت تضرب فى الطريق على غير هدى لا تملك غير طرف كليل مخضل ترسله حينئذ الى السماء وحينئذ الى الفضاء الممتد حتى حطت بها الرحال فى هذا المستشفى البعيد ومن ثم راحت تبحث عن كل جريح تضمد جراحه وكل باك تكفكف عبراته لأنها أعلم بقسوة الجراح وحرقة الدموع ، وهكذا ظلت منذ ذلك الزمن البعيد الذى لم تكن لتظن أنه بلغ الخمسة عشر عاما سوى هذا الصباح الذى رأت فيه ذلك الشئ الابيض الكريه ، وما أن ذكرت الشعرة البيضاء حتى أنهلت دموعها وراحت تسيل دافئة على خدها الشاحب ، فغمرت وجهها كله وفاضت عليه ومكثت كذلك حتى سمعت فجأة صوتا انشويا رقيقا يناديها من خلفها فاستيقظت وعرفت انها كانت تبكى ومدت أناملها التى علمتها الايام كيف تجيد تجفيف الدموع ومسحت على عينيها ثم اصغت الى احدى الممرضات من خلفها تقول :

— ان حالة مستعجلة أدخلت على غرفة العمليات ، فقد صدمت احدى السيارات فى الطريق سيدة وأصابته عدة اصابات بالغة . .

وما أن سمعت ذلك حتى ارتدت الى نفسها سريعا وانصرفت تجفف دموعها الباقية، ومرت فى طريقها باحدى الغرف فألفت ثلاثة من الاطباء يستعدون للدخول معها فلم تلتفت اليهم ،

وانما دلفت الى الغرفة فرأت أمامها سيدة يلوح عليها انها من أسرة كبيرة ملقاة كالخرقة البالية المبتلة غارقة في الدماء التي تسيل من الساق والذراعين والتي تتدفق بغزارة من الانف والجبين الذي أحدثت به الإصابة كسرا أفقيا عميق الغور . فانخلع قلبها لهذا المنظر البشع الذي تراه وأسرعت بتضميد بعض هذه الجراح . وما أن مسحت على الوجه الذي طمسته الدماء حتى ارتدت جزعة مرتاعة فاعرة فاها كأنها ترى هولا كبيرا أو شيئا لم تكن لتتصور انها ستراه .

... انه وجه صاحبة المعلقة الذهب ... انها زوجة - محمود - ... انها ... وزمت على شفتيها ، ومسحت على عينيها . ولما علودت النظر ووجدتها حقيقة ، وقفت ترقب في رفق الدماء وهي تسيل من الوجه الذي اختلس منها دنياها واستلب منها حياتها عنوة واقتدارا . وفجأة شعرت بشئ كأنه الدوار يكتنف جسدها فأغمضت عينيها ولكن لتري بسحبا كثيفة وغيوما سوداء هي ذكرياتها الحزينة التي ادخرتها طوال العمر . ورأت نفس الصور التي رأتها من لحظات وهي في النافذة بيد انها رأتها هذه المرة أشد سوادا عن ذي قبل . ان مبعث هذا كله هو هذا الوجه الذي أرسل به القدر اليها هذا اليوم لتضمده هي جراحه وتخفف آلامه ... ولكن ... وزمت مرة أخرى على شفتيها واطرقت الى الارض اطراقا طويلا وتمتمت : أجل أرسل به القدر الى ... ولكن ... ولكن ماذا ؟ انك مازلت تحبين محمود وما زال هو أيضا يحبك لانك تحبينه ... ان الذي حال بينكما هو هذه الصخرة التي تحطم عليها حبكما . والتي مازالت قوية تغالب كل شئ حتى هذه الجراح ، فما ضر وقد بعث بها القدر اليك أن ... وفغرت فاهها ورأت عيناها واستندت الى الحائط مرتعدة الفرائض لتمتم بشفتين مقرورتين ... مستحيل ... وما وجه الاستحالة في ذلك ... انك لن تفعل أكثر من أن تتمي عملا بداه القدر وعليك أنت اتمامه ... ان هذه الموسيقى التي أمامك ان مرت على هذا الشريان انقضى كل شئ ... خلا لك وجه محمود ... ولكن ... ولكن ماذا؟ أنت لاتحبين محمود!

اذن ... أنا ... وانفجرت دموعها وانسابت غزيرة بكما على وجه شاحب وشفتين مقرورتين ، وهمت بأن تجفف هذه الدموع بيد أن أنة جريحة انبعثت الى أذنيها فأيقظتها فجأة وجعلتها تفتح عينيها ولكن على موسى صغيرة بيضاء كانت على مائدة صغيرة ... وحركت يدها شيئاً ونظرت الى موسى التي أمامها ، ثم مدت أناملها اليها وما أن تناولتها ومسكت يد الجريحة المغمى عليها وهمت بأن تجهز على الشريان حتى سمعت فجأة هاتفاً يهتف في أعماقها قائلاً : أن محمود مازال يحبها أيضاً ... أجل ... أن محمود مازال يحبها .

والتفتت مذعورة لترى ذلك الهاتف ، ولكنها لم تجد إلا لموسى في يدها والشريان أمامها وشعرة بيضاء تروح وتجيء أمام عينيها .

ولكن ... ولكن ماذا ... وفجأة أقبل الأطباء الثلاثة وما هي إلا لحظات حتى كانت معهم منهمكة في إسعاف المصابة دون أن تفتن الى شيء أو تحس بما يدور حولها حتى خارت قواها فأسندت رأسها الى الحائط ووقفت لحظات تعالج أنفاسها المضطربة فسمعت الطبيب يقول لزميله هامساً :

— لا بد من أن ننقل اليها دماً الآن وإلا فستموت

فقال الطبيب الثاني ولكن في شيء من الألم :

— ومن أين لنا هذا الآن ، ومن أين نجد نوع الدم الذي يلائم دمه ؟

فقال الطبيب الأول وعلائم اليأس مرتسمة على وجهه :

— أنها اذن ستموت .

وسمعت هي ذلك وهمت بأن تغادر الغرفة ولكن قواها عادت فخانتها فأغمضت عينيها وعاودها وهي بجانب الباب ذلك الدوار الذي يكتنف جسدها فأطرقت الى الأرض ، بيد أنها لم تلبث طويلاً حتى سمعت ذلك الهاتف يهتف في أعماقها قائلاً ... أن محمود مازال يحبها ... فحفظت عيناها وارتعدت فرائصها ودون أن تدبري تقدمت من الأطباء الثلاثة الذين ارتسم اليأس على وجوههم وتمتمت بصوت لا يكاد يبين موجة حديثها الى الطبيب الاول :

— من حسن الحظ يادكتور اننى ممن يصلح دهمهم لاي شخص آخر .

وما هى الا دقائق حتى كانت مضجعة على مائدة مقسابة لمائدة المصابة ويد الطبيب تدور بآلة تنقل الدم من عروقها قطرة قطرة ، لتلقيه فى عروق المصابة قطرة قطرة ، وكانت مقلبة بوجهها اليها تنقل عينيها بين الالة الدائرة الدقاقة وهى تنقل بين دقة وأخرى كتلة معينة من الدم فى مجرى من المطاط بين ابرتى معدن ، تنتهيان عند جسد ... جسد من ... وأغمضت عينيها وزمت شففتيها وانتابتها تلك الاطراقة الطويلة وظلت كذلك لا تفتن الى شىء أو تحس بشىء الا عندما هـز الطبيب الاول يدها شاكرًا لها هذا الفضل الكبير الذى أنقذت به سيدة مجهولة من الموت . ففتحت عينيها شاحبة الوجه وردت اليه هذا الشكر فى عبارات متلعثمة وهى تحاول اخفاء دمة حائرة كانت تجول فى عينيها الحزينتين ، وهمت بأن تقول للطبيب شيئًا لتصرف ، بيد أن عينيها وقعتا على موسى صغيرة كانت ملقاة على الارض بجانب حذاء الطبيب فتناولتها وانصرفت وما أن بلغت غرفتها وألقت بجسدها المتعب المنهوك على ذلك الفراش الوثير الابيض حتى غابت عن كل شىء ، عن موسى التى فى يدها ، والمرأة - المجهولة - التى أنقذتها . . . والوجه الحبيب الذى أطبقت جفونها عليه ، والشعرة البيضاء التى كانت تروح وتجيء أمام عينيها .

وفى الصباح لم تغادر غرفتها كالعادة ، ولم ترتد تلك الثياب البيضاء الناصعة التى تخب فيها كأنها الطائر الابيض الجفيل ، وسأل عنها الطبيب الاول وسأل عنها كذلك بعض المرضى الذين تعودوا كل صباح أن يرفرف عليهم قلب هذا الملاك الطاهر ويضمم بيده الرحيمة جراحهم ويهدد آلامهم . وذهبت إحدى الممرضات الى غرفتها وطرقت الباب ، ولما لم تأذن لها بالدخول كالعادة دفعتة فى قوة فانفتح ولكن على جثة فى ثياب بيضاء ، كانت فى وسط الغرفة غارقة فى لجة من الدماء ولم يثر هذا الانتحار دهشة الاطباء ، بقدر ما أثارت دهشتهم هذه موسى التى كانت بجانب الشريان المقطوع . والتفت اليها شىء دقيق لا يكاد يرى حتى لكأنه فى التوائه الشبان الغارق فى المنام ، وفى دقته الشعرة الرقيقة البيضاء .

صالح الأمن



كاد يذهل عندما أقبل عليه أبو المعاطي شيخ الخفراء صاحب
 الوجه مضطرب الأعصاب وقال له في صوت خافت يرتعش :
 - جناب البية المأمور ... وسعادة معاون البوليس ...
 والبيه معاون الإدارة حضروا فجأة في «الطرومبيل»
 ونزل النبا على العمدة نزول الصاعقة ، الحكام الثلاثة
 هنا ... في البلد ... على الباب :
 وراح يبحث عن - العمامة - في اليمين و - البلغة - في
 الشمال ، ويضع قدمه في هذه ورأسه في تلك ، وأسرع مهرولا
 وخلفه أبو المعاطي ، وهو يلف شال العمامة - المزهر - على
 رأسه . وما أن رأى المأمور ومن معه أمام غرفة « التليفون »
 حتى صرخ :

- سعادة المأمور ...

وسرعان ما انطلق الخبر في القرية فتجمع الناس ، واعتلت
 النسوة السطوح ورحن يرقبن دار العمدة ويحيين السنت قطومه

زوجته التي كانت هي الاخرى على سطح دارها ترى وتسمع وتكتف فرحتها ، ألم تكن هي زوجة العمدة الذي يجلس البية المأمور في داره .

ولما استقر بهم الحال وأفهم المأمور العمدة انه انما جاء ليشرق بنفسه على حالة التمسوين التي ساءت في القرية ويشرف على الامن أيضا ويعرف من أهمل ومن لم يهمل .
ليحاسب كل على عمله ، اطمأن العمدة الى حد ما ، ولكنه شغل بما هو عنده أهم من ذلك كله . ان ان الساعة الان الحادية عشرة صباحا وسيمكت جناب البية المأمور في القرية على الاقل ثلاث ساعات وسيحل موعد الغداء وانه لشرف عظيم أن يتناول جناب البية المأمور الغداء في داره . وسوف يكون ذلك حتى ولو أدى الامر أن يقسم عليه بالطلاق . ولكن ما الذي في القرية على سبعتها يليق بمقام البية المأمور . ؟ فطير مشلشت . . غسل نحل وقشدة . . أرز معمر . . بط . . كل هذه أشياء لا تتناسب أبدا مع مقام جناب البية المأمور . . وسعادة معاون البوليس والبيه معاون الادارة . . ان فطومة لو لم تبع الديك الرومي اذن لستر الان وشرفه اليوم .

ودخل الدار وراح يتشاور مع الست فطومة في هذا الامر الهام . وأفهمته فطومة بأنه ليس عندها سوى ثلاث دجاجات هي التي تصلح ولكنها لا تكفي ولا تستطيع أن تفرط فيها بحال فهي التي تبيض كل يوم دون سائر الدجاجات وخسارة فادحة أن تذبح الدجاجة التي تبيض . ومصيبة أفدح أن لا يجد العمدة في هذه اللحظة ما يتناسب ومقام سعادة البية المأمور . . وفكر وأجهد التفكير . . وخرج من الدار وهو يعصر جبهته عصرا بيده لعله يهتدي الى حل . وضائق الدنيا في وجهه وراح يسب ويلعن . . وبينما هو كذلك اذا به يلح فجأة خروفا يسير وحده الهوينا على القناة المجاورة للبيت وما أن رآه حتى واقتته في الحال فكرة صائبة . . فكرة تخلصه من هذا الضيق . . بل تجعل عنقه يمتد شبرا على الاقل . . ولكن العاقبة . . ؟ هو لا يفكر في العاقبة الان . . ونظر الى الخروف ولعت عيناه . . وأربدت سحنته وتلف متذات اليمين مرة وذات الشمال مرات .

ولما لم يجد عينا ترى ولا أذنا تسمع ألقى بعبأته السوداء فوق
الخروف ومن ثم حمله وقفل به راجعا الى الدار . وقبل أن
تقول له زوجه شيئا كان قد أتى بالسكين وأجهز عليه ثم ترك
للسبت فطومة أمر تهيأته وانصرف هو الى - المندرة - ليتباحث
مع المأمور في شئون الضبط والتموين

ومرت لحظات لم تطل كثيرا ثم ظهرت في الافق أم غلى
العجوز تتعثر في خطواتها لقصر نظرها تبحث عن دنياها
الضائعة وثروتها المفقودة . وراحت تبحث في كل مكان وفي
كل حارة وكل زقاق وفي كل رقعة من أرض القرية حتى خارت
قواها ومع ذلك لم تجد له أثرا . وتجسست لها شبح النكبة
التي حلت بها فراحت تولول وتلطم خديها . ان لها سنوات
تخدم الناس في البندر عند الشيخ عبد الصمد موظف الاوقاف
حينما . وتوفيق أفندي بأشكاتب المساحة أحيانا وطورا وهي
المرأة العجوز تجمع القطن وتنقى الارز حتى كلت قواها وكادت
تفقد بصرها ومع ذلك لم تستطع أن تدخر من حيساتها ومن
جهادها الطويل الشاق سوى مبلغ زهيد هو الذي اشترت به
هذا الخروف الذي عقدت عليه كل آمالها اذا ما كبر وباعته
بشمن أكثر . انها كانت تمكث الاسبوع بطوله تكاد تبیت على
الطوى لكي تجمع خمسة قروش تشتري بها حفنة من الحنطة
لا لتأكلها وهي الجائعة بل ليأكلها الخروف . وكانت كلما
تذكرت ذلك زاد نحيبها وأعولت وولولت وتابعت سيرها
كالمجنونة تجوب الازقة والطرقات وتسال هذا وتتقصى من هذه
كل ذلك والناس يمرون بها كراما أحيانا وغير كرام حينما الى
أن قيض الله لها غلاما صغيرا كان على القناة ساعة ان اختطف
خروفها اختطافا فقال لها الحقيقة .

وما أن عرفت العجوز ذلك حتى أسرع تركض الى دار
العمدة وهالها أنها رأتها تموج بالناس فسألت فقيل لها أن
العمدة عنده أضياف أعزاء . وهنا تعالت دقات قلبها لأنها
توجست خيفة وهمت بأن تخترق السدود والقيود المضروبة
حول دار العمدة ولكنها عجزت فزاد خوفها وتعالى نحيبها ومر

بها مصادفة أبو المعاطي فاستبشرت الخير على يديه ، وأسرعت نحوه وتعلقت به وأسرت اليه خبرها فما كان منه إلا أن لطمها على وجهها لكمة قوية لا تحتملها امرأة عجوز فسقطت على الأرض مغمى عليها . وظلت كذلك الى حين . ثم لما أفاق راحته تفكر وهي تجفف دموعها . لمن تشتكي العمدة ومن في القرية أو غيرها يستطيع أن يصعد أمامه ويأخذ بحقها الذي اغتصبه اغتصاباً . . . ؟؟

وطرأت عليها فكرة صائبة . . أن بينها وبين نقطة البوليس مسيرة ربع ساعة فقط فلماذا لا تذهب الى حضرة - الملاحظ - وترتمي عند قدميه وتبثه شكواها وهو وحده الذي يستطيع أن يقف أمام العمدة ويأخذ لها حقها كاملاً غير منقوص . وما أين اقتنعت بذلك حتى راحته تضرب في طريق النقطة تجفف دموعها حيناً وحيناً تتحسس عصاها السشط الطويلة التي نتوكاً عليها .

وكان الضابط شاباً حديث السن وحديث العهد بالعمل أيضاً . لذلك كان لا يزال طيب القلب طاهر الخلق لم تلوثه بعد قاذورات المجتمع ولا سفالات البيئة . ولذلك تملكته الدهشة عندما أبلغته أم على شكواها . ولولا الحقيقة التي كانت تطالعه من خلال دموعها لما صدق دعوها . ولما أقنعت بصحة ما تقول وشهد شاهد كان معها وهو لغلام الصغير الذي رأى الحادث بعينه فثارت نائرتة وغضب غضباً شديداً وراح الالم يحز في نفسه اذ كيف يمكن ان يحدث هذا في القرية أو في غيرها من القرى أو حتى في الدنيا كلها . ان مثل هذا العمدة لو كان حقاً فعل هذا لوجب الزج به في السجون .

ولذلك أسرع من فوره وحرر مذكرة الحادث وأثبتها في محضره . ثم شفعها بهذه العبارة التقليدية : « انتقلت الى مقر الحادثة للتحقيق واثبات الحالة » . ثم امتطى صهوة جواده ومن خلفه أحد الجنود . ومن ثم أم على تركض لاهثة خلفهما الى أن بلغ الراكب القرية وأقبل على دار العمدة .

ولشد ما كانت دهشة حضرة الضابط عندما دلف الى المندرة

فوجد سعادة البك المأمور وحضرة معاون البوليس وحضرة معاون الادارة ومعهم العمدة حول المائدة التي كانت راثحة الشواء اللذيذ تتصاعد منها . وشرائح الضأن متراصة عليها . وحسب التقاليد أدى حضرة الضابط التحية العسكرية لسعادة البك المأمور وحسب التقاليد أيضا أمر المأمور حضرة الضابط بالجلوس على المائدة ومشاركتهم الطعام . وأطاع الضابط النشيط الامر الصادر اليه وجلس ليأكل . وبعد الغذاء مال الضابط على حضرة معاون البوليس وأسر اليه أشياء . ثم مال حضرة معاون البوليس على حضرة الضابط وأسر اليه أشياء . وفي المساء كانت أم على تتوكأ على عصاها السنط الطويلة في طريقها الى سجن المركز ريثما تعرض في الغد على سعادة البك المأمور بعد أن جرد لها حضرة ضابط النقطة محضر جنحة بتهمة البلاغ الكاذب ضد حضرة عمدة الناحية الساهر على صالح الامن .

(١)

سكر...



كانت النفوس في تلك الليلة التي يتحدث عنها التاريخ
ساهرة واجمة يكتنفها الهلع ويلم بها الذعر ويدنو منها الخوف
ويسزع اليها الجزع فريح الصحراء تهب مغبرة مكفهرة خانقة
تعشى العيون وتغشى القلوب ويزعج نواحيها الآذان . واليوم
ينعق نعيقا مخيفا رهيبا موحشا فيملاء النفوس والقلوب
والآذان رعبا وفزعا ، وأهل قریش بين ذلك كله يسرون وقد
شخصت أبصارهم ووقرت آذانهم وانعقدت ألسنتهم فهم
كالصم البكم العمى الذين لا يفقهون . لقد أُنذروا بأن محمدا
على الجبل جاء ليحاربهم وأنه ينتظر حتى ينجلي هذا الليل البهيم
ويسفر عن صبح مشرق ونور مبين . لان محمدا لا يحارب أعداءه
غدا ولا يأخذهم قسوا أو ختلا . وما هي إلا ساعات قلائل

١) أخذت فكرة هذه القصة من كتاب « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين

حتى ينجلي هذا الليل البهيم ويسفر الصبح عن اشراق ونور
وينقض محمد وجيشه على قريش .

وتنظر « سلافة بنت سعيد بن سهم » الى هذا كله فيأخذها
الروع الذي أخذ أهل قريش وتسمع الى هذا كله فيتملكها
الجزع الذي تملك أهل قريش، ولكنها تختلف عنهم جميعا
بقلبها المغلق الذي عرفت كيف تحكم اغلاقه فلا يتسرب اليه
اليأس أو ينفذ اليه الخوف . وكيف تيأس سلافة أو يأخذها
خوف أو هول ولو كان باعته محمدا ؟ ! .. ان جمالها الرائع
الساحر الذي تتحدث به قريش جميعا علمها أن لا تيأس أو
تخفض جناحا .. انها أجمل نساء قريش طرا وأرفعهن بهذا
الجمال شيئا وانبههن ذكرا وأقبرهن به على دفع الرجال الى
غمرات الموت . لا يكلفها هذا الا لفظة من خيد أو بسمة من ثمر
أو رنوة من طرف أو حفرة من مالها الوافر تلقى بها في يد من
تريد . بيد أن اليأس كاد يأخذها عندما انقض سامرها في
تلك الليلة وخرجت من دارها مخمورة تترنح فرأت قومها وما
هم فيه من قلق وخوف فانطلقت صرختها مدوية في قلب الصمت
الموحش فهتكت ستره ومزقت حجبته وظلت تصرخ حتى
بلغت صرخاتها آذان أهل قريش جميعا فتجمعوا حولها ينظرون ما
تقول لهم « أم الصقرين » فهذا كانت تنادي وقالوا : ستجد
لنا القرشية مخرجا من هذا الهول الذي سيطبق علينا بعيد
حينئذ . ولكن سلافة - وكانت أشدهم كفرا وشركا وحقدا على
محمد وغيظا منه وموجدة عليه - خبت سريعا هذه الامال .
اذ تنمرت فجأة لقومها واعتلت خجرا كبيرا وصرخت فيهم ثلاثا
وهي تضع كفيها على جناحي الصقرين مصعب وصفوان .

يا آل قريش : حرمت عليكم الخمر ن لم تقاتلوا محمدا . . .
يا آل قريش : حرمت عليكم المضاجع ان لم تقاتلوا محمدا . . .
يا آل قريش : حرمت عليكم سلافة ان لم تقاتلوا محمدا . . .
صرخت بذلك ثلاثا ثم عادت فرددتها ثلاثا آخر . فغاضها أن
صرخاتها هذه المدوية لم تجد آذانا تسمع ولا قلبا يعي ،
فأخذها السعار الذي تعود أن يأخذها كلما ذكر اسم محمد
فأربدت سنحتها اربدادا مخيفا رهيبا ودفعت بابنيها القويين

فى غلظة وعنف وامتشقت حساما باترا كان فى يد واحد منهما
وصرخت صرخة لا تصدر الا عن قلب عرف كيف يختزن الحقد
اختزاناً ويحتفظ بالموجدة ويحرض على البغض وقالت وهى
تغادر قومها : ستجارب النساء محمدا ان لم تحاربوه أنتم
يا رجال .

وعندئذ فقط أفاق القوم من سباتهم يزعمون كالاسود
ويهدرون كال موج ومن ثم اندفعوا خلفها فى الصحراء كالوحوش
الضارية تنهب الظلام نهبا لتظفر بفريستها، وما أن بلغوا الجبل
حتى كانت حرب ضروس بين الجيشين فرحت بها سلافة فرحا
لا يقدر وسعدت بها سعادة لم تستشعرها نفسها منذ زمن
يعيد .

وظلت وسط جيشها تروح وتجيء تكرر وتفر . تدبر وتقبل
تزى النصر على هيئة السراب فيتהל وجهها وترى الهزيمة
حقا فيأخذها الهول الذى يأخذها كلما ذكر اسم محمد الى أن
وقفت فجأة شاخصة ذاهلة لا تطرف ، تنظر بعينين جاحظتين
الى سهم ينطلق مزغردا فى الفضاء . . وما أن يبلغ صدر ابنها
الكبير مصعب حتى يشقه شقا ويستقر بنصليه فى قلبه ،
فتسرع اليه ذاهلة واجفة قد أخذها الخوف أخذا وأطبق عليها
الرعب اطباقا . وتسأله وهى تنتزع السهم من موضع القلب:
يا بنى ! من أصابك ؟

فيقول الصقر لكبير وهو يجود بأنفاسه على صدرها : ما
أدزى يا أمه . ولكنى سمعت قائلا يقول خذها وانا ابن الاقبح
ثم أصابنى السهم .

يقول لها ابنها الكبير ذلك ثم يموت على صدرها فيضطرب
ذلك الصدر ويضطرب فيه الصراخ اضطرابا ثم يتفجر فجأة
كأنه النار أو كأنه الرعد أو كأنه هما معا . وتظل كذلك الى
أن ينطفئ ذلك الصراخ . تطفئه الفجعة الفاجعة وتحيله الى
عويل يشبه الانين . أو أنين يشبه العويل فلم تعد تسمع له
الا عواء خافتا كذلك الذى كان ينطلق منذ أول الليل فى
الصحراء فيعشى العيون ويغشى القلوب ويوقر الاذان ويملؤها
هولا وجزعا .

وتفريق سلافة الى نفسها شيئا وتهتم أن تقول لنفسها شيئا ولكنها ترتد فجأة تزم شفتيها ذما كريها بغيا مروعاً فقد أخذها الهول مرة أخرى فتقف شاحصة ذاهلة لا تطرف ، تنظر بعينين جاحظتين الى سهم جديد ينطلق مزغردا في الفضاء وما أن يبلغ رأس ابنها الثاني صفوان حتى يشججه شجا ويستقرر بنصليه في قلب الجمجمة فتتطاير قروتها وتتناثر عظامها فتسرع اليه ذاهلة واجفة قد أخذها الخوف أخذاً وأطبق عليها الرعب اطباقاً وتسأله وهي تنتزع السهم من الجمجمة : يا بني ! من أصابك ؟

فيقول الصقر الصغير وهو يجود بأنفاسه على صدرها :
ما أدري يا أماء ولكني سمعت قائلاً يقول أخذها وانا ابن الاقلىح . ثم اصابني السهم .

يقول لها ابنها الصغير ذلك ثم يموت على صدرها كما مات ابنها الكبير منذ لحظات على صدرها أيضاً وتنظر الام الى ابنيها هذا ملقى شمالاً قد شق السهم صدره ، وهذا ملقى يمينا قد شج السهم رأسه . فتشخص عيناها ويضطرب صدرها ويضطرب فيه الصراخ اضطراباً ولكنها لم تصرخ . وانما تسير آخر النهار صامتة مع فلول جيشها المنهزم . وما أن تبلغ دارها حتى تنظر ذات اليمين فلا ترى مصعباً وتنظر ذات الشمال فلا ترى صفوان ثم تنظر مرة أخرى الى بعيد فتري الاول قد شق السهم صدره وترى الثاني قد شج السهم رأسه . فتدبصرها هذا الذي ذهب الى بعيد . وترده سريعاً مبهورة الانفاس قد أخذها السعار الى الخمر لتطفيء بها تلك النار التي تحرق جسدها ، ولكنها ما أن تبلغ القدر التي فيها خمرها المعتقة وتهتم أن ترفعها الى شفتيها حتى تردها سريعاً منذرة للات والعزى صوما حتى تشربها في قحف رأس ابن الاقلىح . وخرجت هائمة على وجهها تذيع في أهل البادية وأعراب الحجاز ان من جاءها برأس عاصم بن ثابت بن الاقلىح فله مائة من الابل .

ومائة من الابل عدد ليس باليسير ومال ليس بالهين واغراء كبير ليس الى زده من سبيل . وكان أن أغرى هذا النذر الجميع

ولكن أننى لهؤلاء جميعا برأس ابن الاقلح هذا الذى آزر الله به نبيه فكان خير من ثقف فى الدين . وكان خير فارس يذود عن حياض المسلمين . وكان أقرب الناس الى قلب محمد وأنسهم اليه وأعزهم عليه وأكرمهم عنده . ولكن فتنة المال كانت هى الاخرى أشد مضاء وأكثر اغراء . . . وأقضى مضجع النفوس الذين لا يؤمنون .

وكان أكثر هؤلاء جميعا اغراء وفتنة وافتتانا بهذه الابل المائة . جبير بن سهم وهو أخو سلافة لابيها وكان رجلا رقيق الحال . خامل الذكر ولكنه قوى الشكيمة صعب المراس له دهاء وله فطنة وله رأى سديد فى كثير من الامور التى يراد بها الشر بالناس . وفكر جبير جيدا وفكر طويلا وقضى أياما لا يغمض له جفن لانه قضاها فى احكام الخطة التى تمكنه من الظفر بالابل المائة اذا ماظفر برأس ابن الاقلح .

ولما اطمأن الى خطته التى أحكمها . ذهب الى جماعة من هذيل وتشاور معهم فى الامر ثم اصطحب نفرا منهم أقوياء أشداء يعرفون كيف تحذق فنون المكر وكيف تدبر أفانين الدهاء . وما أن أقبلوا على الرسول « حتى زعموا له أنهم قد آمنوا به وأسلموا له وأن دينه قد مشى فيهم . وسألوه أن يرسل معهم من يفقههم فى الدين ويعلمهم شرائعه . يظهرُونَ الاخلاص ويضمرون الغدر ، ويريد الله لامر قضاه أن يختار نبي يشرب ستة من أصحابه وأن يؤمر عليهم عاصم ابن ثابت بن الاقلح وان يرسل هذا النفر من أصحابه مع أولئك الغادرين . فما هى الا أن يقتربوا من مكة حتى يظهر الخفى ويصرح الشر . واذا الذى كان يعلن ايمانه يصرخ فتستل جماعته الماكرة سيوفها . وينظر أصحاب محمد فلا يرون الا الغدر ويتلفت أصحاب محمد فلا يرون الا الجبل فينحازون اليه فيلحق بهم جبير وجماعته معايدا على أن لا يقتلهم أو ينسهم بأذى ان هم سلموا اليه رأس عاصم لتشرب القرشية فى قحفه الخمر . فأما أصحاب عاصم فينظرون الى السماء ويقسمون على أن تكون رؤوسهم فداء رأس صاحبهم . فما كان لمسلم أن ينزل على رأى كافر قط . وما كان لرأس مسلم أن تلهو به كافرة قط . ثم يستتلون

سيوفهم وتكون الحرب بينهم وبين هذه الكثرة التي أرادت بهم
سوءاً .

وتمتد هذه الحرب العوان بين الفريقين الى ساعات طوال .
حارب فيها أصحاب النبي حرباً لم يشهد التاريخ مثلها قوة
وعنفًا وإيمانًا بالله ورسوله حتى أبادوا جماعة هذيل عن آخرها
ولم يبق منها سوى جبير وصاحبه عميرة بن النضر ورجل ثالث
هو العباس بن عامر . قد شج سيف أحد المسلمين جبهته
فاستلقى بعيداً يعالج جرحه الغائر حيناً ، ويرسل أنيسه
وتوجه حيناً آخر . وحارب جبير وأصحابه حرباً شعواء
فيها كثير من القسوة والغلظة والعنف ، حتى قتلوا وفد النبي
عن آخره ولم يبق سوى عاصم وحده على الجبل يكر ويفسر
ويستمد العون والقوة من السماء التي لا ينى يرنو اليها
يعينيه وهو يدور حول جبير وصاحبه . وجبير يكر عليه حيناً
ثم يفر منه في أكثر الأحيان وظل الثلاثة كذلك الى أن أراد الله
أمراً وأطلق جبير سهماً طائشاً استقر في صدر عاصم وأصاب
منه مقتلاً .

ونظر ابن الاقلح الى الدم الغزير الذي يتدفق من صدره ،
والسهم الطائش الذي استقر في قلبه فغمره سرور لا حد له
واكتنفته لذة كبيرة فاضت على جسده الذي يرتعش رعشة
الموت فقد كانت أعز أمانيه أن يستشهد في سبيل الله . بيد
أن الذي آذاه وهو يموت هو أن تلهو تلك القرشية برأسه ،
وتشرب في قحفه الخمر . ولما شعر بهذا الذي يكتنفه وأحس
أن هذا الذي يلهم به المأما ويمسه مسا رفيقا طورا وعنيفا طورا
آخر اتجه الى السماء ونظر اليها طويلا وقد اغرورقت عيناه
بالدموع وتمتم شيئا . ثم أطبق شفتيه ، وأغمض عينيه . .
وفرح جبير وصاحبه عميرة بمقتل عاصم فرحا كاد ينسيهما
عناء ذلك اليوم الطويل الشاق .

وبعد ان استراحا قليلا واستعدا نشاطهما أقبلا على جثته
يريدان أن يجثا رأسه بيد أنهما قد شهدا ظلة من الدبر تقوم
دونه فتحميه وتمنعهم أن يصلوا اليه . ويعمل جبير أقصى ما في
طاقة انسان ويعمل صاحبه عميرة أقصى ما في طاقة الانسان

أيضا ، ولكن الظلة كما هي تقوم دونه فتحميه وتمنعهما من أن يصلا اليه ، ويشير عليهما صاحبهما ذلك الجريح الذي شج سهم أحد المسلمين جبهته فاستلقى يعالج جرحه ويرسل أنينه وتوجهه - يشير عليهما بأن يدعاه حتى يأتي الليل فتصرف عنه هذه الظلة من الدبر وينجلي لهما رأسه ويستصوب جبير هذا الرأي ويستصوبه أيضا عميرة ويجلسان بعيدا عند ربوة عالية ينتظران الليل وينتظران أيضا لقاء سلافة ليقدا اليها رأس غريمها فتقدم لهما الثراء الطائل والخير العميم . ولم يطل انتظارهما طويلا لان الليل كان قد أقبل سريعا . ولكنه لم يقبل وحده كما كانا ينتظران وانما أقبل معه شيء غريب آخر لعله أقرب ما يكون الى العجب العجيب . فقد أقبل الليل وأقبل معه سيل كاسح جارف حمل الجثة ومضى بها الى حيث لا تراها عيني ، ولا تبلغها يد ، ولا تصل اليها قدم .

ووقف جبير مأخوذا ووقف معه صاحبه عميرة ذاهلا ، ينظر أحدهما الى الآخر ويريد أن يقول له شيئا فلا يستطيع ولا يقدر حتى على أن يحرك شفتيه الى أن سمعا صوتا ينبعث من تحت أرجلهما فالتفتا اليه فاذا به صاحبهما الجريح الذي شج سهم أحد المسلمين جبهته يقول لصاحبيه : لقد سمعته - وهو يموت - يقول شيئا .

فقال له عميرة : ماذا كان يقول ؟

فقال الرجل الجريح : سمعته يقول :

« اللهم اني حميت دينك في أول النهار فاحم لحمي في آخر النهار » فاستشاط جبير غيظا وألقى في وجه صاحبه الجريح بحفنة من التراب عفرتة ، ثم تركه وانصرف مع صاحبه صامتا لا ينبس متخاذلا يرزح تحت أعباء الخيبة الخائبة التي أثقلت كاهله فأفقدته حتى حسه .

أما عميرة فكان يسير بجواره يغمض عينيه جينا فيرى حبالا طويلا من الابل يبلغ المائة سيصبح هو وصاحبه به من أثرياء قريش وساداتها ومن أهل اليسار فيها . فتغمره السعادة

وتفيض عليه الفرحة ويفتح عينيه فرحا مبتهجا فلا يرى الاظلاما
 حالكا أشبه بالظلمة التي ترين على قلبه وتطبق على نفسه بعد
 تلك الحيبة الحائبة ، وينظر الى صاحبه جبير الذي يسير بجواره
 فتأخذه الشفقة عليه وعلى ما يرتسم على وجهه من علامات الحنق
 والغیظ واليأس المرير فيغمض عينيه ثانية ولكن على حبل طويل
 من الابل يبلغ المائة . .

وظل كذلك يغمض عينيه فلا يرى الا حلما جميلا ، ويفتحهما
 فلا يرى الا ظلاما الى أن حانت منه التفاتة عارضة فاذا به يرى
 شيئا عجيبا لم يظن اليه من قبل لانه لم يكن قد رآه . فأغمض
 عينيه سريعا وهو يضطرب اضطرابا شديدا فيه خوف وفيه
 ذعر . ثم عاد ففتح عينيه لعل هذا الذي أخافه يكون وهما ولكنه
 رأى الشيء الذي رآه ورآه واضحا جليا فراح يتأمله في الليل
 ويدقق فيه ويمعن النظر فاذا بعينه لم تخطيء واذا بوجه جبير
 لا يختلف في قليل أو كثير عن وجه ابن الاقبح ، انه يشبهه
 تماما حتى يكاد يكون هو . وفجأة واثته فكرة ، وما أن فكر
 فيها حتى اربدت ملامحه وجحظت عيناه في الليل جحوظا غريبا
 لذلك أسرع فأبعدها عن خاطره سريعا . وأغمض عينيه ولكن
 على حبل طويل من الابل يكاد يبلغ المائة . به سيصبح «وحده»
 من أثرياء قريش وساداتها ومن أهل اليسار فيها . فغمرته
 اللذة واكتنفته السعادة . وفاضت عليه الفرحة ففتح عينيه
 فرحا مبتهجا ولكن على وجه جبير هذه المرة . ان الفرق حقيقة
 بين الوجهين لا يكاد يذكر . فقط تقطع هذه الاذن ، وهنم
 الشفة ، وتفقاً هذه العين ، ويجدع هذا الانف فيكون وجه ابن
 الاقبح بعد احتراب السيوف . . ثم من ذا الذي سينكر أنه وجه
 عاصم ؟ ان من ينكر هذا فعليه برأسه ، وعاصم قد مات وجرفه
 السيل وليس من سبيل اليه .
 ولكن . . .

وأغمض عينيه . . ولكن على حبل طويل من الابل يبلغ المائة .
 وبينما هو . . . نعم برؤية هذا النذر العريض كانت يده تتحسس

هـى رفق سيفه الباتر ! وما أن تلمسه واطمأن اليه حتى فتح
عينيه فجأة ولكن على رقبة جبير فأطاحها بضربة غليظة قاسية
وحمل عميرة رأس جبير وسار بها فى الظلام يتحسسها
بيديه ويسويها بسيفه . يفتأ هذه العين ويقطع هذه الاذن
ويجدع هذا الانف . وينظر الى الظلام الممتد أمامه فلا يرى الا
حبلا طويلا جدا من الابل ظل يسير خلفه الى أن بلغ سلافة
فألقى فى حجرها بما يحمل .

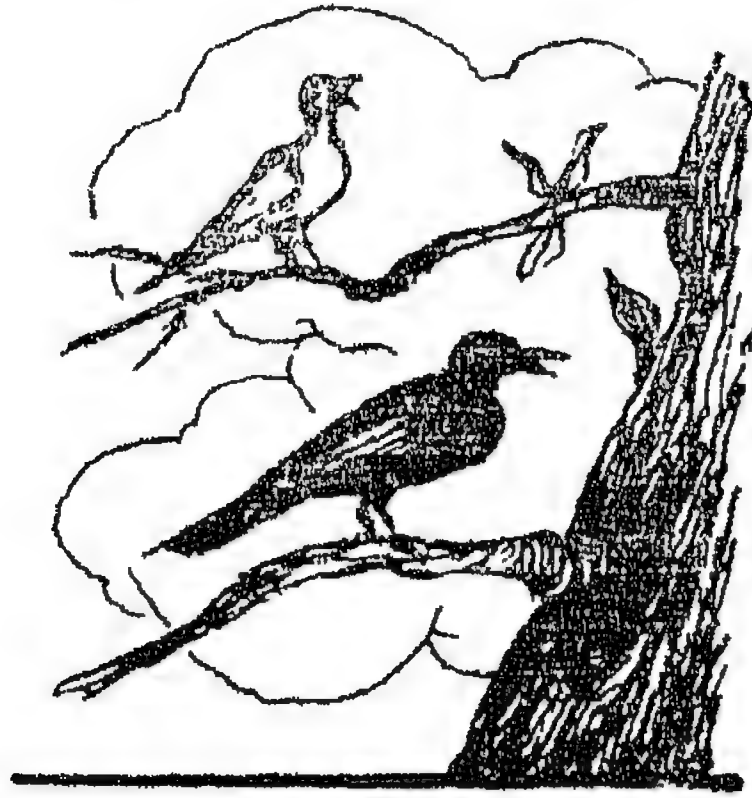
ونظرت سلافة الى رأس غريمها فى الدنيا ، وعدوها فى
الدين ، وقاتل ابنيها وفذل قومها فأخذتها الفرحة أخذا عزيزا
فقامت فى أهلها مزعردة . وما هى الا لحظات حتى التأم الشمل
وانتظم سامرها وكان الشوق الى الخمر قد قتلها قتلا .
فراحت تعب منها ما تشتهى . ويعب منها سمارها ما يشتهون
حتى لعبت الخمر برؤوسهم كما لعبت الفرحة بقلوبهم ، وأبت
سلافة الا أن توزع على قومها فى هذه الليلة الكثير من الخيرات
فنحرت الابل وذبحت الشاء ووزعت عليهم قدور الخمر . كما
أبت أيضا الا أن تنعم العيون كما نعمت البطون وكما نعمت
القلوب فى هذه الليلة السعيدة فارتدت ثوبا غاليا للرقص .
كانت لا ترتديه الا لمن يشتهون جمالها فقط . ومن ثم راحت
وسط سامرها ترقص على رنين الدفوف وبين يديها قحف رأس
ابن الاقلح تشرب فيه الخمر .

وبينما الجميع كذلك يسمرون ويضحكون سكارى تلعب
برؤوسهم الخمر ويلعب جمال سلافة بقلوبهم اذ بهم يسمعون
صوتا يأتى من بعيد كأنه فى آذانهم لفحات النار ، فالتفتوا
جميعا فاذا برجل جريح ينزف الدم بغزارة من جبهته التى
شجها سيف غليظ قاس . يقبل عليهم راجفا يكتم بيميناه الدم
الغزير المتدفق من جرحه الغائر ، ويلوح للقوم بيسراه وهو
يقول صارخا :

— لا تشربى الخمر ياسلافة ، انه قحف رأس أخيك .

ويهرع القوم في ذعر الى الرجل الجريح فاذا به العباس بن
 عامر أشد الناس كرها لمحمد . وأكثرهم حقدا عليه وبغضا
 الى دينه . فيحيطون به كما كانوا يحيطون منذ لحظات بسلافة
 وهي ترقص ويسألونه الخبر فلا يجيب . وتسأله سلافة الخبر
 فلا يجيب أيضا فترتمي عليه تلطم خديها وتشق ثوبها فنسلا
 يقول شيئا . فتتهزه هذا عنيفا فيفتح عينيه . ولكنه لا ينظر
 الى سلافة ولا ينظر الى القوم ولا الى الدماء التي تتسدفق من
 جبهته . وانما ينظر الى السماء وينظر اليها طويلا وطويلا جدا .
 وكأنه يتأمل فيها شيئا ثم يغمض عينيه رويدا رويدا وهو يتمتم
 بصوت لم تسمع قریش أعذب منه رثينا ولا أوقع منه ترنيما
 أشهد أن لا إله الا الله وان محمدا رسول الله .

بين الجسد



كانت الحميلة تقع في مكان ناء عند أطراف الصحراء ، ليس
من السهل تحديده أو الاهتداء اليه ، وكانت أيضا من غير
الخمائل التي نألفها ، فقد كانت مسورة بسور من زهر
الياسمين قام على أوراق بيضاء ناصعة من أوراق الورد الابيض
المتضوع ، وعلى كل زهرة من أزهار الياسمين هذه ، القائمة
على السور ، قوس مشدود بها سهم ، وليس على النسييم
العليل الا أن يهب رخاء فتنتلق الاسهم حيث يشاء لها « الهوى »
أن تنطلق ، أما أشجار الحديقة فهي من السوسن الذي لم نألفه

تحن .. ففي نهاية كل فرع وعلى رأس كل زهرة نبتت فيه ترى زنبقة كبيرة بيضاء ضمت هي الاخرى أفوافها على قلب وردة حمراء قانية لم تفتح بعد ، وترى الزنبقة هذه وقد مالت بالفرع المياد كله الى أسفل حيث شارفت تلك الجداول الكثيرة المنبثة تحت الاغصان يتدفق منها ماء زلال كأنه الكوثر ، وفي وسط هذه الحميلة التي اسمها « خميلة الحب » ترى عرشا كبيرا ، صنع كله من الورد الابيض أيضا على هيئة قلب كبير مقام على سبعة أغصان من أغصان النرجس وقد جلس عليه « كيوبيد » اله الحب ، ومن حوله سبع فتيات عاريات كأنهن في جمالهن الحور العين ، وقد وقفن منحنيات كالقوس ، وقد مدت كل واحدة ذراعها العاجي الابيض الى الامام فغدا كالسهم المسدد ، وكلما هب النسيم العليل تطاير معه ذلك الشعير العسلي المسدل من الخلف على الردفين ، ينساب من الامام على الصدر العريض الفخور بتوأميه ، فحال بين القمر العاشق والشدى الواله المتشوف ، فلا يسعهن وقد كشف النسيم عن هذا كله الا أن يكتمن أنفاسهن غيظا من ذلك النسيم العليل المتخابث الذي يأبى أبدا الا أن يكشف دائما - عن تلك المناطق المحرمة في الجسد الجميل .

وكان من عادة كيوبيد أن يسر ايما سرور لهذه المعاشات البريئة ، فمثلا همسات النسيم للجمال البكر ، كانت تطربه ولثمات القمر الذي كان يطبعها بمهارة فائقة على أماكن البروز في الجسد المشبوب العاري كانت تسره ، غير انه في هذه الليلة لم يفتن الى شيء من هذا السحر ولا من هذا الجمال الخالد الرائع المتناثر حواليه ، فقد كان مضطربا على غير عادته قلقا لا يكاد يستقر لحظة على عرشه الوردى العطر ، ذلك لان الانباء كانت تترى عليه من المدينة غير سارة ، فكلها تنذر بأوخم العواقب وتنبيء بالنتيجة المحتومة للجيش المنهزم والقائد المغلوب ، فالضحايا قد كثر عددهم ، والجراح لا سبيل الى التئامها ، والثغرات التي أحدثها العدو على طول جبهة القتال قد اتسعت واستعرت وغدت كأنفاس القدر تتلظى

عرتزأر نارها وكلما حاول جنوده أن يسدوها بالزفرات والدموع
اختلط عليهم الامر لان زفرات المحبين فى هذه الايام ، لم تعد
لها تلك الحرقه التى تبلور القلب وتطهره وتروضه على الصبر
والنضال ، والدموع لم يعد لها ذلك الصفاء الطاهر الذى تهتز
له النفس ، ولم تعد لها تلك النار المستعرة التى تؤثر فى
الحبيب ، حتى عبارات الغرام والهيام التى كانت فيما مضى
تسكر القلوب وترنحها ، غدت هى الاخرى عبارات باردة لا أثر
لها ولا معنى تذهب وتتلاشى كما تتلاشى الظلال .

وكانت نتيجة ذلك كله أن جنوده غدت تخر صرعى فى
الميادين بالالوف كل يوم ، لان الجندى الذى لم ينجح فى تأدية
رسالة الحب بين الحبيبين ، عليه أن يقدم نفسه تكفيرا عن هذا
الإخفاق ، وكانت نتيجةه ايضا أن اضطرب حبل الوفاء وتعددت
هذه الحوادث التى يسجلها بين لحظة واخرى هذا المرصد
الوردى القاتم أمامه .

ونظر كيوييد الى تلك الزنبقة البيضاء الكبيرة التى أمامه
يسجل عليها النسيم بأنفاسه العبة الحوادث أولا بأول . .
فألفاها قد سجلت حادثا مروعا ما كان ليظن أبدا بأنه سيحدث
وهو أن تلك الراعية الجميلة التى قرعى الشاء فى الواحة
الخضراء بجانب الخميلة ، والتى باركها هو بنفسه يوم أن
جمع بينها وبين ذلك الاعرابى الذى كان يرعى الابل قريبا
منها فى الصحراء حتى هذه الراعية الجميلة قد ضلت سواء
السبيل ووضع السيف فى موضع الندى ، وارتكبت أمرا
ادا فى غفلة من الذى أودع قلبه أمانة فى عنقها .

وما أن رأى كيوييد هذا حتى ثارت ثائرتى واضطرب فؤاده
وظن أمرا خطيرا ، ظن أن العناية الالهية التى تمتد بالوفاء
والاخلاص والطهر قد تخلت عنه ، والا فما سر كل هذه
الاحداث التى تحدث . . . وما أن واثاه هذا الخاطر البغيض
حتى ارتعدت فرائصه ، وكاد يجب قلبه ، وأراد أن يجرب .

هل تخلت عنه حقا العناية الالهية ؟

والتفت وهو شاحب اللون ، زائغ العين ، وأشار اشارة خاطفة الى النسيم العليل ، واذا بسبعة أسهم حادة الانصال تنطلق فى قوة غاشمة واذا بها فى غير ما رحمة ولا شفقة تشج صدور الفتيات السبع الواقفات حوله عاريات، واذا بها تخترم الصدر ، وتبيت فى القلب ، واذا بالفتيات السبع يهوين مترنحات متأودات ، وقبل أن يبلغن أرض الخميطة المخضوضرة ألفين سبعة فتيان أشداء أقوياء ، فحمل كل واحد واحدة على صدره ومن ثم تسللوا بهن من الخميطة ، يرقص أمامهن النسيم فرحا ، وتتمايل أوراق الورد لهن طربا ، ومن خلفهن يصب القمر عليهن ضحكاته وينثر عليهن رقاؤه وتعاويذه التى تحفظ المحبين وتحرسهم من العين .

وكان هذا كله بمرأى من كيوييد ، قارتدت أنفاسه ، وعادوته ابتساماته التى أنارت الكون ، وراح قلبه من شدة الفرح ينشد نشيد الولاء والاخلاص للعناية الالهية التى مازالت تمدد بروح من عندها ، وتبث فيه روح الود والخير . . . والولاء للناس . . . اذن ماسر هذه الاحداث ؟ وما هى هذه الانبياء السيئة التى ترد اليه من جنوده !

ومد اصبعها وردية الى زنبقة حمراء صغيرة بجانبه ، ومسها مسا رفيقا رفيقا ، واذا بجنوده من حوله تأتى من كل صوب راكعة ساجدة تنشد لآله الحب على قيثاره القلب أنشودة الجمال ، فمال عليهم يستفسرهم عن سر الانبياء التى ترد اليه منهم ، فخروا جميعا سجدا مرة أخرى ، ثم تقدم جندى جميل تحفه هالة من النور المصفى الذى خلق منه . اسمه - الوفاء - وقال بصوت ملائكى عذب الترنيمة والترجيع .

«طاعة واخلصا ، ايها الملك الكريم الذى بعث به الله ليملأ الدنيا نورا وطهرا . . . اننا لم ندخر وسعا ولم نأل جهدا . . . ولكن الشيطان قد مده - الشر - بجنود عرفت كيف تبذر

بذورها السوداء في عقل انسان هذا الزمن الذي غدا لا يصغي
الىنا الا اذا اراد أن يتفكه . . لهذا نحن يامولانا الخالد أشقى
ما تكون بهذا الشيطان الذي راح يمشي على الارض مرحا ، أملا
انه سيخرق الارض ، ويبلغ الجبال طولا . »

ولم يرد كيوبيد أن يسمع أكثر من ذلك . . فأعاد أصبعه
الوردية الى تلك الزنقة الحمراء ومسها مساً رقيقاً رقيقاً فإذا
بالنسيم العليل يعبق ويتضوع ، وبالجنود الذين خلقوا من
نور تسبح عليه كذرات من لجين منطلقة الى المدينة لتستأنف
صراعها الازلي في ميدان الدنيا .

ورأى كيوبيد وقد انصرفت جنوده ، أن يذهب هو بنفسه
الى المدينة ويبارك ساحة القتال ، ويشرف على هذا الصراع
الابدى ، فهبط من على عرشه الوردى الكبير ، وقبل أن يبلغ
أرض الخميطة الخضراء الطاهرة كان على الهيئة التي اختارها
لنفسه ، وهي هيئة بلبل صغير جميل ، رخم الصوت عذب
النبرات لا ينفك عن الترنيمة ، وما أن غادر أرض الخميطة
وبلغ الشاطئ المتاخم لها المسمى بشاطئ الحب ، حتى كانت
الطبيعة قد أحست بمقدمه فهرعت اليه واستقبلته فرحة كل
الفرح مرحبة كل الترحيب ، فالزوج قد اخضرت وغدت
بساطاً مترامياً يسير عليه ، والهواء الندي غدا خمراً آلهية
يشرب منها ، والشجيرات تمايلت وراحت تظله . والنخيلات
طابت عناقيدها وراح بلحها يتساقط ذهباً حوالياً ، والبحر
بأمواجه الفرحة يوقع اعذب الالمان ، كل ذلك وهو يسير
مبتهجاً الى أن بلغ مكاناً على الشاطئ أشبه بربوة جميلة
تظللها صفصافة كبيرة قد أرخت أغصانها عليها وكأنها تضمها
وتعانقها وكان هذا المكان قد أعده أحد جنوده لحبيبين جديدين
سيلتقيان عنده لأول مرة بعد لحظات ، وسر كيوبيد جداً لهذا
المنظر ، وقدر في خادمه هذا الولاء ، ورأى أن يترث قليلاً
لينعم بهذا الجمال الفاتن الاخاذ ولينتظر الحبيبين حتى

حيأتيا فيباركهما بنفسه • ويمسح عليهما بيده الطاهرة فاقترب
من الربوة وهم أن يقفز على الصفصافة ليشرف عليهما من عل
ولكنه ما أن اقترب قليلا ، حتى انتفض مرتعسا غاضبا •
وتصلبت أساريره وأريدت ملامحه ، ذلك لانه رأى « غرابا »
عجوزا بشع المنظر كالح السحنة • • يأكل بمنقاره الاسود
المدبب من جسده حتى راحت دماؤه تسيل سوداء بلون سحنته
وكان هذا الغراب هو « الشيطان » فتقدم منه البلبل في غضب
وجرأة وقال له محتدما :

— ماذا تصنع هنا أيها الشيطان الرجيم ، وقيم انتظارك ؟
فقال الشيطان ضاحكا وقد أخذ بجمال البلبل الغضبان :
— جئت لانه بلغنى أيها الملك الكريم انك غررت باثنين من
البشر ، بأن أثرت فيهما بألفاظك — الطاهرة — حيث اهتديا
به الى طريقك • • طريق — الخير — الذى سيتدريان فيه بفضل
دهائك وشعوذتك • • وقد بلغنى أيها الملك الكريم • ان
المسكينين على موعد هنا فى هذه الساعة فجئت بنفسى انتظرهما
لاهديهما الى الطريق السوى • طريق الجسد والفناء فيه • •
طريق الشهوة الجامحة التى كتب لها البقاء على لوح اللذة
والاستمتاع •

فقال البلبل غاضبا وقد احتدم غيظه :
— ولكنك لن تضل من هديته أنا ، وباركته • • انك لن
تستطيع •

فقال الشيطان مبتسما مطمئنا :
— ولكنك لن تجد أقدر منى على تضليل من هديت • •
وصمت لحظة نشر فيها جناحه الاسود الاجرب وعقب :
« أنا أعتقد أن هذا اللقاء دبره لنا أبانا الخالد « الشر » لحكمة
تعود على الدنيا بالغنى والكسب ، فأنا وانت فى صراع دائم
بما دامت الدنيا • فلم لا تشوب الى رشيدك وتنضم الى ، أنا
بالشهوة واللذة والجسد ، وانت بالغرام والحب والروح • •

وبذلك نفرق الدنيا في بحر - الشر - الذي يجب أن تفرق فيه
وبذلك نريح ونستريح ، ألسنت معى أيها الملك الكريم ؟ ؟
فقال البلبل ، ومرجل غيظه يكاد ينفجر .

- ولم لا تثوب انت الى رشذك ايها الفاجر ، وتنضوى تحت
لوائى ، أهديك وأطهرك ، وأستعين بك على توجيه الانسانية
الى الخير . .

فقال الغراب مبتسما .

- ولكنى أشد منك مراسا . ولا تنس ان الغلبة لى
فقال البلبل :

- ان الغلبة للخير . الذى اليه المصير .
فقال الغراب جادا :

- ان مبعث شقاء الانسانية هو هذا الخير الكاذب الذى به
تتشددون فاعلم أيها الملك الكريم الذى سخره الخير المموه أن
الخير ومشتقاته الخيالية . الطهر . والشرف والقلب . والروح
والوفاء . والاخلاص . ماهى الا أسماء سميتموها ، وترهات
خلقتموها ، وأضيفتم عليها من معسول ألفاظكم ما جعل لها هذا
الرونق الخلاب الذى هو مبعث شقاء الانسانية وسر تعاستها
ولولا ذلك ما بعث بى أبونا الخالد - الشر - العظيم ومكن لى فى
الارض ، الا لاهدى من أغويته انت .

فقال البلبل :

- انك واهم . . انك فى ضلال مبين ، انك أضعف بكثير
مما تظن ، أن الغلبة لى أنا ، والبقاء لى أنا ، والخلود لى أنا .
ألم تعرف قول الله :

وهنا انتفض الشيطان ، وارتعدت فرائصه ، وقال فزعاً :
- اننا هنا نتكلم فى الارض ، فأى شأن لنا بما أنزلت السماء .
ومع ذلك أتراهنبنى ؟

- على ماذا ؟

- أينما تكون له الغلبة ينضوى تحت لوائه الآخر .

ـ قبلت ولك أن تختار .
 ونظر الشيطان ، فألقى الحبيبين البريئين قد أقبلًا يتهاديان
 ، قد يما شطر الربوة الجميلة التي تواعدا اليها والتي أعدها
 لهما ، . . فقال علي الفور :

ـ علي هذين الحبيبين نتراهن ، انت تختار من تشاء وأنا إلى
 النجاة ، ثم نبدأ صراعنا ، والذي ينتصر يآتمر المهزوم بأمره
 فقال الحب فرحا :

ـ انت الذي تختار أولا .
 فقال الشيطان قبل أن تفلت الفرصة :

ـ اخترت الفتاة .
 وقبل أن يرتد إلى الليل طرفه كان الغراب قد تحول إلى
 خرة سوداء تطايرت في الهواء فاستنشقتها الفتاة ودون أن
 تشعر تسربت إلى ـ عقلها وكننت فيه . وتحول الليل هو
 الآخر سريعا إلى نغمة متضوعة حملها النسيم العاطر إلى الفتى
 فاستنشقتها ومن ثم تسربت إلى ـ قلبه ـ واستقرت فيه .
 وأقبلت المرأة التي هي الشيطان ، والرجل الذي هو الحب
 على الربوة وجلسا عليها يتناجيان . . . وتركت (هدى) طرف
 ثوبها عامدة فأنحسر عن فخذ بيضاء ناصعة . ما أن رأى
 «محسن» تبلورها . واكتنازها ، حتى أغضى قائلا :

ـ انظري إلى هذه الربوة الجميلة . . . وهذه الصفاة
 التي أرخت شعورها علينا لتظل لنا . . وهذا البحر الذي
 تصدح موسيقاه تحت أقدامنا ، وهذا النسيم العليل الذي
 يداعب شعرك في رفق . . ان هذه أشياء سخرتها الطبيعة
 لتبارك حبنا الخالد .

ثم نظر إلى عينيها الواسعتين . واستطرد يقول :
 ـ اتقي يا هدى أن حبنا سيخلد خلود هذا النسيم العليل
 خلود هذا البحر الرابض تحت أقدامنا .
 فقالت وهي تلتهم بعينيها من شفثيه .

- أحقا أنت تحبني ؟
 — كما أحب الله الذى خلقك ، وأحب قلبى الذى أحبك .
 — ما الذى تحبه فى ؟
 — أحب فى عينيك صفاءهما ونورهما ، وفى صوتك براءته
 وفى ذيلك نقاوته ونصاعته . . . أحب فى نفسك طهارتها
 وحبها للخير ، وأحب من جراء ذلك فىك الله الذى جعل الجمال
 آياته الكبرى ، والذى جمع بيننا فى هذه الساعة التى
 تفضل العمر .
 قال لها ذلك ، فكسرت جفنا مترنحا مهزولا ، وأرخت هدبا
 طويلا أسود على عينين ساحرتين وقالت سكرة الأعطاف .
 — أما أنا فأحب فىك شيئا واحدا لا يعدله شيء عند المرأة
 أحب فىك قوتك .
 واقتربت منه ، والتصقت به ، ومكنت لفخذها العارية
 الملتهبة من فخذ الخدرة النائمة ، وأردفت بصوت ضمخ
 السحر كل نبرة فيه .
 — أحب فىك هذا الساعد المفتول ، وهذا المنكب القوى .
 وهذا الصدر العريض الذى يحمى كل من يلوذ به ، واندلعت
 فى جسدها شرارة فألهبته وأججت ناره ، فعادت النظر اليه
 محمومة ، ولما رأت تخبط نظراته ، وحيرة لسانه ، ووجهه
 الذى صبغه الخجل بحمرة قانية ، قالت ذاهلة محمومة :
 — صدقنى . . . صدقنى . . . ليس فى الوجود كله غير ثغرك
 هو الذى يطفىء هذه النار ، وليس غير ساعدك هذا القوى هو
 الذى يعرك العود المياد ، وليس غير صوتك هو الذى أخر له
 ساجدة . . . أبدا وليس غير صدرك أنت يحد من ثورة هذا
 الشدى الارعن الطائش . . . صدقنى حتى هذا الخجل أحبته فىك
 وأدنت ثغرها من ثغره ، وصدرها من صدره ، وثارت نائرة
 — الرجل . — وهم أن يضمها الى صدرها الخافق ، ويلهب ثغرها
 الظامى لثما وتقبيلا ، ولكنه انشغل بصوت ملائكى كان يناديه
 من أعماق ضميرة ، فنحاهما برفق وهو يقول :

- ولكن السماء ترقبنا ، والله ينهانا !
 فقالت وقد همت ، بعد أن أفلت من يدها زمام الجسد الثائر :
 - ولكن الدنيا تدعونا .
 وأسرعت لتلقى بالجسد المشتعل بين ذراعيه ، لتبترد
 بأعضائه بيد أن الصوت كان ما يزال يناديه ، فارتد خائفا
 فانزلت قدمها فجأة فهوت الى البحر .
 ونظر محسن وهو على الربوة الى الحبيبة الطائشة التي
 تغرق ، فانهلع قلبه ، وجحظت عيناه ، ودون أن يشعر ألقى
 بنفسه خلفها في اليم المتلاطم الامواج .
 وبعد حين خرج من اليم حاملا لها على صدره بعد أن تطهرت
 من رجس الشيطان المنهزم الذي فر هاربا ، وألقى بجسدها
 الخائر الذي انهكته ترائيل التوبة والاستغفار في الماء ...
 ولما أفاقت من هذا الحلم المزعج ، والكابوس الثقيل ، الذي
 جثم حيناً على عقلها فأضله وألفت محسن ينظر اليها فرحاً
 - بالنجاة - هممت اليه بشفتيها الطاهرتين ، فتقدم منها
 وطبع على ثغرها قبلة خالدة ، رجعت السماء ترانيمها ، وراح
 كيوييد يرقص على أنغامها ، ويطلق سهامه ، التي راحت في
 الفضاء تدوى مزغردة تنشد أناشيد الظفر .
 وبينما الحبيبة تسير في جاذب الحبيب منتشية تتهادى
 والبلبل - الخالد - في طريقه الى عرشه الوردى القائم وسط
 الخميعة المتضوعة ، ومن حوله جنوده الابرار ترتل أناشيد
 النصر ، كان الغراب الكالح السحنة في الصحراء ناشراً جناحيه
 الاسودين على عدد من - الكلاب - تنهش في جسد غص كان
 فيما مضى لاعرابية جميلة ترعى الشاء في الصحراء .

نساء في الليل



كنت اذ ذاك أربح من صوري ولوحاتي الفنية التي أرسمها مبلغاً ضئيلاً ، لا يتجاوز العشرة جنيهات في الشهر ، ابعت منها بائنين لامي التي تعيش في الريف واقطن بواحد في غرفة ضيقة فوق سطح إحدى العمارات الكبيرة ، ثم انفق بعد ذلك كل ما تبقى لي في شيئين اثنين ، هما الرغيف الذي اتبلغ به والخمر التي تنسيني فجيعتي في « المرأة » التي أحببتها والتي اختطفها الموت عنوة من بين يدي .

وكما وجدت في الزجاجة بعض التعزية ، وجدتتها كذلك في المسكن الذي طوح بي القدر اليه بعد أن ماتت آمال وخلفتني في هذه الدنيا غريباً ، كما جئت اليها غريباً ، فقد كانت الغرفة التي أسكنها أشبه بالبرج المعلق في السماء .

أطل منه على المدينة النائمة في الليل ، فتلوح لعيني رؤوس
 عماراتها الكبيرة ودورها الصامتة أشبه بالمقابر التي يحتويها
 الفناء ويريم عليها الصمت ، ومن الأشياء الجميلة أيضا التي
 كانت تطربني كثيرا ، ذلك الكشك الحشبي الكبير الذي يقوم
 أمام غرفتي على السطح والذي ضم عددا كبيرا من الدجاجات
 المختلفة ألوانها وأحجامها ، أعدت لطعام احدي الاسر الثرية
 التي تقطن العمارة . هذه الدجاجات كنت أحبها حبا لا حدله .
 وكثيرا ما كنت أقضي معها نهاري أرسمها وأداعبها واعني بها
 عناية فائقة ، وكثيرا أيضا ما فضلتها على نفسي فكنت آتي لها
 بالرغيف الذي اتبلغ به وأغمسه في الماء ، ثم أنثر أمامها
 فتاته ، متناسيا أنني سأجوع طوال اليوم ، وكثيرا أيضا
 ما كنت أحزن حزنا لاحد له اذا نقصت دجاجة أو أكثر ، وأقول
 لنفسي بأي حق نستبيح لانفسنا أن نفجع نفسا في حياتها
 ونذبحها بأيدينا ونأكل لحمها ، واذكر مرة انني قضيت ليلة
 لم أنم ولم يغمض لي فيها جفن ، لانني عدت في المساء فوجدت
 الدجاجة البيضاء الكبيرة ذات الطوق الذهبي التي أحببتها ،
 وجلست أمامها زمنا أرسمها ، غير موجودة ورأيت مكانها نقطا
 من الدم ، فعرفت بأنها ذبحت ، وبأنها فجعت في نفسها
 وتصادف انني في اليوم الثاني غادرت غرفتي وذهبت الى السوق
 أشتري رغيفا وزجاجة من النبيذ ، ولما عدت مع الظهر ضعفت
 معي في المصعد فتاة فارعة الجسد ، عليها مسحة من جمال
 قديم ، ما زالت آثاره تغالب السنين وتتشبث بالشفاه والعينين
 وكانت تحمل على يدها صينية كبيرة خرجت لساعتها من التنور
 تنام في قلبها دجاجة سمينة موثوقة الجناحين والفخذين .
 وقد سوتها النار وانضجت لحمها فامتقع لوني لرؤيتها لانني
 عرفت فيها دجاجتي البيضاء الحبيبة ولذلك رحت أنظر اليها
 وأتأملها وكأن عيني تعلقت بها ولاحظت على الخادم ذلك وكأنها
 أشفقت على عيني المعلقتين ووجهي الممتقع فقالت مترفقة
 بصوت وقور . .

— ألسنت أنت الذي يقطن على السطح ؟
 فقلت وكنت قد رأيته مرارا تصعد اليه لتسقي الدجاجات
 وتطعمها

نعم .
فقلت وهي تنظر الى ثيابي الرثة ولحيتي الكثة المغبرة
ووجهي الذي غام خلف الشعر الذي لم تعمل فيه الموسيقى من
شهور

— ولكن ألا تشفق على نفسك من البرد في هذه الغرفة العارية
وهذا الشتاء القارس ؟

وهممت بأن أقول لها شيئاً ولكن المصعد كان قد وقف بنا
فانصرفت وانصرفت أنا كذلك . غير انني بعد حين وقد بدأت
الزجاجة العزيزة تهدهد نفسي وتروح عنها ، أحسست يدا
تفتح باب الغرفة وكانت يد الخادم الوقور التي جاءت تقدم
الى طبقاً به حفنة من أرز تعلوها قطعة من لحم الدجاجة التي
رأيتها في الصينية ، فتأملت لان هذه الفتاة الطيبة ظننت غير
الحقيقة وأنا انظر الى الدجاجة في المصعد ولكني لم أشأ أن
أفجعها في خلقها هذا الطيب وكرمها هذا الذي تشكر عليه .
ولا سيما انها قالت لي في حياء وخجل : ان هذا كأمر سيدتها
فتناولت منها الطبق شاكرها لهذا الفضل .

وبعد أن انصرفت ألقيت بحفنة الارز الى الدجاجات التي
فرحت كثيراً وهي تلتهمها التهاماً ، أما قطعة اللحم فهممت
بأن أكلها بيد انني تذكرت بأنها من لحم الدجاجة البيضاء
التي كنت أحبها فألقيت بها جانبا .

ومن هذا اليوم توطدت علاقتي بهذه الخادم الطيبة التي
أحببني وعطفت علي وراحت تعني بشئوني وتنظف لي ثيابي
كلما رثت وعلاها البلى ، وكثيراً ما كانت فاطمة تسرق نفسها
وتصعد الى لتجلس معي تحدثني عن نفسها وعن حياتها
الثقيلة المملة التي تسير على وتيرة واحدة ، كل ذلك وأنا
أنشغل عنها حيناً بحياتي التي تشبه حياتها ، وحيناً بزجاجتي
التي أحبها ، ومكثنا كذلك الى أن حدث ذات مرة وكان النهار
قد أوشك على الرواح ، وكنت أحب رواحه جداً لأمتع نفسي
بمنظر الشمس الغاربة ، فوقفت على السور اشترك في توديع
يوم من أيام العمر ، وأنظر الى شمسى أنا الآخر وأكفنها
بالدموع التي تدرفها عيناى على آمال التي ماتت ، وخلفتني

مشردا فى هذه الدنيا أعيش بغير مأمل ، وبيننا أنا كذلك اذا
بى أسمع من خلفى حفيف ثوب يتماوج ووقع اقدام تسعى
على مهل كأنها النسيم يتهادى ، فالتفت واذا بى فجأة أقف
مذهولا مبهور الانفاس ، ففسد رأيت أمامى آمال .. آمال
يعينها آمال بقوامها الفارع الفاره المياد وشعرها الكستنائى
اللامع الذى تهدل على الكتفين وانساب على الصدر الذى لاح
لعينى غديرا عاريا من فرجة الروب الحريرى الذى ترتديه
ورأيت معه الوجه الفاتن المتألق الذى حرمت من طلعتة تسع
سنوات كاملة والهدب الطويل الساجى الذى كان يهدد
بلفتاته قلبى كلما قست عليه الايام وبرحت المحن ، ورأيت
كل ذلك فجأة وعلى غير انتظار فهممت بأن أصرخ وأهتف من
قرحتى وأقول آمال .. بيد أن فاطمة كانت تقف خلفها فقالت
على الفور بصوتها المترفق الوقور :

— سيدتى آمال هانم جاءت بعد أن حدثتها عنك لترى
صورك وتطلع على لوحاتك .

... يا الهى حتى الاسم هو الآخر نفس الاسم ؟
وتقدمت منها مذهولا جاحظ الغين ، وصافحتها بيد مولهه
الانامل . ، وكأن نظراتى التى تكالبت على وجهها وعينيها
أدهشتها حتى لكانها تقول لى بعينيها :
— لم تنظر الى هكذا ؟

فخجلت وكدت أتعثر فى خطواتى وأسقط على الارض وانا
أدفع بيدي المرتعشة باب الغرفة لأريها لوحاتى التى جاءت
لتطلع عليها بيد أن الذى هدأ من روعى أننى رأيتها راضية
مبتهجة تنطلق أساريها لكل لوحة أشرحها لها وكل صورة
من صوري الرائعة التى رسمتها بقلبي قبل أن تموت آماله .
ولما اطمأنت الى والى مكانها منى وجلست على المقعد المتأكل
الذى قدمته اليها ، رنت الى السرير الحديدى الذى علاه
الصدأ وانتشرت عليه بطانية سوداء متأكلة فغدا فيها كنعش
الفقراء المحمول على أعناق بعض السابلة فى طريق مقفر ، ثم
نظرت الى فاطمة نظرة طويلة ، فهمت منها ماتعنى ، فقلت
والخجل يخنق صوتى ويحطم نظراتى ويلقى بها أشلاء على

«الارض قبل أن تبلغ أذنيها :

— هذا هو بيت الفن •

فقلت مجاملة وهي تنظر الى :

— وهذا أنت تربه العظيم •

فشكرت لها هذا الثناء • ثم رحت أشرح لها من جديد ما ترمز اليه بعض لوحاتي شرحا مستفيضا ، وكأني أشرح لها فرحتي برؤيتها ، ثم لما انتهيت من الشرح وأطلعته على جميع رسوماتي الفنية نهضت وقدمت الى يدها شاكرة ، بيد أنها رأت مصادفة في مكان قصي صورة كبيرة في اطار لم أشأ أن يراها أحد فلففتها في غطاء من الدبلان علاله البلي ولوثته بعض الالوان وكانت صورة آمال التي ماتت فأسدلت عليها هذا الغطاء ولم ترها عيني منذ سنوات فطلبت مني أن تراها فاضطربت أنفاسي وخجلت أن أرد لها طلبا ، فذهبت الى الصورة متخاذلا ورفعت عنها ذلك الغطاء القديم واذا بآمال أمامي يشع النور من عينيها كأنها لم تمت ، وكان البلي لم يعلو ذلك الجسد العاري في الصورة الذي يتألق بهاء وصفاء والذي انسدت عليه غلاثل الشعر الفاحم فكادت تغرقه في بحر من الظلام لولا شعاع من نور انبثق من العينين فعربد بالظلام وكشف عن بعض مواطن الفتنه في الجسد الجميل ونظرت الزائرة العزيزة الى الصورة مشدوهة وكأنها ترى نفسها فيها ولما تأملتها طويلا ووقفت على خطوطها ومعالمها نظرت الى فاذا بي مخضل الطرف ابكي بكاء مكتوما ، فحولت عينيها ثانية وكأنها فهمت كل شيء ، وسر دهشتي عند رؤيتها وأرادت أن تحترم أحزاني فذهبت من نفسها الى الصورة وأسدت عليها الغطاء وأعادتھا الى مكانها ، ثم جلست حينئذ صامتة • ولما هدأت تأثرتي تحدثت معي طويلا وحادثتها أنا أيضا طويلا وقصصت عليها قصتي الحزينة حتى بكيت هي الاخرى وبكت معها فاطمة ثم انصرفت بعد أن وعدتني وعدا صادقا بتكرار الزيارة •

ولست أدري لماذا طربت لهذا الوعد وفرحت به فرحا كبيرا بوقضييت ليلى مبتهجا حتى أنني من فرحتي وابتهاجي نسيت نفسي ونسيت معها زجاجتي العزيزة فلم أقربها ولم أتناول

منها شيئا . وفى الصباح برت بوعدھا ، وأقبلت على السطح
تسعى رويدا كأنها النور ، وكانت مرتدية نفس الروبي الستان
اللامع الذى رأيتها فيه بالامس والذى تألق جسدها فيه
وانساب فى رعونة وطيش وراح يعبث باقفال الثوب ويتدفق
نورا من صدره المشقوق وكنت لحظتها أجلس الى جدار الغرفة
أقضم من كسرة جافة بقيت من عشائى وأتھيا لرسم الشمس
وهى تتسلل رويدا الى حظيرة الدجاجات ، فلم أحفل بتحياتها
لاننى أخذت بطلعتها وقلت مبهورا :

ـ لو أن يد فنان نقلت هذا الجمال على الورق ، لتقديم الفين
نفسه قربانا اليه .

فاستلقت ضاحكة تخلص بأناملها الحلوة خصلة شعر رفت
كالاقحوانة على الجبين ، ولم تعلم غير السماء الفرحية التى
غمرتني والنشوة التى نعم بها فؤادى عند ما قيلت أن أرسمها
.. يا الهى الى هذا الحد يسمو الجمال بالفنان ، ويخلقه خلقا
جديدا ، ويعيده الى دنياه ويرد اليه الهامه وفنه ؟ لقد كنت
فى تلك اللحظة أحس احساسا صادقا بأننى غير الانسان
الذى أعرف وغير المخلوق الهش الذى كان يعيش كذبالة
تتناهبها ريح عاتية ، فلا هى تنطفئ ولا الريح تشفق على
أنفاسها المحترقة ، كنت أحدث نفسى بذلك وآمال الجديدة
تجلس أمامى جلستها فى الوضع الذى اختاره لها جمالها..
وأرغمتنى عليه فتنتها .

ولما انتهت الجلسة الاولى صافحتنى وانصرفت ، فانصرف
معها قلبى يودع الذيل الطاهر والجمال العف ، ثم انصرفت
من فرحتى أسير فى الطرقات كطفل يلهو واجوب الاماكن
العامة وغير العامة واقول لنفسى المغتبطة :

لئن كان القدر قد بعث الى بآمال جديدة . فقد بعث الفين
أيضا برفائيل جديد .. وذهبت من فرحتى الى بيت الليل ،
وهو حانة صغيرة فى شارع غير معروف كنت أتردد عليها دائما
فوجدت جماعة من الزملاء والاصدقاء السكازى قد غرقت نفوسهم
فى بحر من الخمر يشربون لفائف التبغ التى تحترق بين أناملهم
رويدا كما تحترق أجسامهم المخمورة رويدا كذلك وقد تصاعد
دخانها فكون غمامة سوداء معتمة فوق رؤوسهم وكلما تبددت

أولاً عربدت، بها نسمة عابرة • عاد الدخان المحترق وتصاعد إليها
وكونها من جديد كأنها دنياهم السوداء جاثمة على صدورهم ،
فمكثت معهم حيناً من فرحتي أضحك وأمرح على غير العادة دون
أن أشاركهم في الشراب لأن نفسي كما قدمت عافت الحمر
وحرمتها تحريماً منذ اللحظة التي عادت فيها آمالي وكيف أشرب
الخمر • ؟ اننى كنت أشربها لأنسى أما الآن فأصبح لا يحزننى
سوى اللحظات التي أنامها لأن النوم سيحول ولو الى حين بينى
وبين هنائى بينى وبين فرحتى ، بينى وبين فتى العزيز الذى
رجعت اليه وكأنتنى من الشوق أكاد التهمة التهاما •

اننى منذ أن ماتت آمال لم تعمل يدي في صورة واحدة
رائعة • سوى صورة الدجاجة البيضاء التي ذبحت وذهبت
أيضاً وكنت أغشى من صوري القديمة أما الآن وقد رجعت الى
دنياى •• رجعت الى سعادتي أريد أن أرسم كل شيء •• وأصور
حتى سعادتي وهنائى •• ترى لو ترسم الفرحة •• ؟ ترى لو
تصور السعادة ؟ اذن لكنت اول من صور النشوة وهي
تساقط من السماء وتنسكب هناء على قلبي •• ولهذا فرحت
جدا عندما كنت أقطع الطريق في الليل الى غرفتي وكان مقفرا
والمطر ينهمر والريح تدوى قرأيت شبحاً يترنح في الطريق
ويتمائل مع ظلام المصابيح المرتعشة التي تعصف بها الريح
ويلطمها المطر المتهافت على الارض فاقتربت منه واذا به «كوثر»
ولكم كانت فرحتي وأنا أهتف بها أين أنت فلم تزد على أنها
فتحت عينيها ونظرت الى • ثم تبعتنى دون ان تقول شيئاً
لأنها لم تقل شيئاً لحد ولم ترد نظرة لانسان منذ أن أعوذتها
اللحمة فقدمت جسدها الجميل لطلبة مدرسة الفنون يرسمونه
ويصورون. أوضاع الفتنة فيه وكانت مقرورة ترتعش، وكانت
أيضاً جائعة فلما بلغنا الغرفة أعطيتها رغيفاً وزجاجة النبيذ
التي ظلت بعد أن عافتها نفسي ثم قمت الى اطار قديم كان عندي
وحطمته وأشعلته اليها ولما شعر جسدها المرهق بالدفء
استلقت في استرخاء ونامت نوما عميقا • وكم شاقني منظرها
في الصباح وكانت لا تزال نائمة عندما تسلمت اليها الشمس
من فرجة النافذة وعانقت جسدها بلثم ملائكي وكأنها تكفكت
أوجاعه وفي الضحى أقبلت آمال هانم فأحسست بقلبي العاشق

يسبقني لاستقبالها . وكم سرني أنها حيتني في حرارة.
وصافحتني في شوق كأننا متعارفان من زمن بعيد . ومكنت
حيناً بجواري بجانب السور تستمتع بدفء الشمس العارية-
في الأفق وتتحدث الى وأنا صامتة لا أنبت ببنت شفه ، فقد
كنت أخشى ان تحدثت أن أحرم آذاني من اللحن الملائكي الذي
ينسكب فيها انغاما ومكثنا كذلك الى ان خرجت علينا
كوثر من الغرفة وأقبلت علينا ذليلة صامتة كالكلب الاليف .
ولما لم نعرها اهتماما انصرفت صامتة أيضا بعد أن أفهمتها بأن
تجىء ثانية . .

وبعد ان انصرفت سألتني عليها آمال هانم ولما قلت لها من هي
تورد وجهها خجلا و اندهشت كيف تقف امرأة عارية أمام رجل
ليرسمها . . ثم جاءت فاطمة وانتقلنا ثلاثتنا الى الغرفة
واستأنفت آمال أمامي جلستها الثانية ووقفت أنا أمامها أرسم
دنياى الجديدة وأصور حياتي خطوطا وألوانا
وتكررت هذه الجلسات التي كانت تبلغ الساعات أحيانا ،
ومكنت أياما لا أغادر غرفتي ولا أهبط الى الطريق وكانت
حاجاتي تقضى بسهولة . . مرة تقضيها فاطمة التي كانت تتكرم
على بقضائها . . ومرة كوثر الذي اتخذت من غرفتي مأوى لها
كلما لفظها باب او أحوجتها اللقمة .

ومكنت كذلك الى أن انتهت الصورة المقدسة ولن أنسى ما
حييت الليلة التي أتممتها فيها والتي احتفلنا فيها ثلاثتنا أنا
وآمال هانم وفاطمة بهذا العمل الخالد الذي طربت له آمال
وفرحت به وأزالت بسببه الكلفة بيني وبينها في تلك الليلة .
فقربتني منها وأولتني الكثير من عطفها وأغدقت على ما تملك من
حنان وعطف ثم تركتني بعد أن ودعتني ضاحكة وضغطت على
يدي مبتسمة . وظلت فاطمة قليلا تحدثني عن سيدتها وكيف
أنها تعيش في سماء أخرى لا تهبط أبدا الى دنيا الناس ولا تسمح
أبدا لأنسان لان يراها أو يحادثها بأن يجلس اليها ويرسمها .
ثم ضاحكتني هي الاخرى طويلا وعابشتني على غير العادة
وانصرفت . ومكنت أنا وحدي مع الصورة المقدسة أتأملها
على ضوء المصباح الخافت بعين فنان . فراعني منها فني الذي

تقدم وأخذتني أفكارى التى سمت وبهرنى الطهر الذى كان يتألق فى كل خط من خطوطها وينسكب نورا على كل زاوية من زواياها ولا سيما الذى انسكب من العينين على الجسد فأحاله الى اشراق ونور جديد لم تره عينى منذ سنوات . لذلك مدت يدي ودون أن أدري كتبت بجليها بأحرف بيضاء ناصعة الاسم الذى اختاره لها قلبى « النور العائد » ومكثت كذلك أتأملها الى أن نضب زيد المصباح فانطفأ فأخذت الصورة وغادرت الغرفة ورحلت أحلق بها فى السماء وأجوبها على جناحي طائر أبيض جميل يسمونه السعادة . حتى غلبنى النوم فاستلقيت بجوارها على السرير أنام لاستيقظ وأستيقظ لأنام بيد انى وقبل أن أستغرق فى النوم أحسست باب الغرفة يفتح على مهل وتدلف منه فى الظلام الدامس كوثر صامته كعادتها ولا أدري كيف جاءت ولا من أين أقبلت مع أنى كنت لم أرها منذ أيام . وانما الذى أدريه انها أقبلت على غير مألوف عاداتها خفيفة رشيقة تفوح منها فى الليل رائحة عطر جميل أخذ عبق فى أرجاء الغرفة ثم أقبلت صامته واستلقت بجوارى على السرير بعد أن نضت عنها ثيابها . وعلى غير مألوف عاداتها ايضا لاذت بصدري خائفة مضطربة حتى أطارت النوم من عينى . ومكثت كذلك الى وقت متأخر من الليل ثم ارتدت ثيابها لاهثة وهمت بأن تنصرف فسألتها الى أين فلم تجب فدسست فى يدها خمسة قروش وتصادف أنها كانت كل ما أملك لتعود الى فى الصباح برغيفين وقطعة من الجبن فأخذتها وانصرفت صامته كما أقبلت صامته يشيعها الظلام الذى ظل ينتظرها حتى توارت وما أن خرجت حتى رحت أسبح فى نوم عميق .

وفى الصباح لم تعد كوثر كما قلت لها . وشعرت بأننى جائع وأننى فى حاجة اليها أو بمعنى آخر فى حاجة الى الخمسة قروش لاشتري بها شيئا اتبلغ به ، فهبطت الى الطريق ورحلت أبحث عنها فى كل مكان ، ولما لم أجدها ذهبت الى بيت الليل لعلنى أجدها هناك ، فوجدت جماعة من الزملاء يتجرعون الخمر . ولما سألت عن كوثر لم يجبنى أحد بيد ان واحدا قال وهو يهين وجهه للامتعضاض والتأفف ليحتسى كأسبا من الكونياك الرخيص .

— كوثر فى السجن من ثلاثة أيام يا استاذ .

فلم أصدق طبعا وقلت على الفور *

— انها كانت معي ليلة البارحة

فقال مازحا وهو يهني وجهه مرة ثانية لكأس أخرى

— يجوز صورتها * أما هي فيسأل عنها الاستاذ فتروح الذي

قدم اليوم معارضة في أمر حبسها ورفضت *

وقبل أن يتم سمعت صوتا ينبعث من بعيد ورأيت حوذا

مسنا يجلس بعيدا يلف لفافة من علبة صدئة دفنها أمامه بين

الكأس وزجاجة النبيذ وحفنة من الترمس *

يقولون بأنها سرقت « بطانية » من رجل كانت تبني عنده

وخرجت مذهولا أفكر ، فشيعتني امرأة من نساء الحانة

بكأس شربتها ، وببقايا لفافة أشعلتها وضحكة جوفاء ماتت على

شفتيها الملطختين وهي تقول :

— ما تزعلش * السجن أحسن من الشوارع يا أستاذ لمعي

ولست أدري لماذا وأنا في الطريق تذكرت فاطمة وقفزت الى

ذهني صورتها وشعرت نحوها فجأة بشيء كثير من الاحتقار

والكراهية والمقت * ولما بلغت الدار صعدت الى غرفتي مباشرة

وأقبلت عليها مفكرا محزونا وما أن أدركت المفتاح الصغير في

رتاج الباب حتى رأيت فجأة آمال هانم في أعقابى تدلف اليها

معي ، وكانت تعلو وجهها سحابة شاحبة ويكتنف جسدها

الفتى شيء من الاجهاد والاعياء كأنه خارج لساعته من ليل

طويل مضني ووقفت قلقة تتحسس بعينيها أرجاء الغرفة ثم

فجأة قفزت فرحة الى مكان معين من السرير وجلست عليه ثم

غافلتني ودست شيئا في يدها استطعت ان ألمحه من بعيد

وأعرف بأنه سوار من الذهب كان قد سقط من يدها في

الظلام *

شيء واحد بعد أن انصرفت هو الذي حول عيني عن الصورة

التي تبدلت خطوطها فجأة وغامت معالمها وانقلبت عيونها التي

كانت تشع نورا وطهرا الى ظلام دامس اكتنفها وأغرق الجسد

كله في بحر من السواد .. تلك هي الزجاجاة الفارغة التي

كانت بجوارها والتي تناولتها في رفق وضممتها الى صدري في

حنان ولما تسلفت بها خفية ورحلت اهبط الدرج على مهل قابلتني

فاطمة وقالت ذاهلة وهي تنظر الى يدي القايسة عليها

— الى أين .. ؟

فلم أجب فأنا نفسي لم أكن أعرف الى أين ! ..

آثار على الشفاء



قال خالي لامي بعد أن شيعنا جثة أبي وعدنا الى البيت :
— ان عليك أن تخلي البيت ياآمنة ليقتنه الخولي الجديد
فامتقع وجه أُمي وقالت وهي تمسح بعض الدموع التي
تجمعت على شفتيها المقرورتين :
— أهكذا سريعا . . . يا عبد العزيز
— انه بيت الخولي ياآمنة ، ولعلك علمت أن خوليا جديدا
قتل عيني اليوم خلفا للمرحوم .
فقال أُمي وهي تنظر الى الارض ، وكأنها تبحث عن شيء
عند قدميها :
— أعرف ، ولكن أين سأقيم ؟
فصمت خالي لحظات ثم قال وكأنه ينتزع الكلمات من
بيني شفتيه :
— عندي ياآمنة .
— عنديك ؟

- أجل ، أليس بيتى هو بيتك .

فنكست أمى رأسها وتمتمت بصوت مرتعش حزين :

- وهل تقبل زوجك يا عبد العزيز ؟

ولم أسمع بقية الحديث ، لان الدموع كانت قد غمرت عيني ، فتركتهما وانصرفت الى غرفتي التي أنام فيها ، وأشعلت المصباح الزجاجي المعلق على الحائط ، ثم جلست على (الكرويته) أمام السرير أتطلع الى المصباح وأتأمل ذبالبته الخافتة وهى تلفظ فى صمت انفاسها المحترقة التى تحيلها النار الى دخان اسود ، تنطبع طبقاته على الحائط الجبرى المتآكل ، كما تنطبع تماما أنفاسى الملهبة على شفتى فتحرقها وظلمت كذلك أفكر حيناً فى المصيبة التى حلت بنا فجأة .. فشردتنا بعد أن كان لنا أب ، وكانت لنا أسرة ، وكان لنا بيت نقطن فيه .

فكرت فى هذا ، ومددت أصابعى الى عيني وجففت دموعى المنسابة ، ومن ثم رحت أنظر ثانية الى المصباح وزجاجته التى تتصاعد منها النار فينطبع دخاناً على الحائط والى ذبالبته التى تلفظ أنفاسها المصفرة الشاحبة ، فتتراقص صفرتها على صورة قديمة فى اطار بال ، تأكلت أطرافه ولو ثبته أسراب الذباب وخيوط العناكب التى عششت عليه والتفت به ونظرت الى الصورة فرأيت رسم أمى وانا بجوارها أيام الطفولة الجميلة فى حلة من القטיפه الحمراء ، تزينها خطوط كثيرة من الترتير الاصفر والاشرطة الحمراء والخضراء ، ثم الطربوش الاحمر القانى الذى زانته هو الآخر الاشرطة العديدة الرفيعة التى قامت مقام الزر ، يداعبها الهواء فتميل ذات اليمين وذات الشمال .. ويقابل الزر الورقى من الامام حلقة من الخرز الملون على هيئة هلال تدلى على جبينى ، وهذا هو لباس «الختان» الذى أبت أمى الا ان تصنعه لى لازف به على حمار يدور بى حول القرية سبع مرات يوم ختاني .. نظرت الى هذا ، ثم نظرت الى أمى وهى بجوارى فى الصورة وكانت اذ ذاك فى العشرين من عمرها كما حدثتني بذلك وكانت أيضاً أجمل نساء القرية كما حدثتني جمالها وشبابها ووجهها الذى يتألق بهاء وفتنة خلف الخمار الذى تحجبه به كعادة أهل

قريتنا • فجعل الخمار من وجهها الجميل قمرا يتألق نورا
خلف الغمام •

نظرت الى هذا وتحسرت ، على هذه الشجرة التى وأدها
الظما فجأة ، وهذا العود الذى لن يورق ، والزهرة التى لن
تعبق ، وأحسست بالدموع تعود الى عيني من جديد فتغمرهما
بحيث تطمس المرئيات جميعا وتحيلها الى خيالات تتراقص أمام
عيني • جثة أبى مسجاة على «طبلية» خشب كبيرة ويصب عليها
الماء ••• ثوب أبيض تلف فيه الجثة ••• فجوة كبيرة فى قبر
مهجور ••• كومة من التراب تنهال ••• امرأة تلطم خديها
امرأة تشق ثوبها ••• وجه المرأة يغبر ويكتئب حتى يغدو
كقطعة من الفحم ••• ثم يمتقع ويصفر حتى يصير كالرقعه
الصفراء •• بيت سنتركه ••• غرف عزيزة علينا ستهجرها
صورة فى اطار بال ••• طفل صغير ••• أم شابة •••
رغيف ••• فلوس ••• جوع ••• القاهرة •• تجهيزية دار
العلوم ••• دموع تنساب ••• أرض تدور بى ••• رأس
يكاد يتحطم ••• ثم شئ ثقيل يسقط على الارض فلم أفطن
اليه الا بعد حين عندما فتحت أمى الباب ومدت يدها الرحيمة
وأنهضتني ••

ومرت بعد ذلك أيام ، حدث خلالها ما كان لابد له أن يحدث
انتقلت أمى الى دار خالى ، وعاشت هناك تستجدى اللقمة
وتنتظرها من المرأة التى تبغضها وتحقد عليها وتزيها صنوف
المذلة والهوان ألوانا • وذهبت أنا الى القاهرة أهيم على وجهى
فى الطرقات طوال النهار وأغلب الليل •• أقطع الأزقة
وأجوس خلال الحارات لعل أظفر بغرفة متواضعة تكون بأجر
قليل يمكننى سداده •

كان كل الذى فى جيبى ثلاثة جنيهات بعضها تصدق على
به خالى من وراء زوجته وبعضها كان ثمن الخلخال الذى باعته
أمى ، والبعض الآخر كنت أملكه من قبل •

وثلاثة جنيهات مبلغ كبير من غير شك، ولكن أليست الايام
أكبر منه ؟ وهل خالى سنيصدق على بشئ مرة أخرى ؟ وهل
ستجد أمى خلخالا آخر تبيعه ؟ وأصحاب الغرف التى تستأجر

ففي القاهرة ليقطنها أمثالي ، هل سيرأفون بي ويشفقون علي
 اذا ما تأخرت شهرا عن تسديد الايجار لضيق ذات اليد ؟
 هذا ما كان يشغلني كثيرا ، أما الطعام والملبس ، فقد يسر الله
 لي أمرهما . اذ صنعت لي أمي «قفة» كبيرة جدا ملأتهما
 «بالمرحرح» وهو خبز من الحلبة والشعير ، علمنا الفقر في
 الريف كيف نصنعه بطريقة تجعله يعمر طويلا دون أن يلحق
 به عطب أو يتغير مذاقه ، وهو عدا ذلك يمتاز بأنه رقيق جدا
 بحيث تتسع القفة الواحدة لأكثر من ألفي رغيف . . . كما
 زودتني أمي - لها الله - بقدرين كبيرتين امتلأت احدهما
 «بالمش الخالص» وامتلأت الثانية بخليط من مخلل الفلفل
 والباذنجان، وقشر البرتقال . . وهذه (الزوادة) كانت تكفيني
 لمدة شهور يقضى الله بعدها أمرا كان مفعولا . ومثل ذلك
 ملابسي ، فقد كانت ميسرة هي الأخرى ، فالكاكولة الكشمير
 التي كان قد ابتاعها لي أبي رحمه الله منذ عامين مازالت جديدة
 ولا يهمني بعد ذلك ما ارتديه تحتها من ثياب ممزقة رتقتها
 لي أمي . .

ووفقت أخيرا الى غرفة متواضعة في بيت قديم تملكه
 الست «لواظ عبد السلام الدارملي» الشهيرة بالست « أم
 صابر » في زقاق الجنائنية المتفرع من حارة السطوحى في
 حوش الشرقاوى بباب الخلق .

ولكى تبلغ هذا البيت يتحتم عليك أن تصعد عشر درجات
 من الحجر القديم المتآكل تغمرها المياه القذرة صيفا وشتاء
 وتعرف «بسلام السبيل» ثم تنحدر منها يمينا الى حارة
 السطوحى وتصير وسط الابنية المتلاحقة بشرفاتها المصنوعة
 من خشب البغدادلى على الطراز العربى القديم المعسوف
 بالمشرفيات ، وامام كل شرفة صف من القلل القناوى ذات
 الاغطية النحاسية اللامعة .

ثم تنقلب يمينا ايضا بعد أن تقطع الحارة الى زقاق الجنائنية
 وهو زقاق ثعبانى ضيق به عدة منعطفات ونتوءات بارزة
 وأقبية مهجورة . بحيث لو أبصرت المارين به وقت الغدو
 أو الرواح لظننتهم جماعات من المتدينين يطوفون حول بعض

الاضرحة والمعابد وتظل تسير وتسير في زقاق الجنائنية الذي يمتاز بطول غريب جدا الى أن تبلغ «السرجة» وهي المعروفة في الحى بسرجة العجرائي ، وتغمر انفك رائحة الزيت والكسب والبذور المتعفنة فتسترد أنفاسك ، لانك تكون قد بلغت بيت الست «لواظ عبد السلام الدراملى» الذي يقع بجانب السرجة تماما ، والذي انتصب بابه الفولاذى الضخم أمام السرجة وبعض الاقبية أشبه بتمثال حجرى قام بين الاطلال من عدة قرون .

كان الباب من السمك والضحامة بحيث لايمكن زحزحته أو تحريكه ، تزين جوانبه بعض نقوش نحاسية قديمة تأكل بعضها وبقي البعض الآخر يغالب الزمن ، ويتوسطه باب آخر صغير ذو «سقاطة» حديدية ضخمة ، ما أن ترفعها بيديك حتى تسمع صوتا مزعجا فى الداخل أشبه بأصوات الاواني النحاسية عندما تسقط على الارض ، وهذا هو صوت السلسلة الثقيلة المعلقة فى طرف «السقاطة» من الداخل . . . ثم ينفتح انبأب فتتحنى وتقوس ظهرك لتدلف منه ، فيطالعك دهليز فسيح ولكنه رطب مظلم لاتستطيع من الظلام أن تتبين بسهولة محتوياته أو تبصر غير مايشبه الاشباح تطالعك فى الظلام منتصبه على جوانبه ، فاذا ما تبينتها جليا عرفت انها أبواب الغرف الثلاث التى يتكون منها البيت .

كانت الغرفة الاولى تقع عن يسار الداخل مباشرة ، وكان يقطنها الاستاذ حسبو ، وهو كهل فى الستين من عمره ، وان كان يصر على انه مازال فى عقده الرابع . وكان منظره يبعث على الغرابة بحيث تقف عيناك عليه بمجرد أن تراه ، فهو يرتدى بذلة لايعرف لها لون اذ كلما تأكل جانب منها رتقه بلون جديد وهو يرتدى دائما ياقة منشاة من الطراز القديم ذات فتحات أفقية بارزة ورباط رقبة تأكلت أطرافه حتى كادت تبلغ عقدة العنق ، وصديرى من الحرير «اللاج» زى أصحاب اليسار فى الزمن القديم ، وقد بلى هذا الصديرى حتى لم يبق منه سوى أزراره الستة الصدفية الغالية التى ترمز الى مجد دارس ، ويضع على عينيه منظارا صديء نحاسه

«وتشقق زجاجة الابيض وتلوث بحيث يدهشك أمره . . .
 وكيف يستطيع أن يرى من خلفه . ثم هو يحمل في يده
 دائما حقيبة جلد كبيرة ، ومظلة تكاد تكون معطلة ، ومندبة
 ذات يد صدفية ثمينة ومسبحة من خشب الصندل كبيرة
 الحبات ويحمل كل هذا في يديه دائما وهو برغم نخاقتة
 وضموره وشحوب لونه الدائم يتمتع بحيوية غريبة ، ونفس
 صافية مستبشرة ، يضحك دائما ولا يعبت ابدا ويرسل
 الفكاهة تلو الاخرى حتى يجعلك تستلقى من الضحك ، ولا
 يبالي اذا وافته النكته ان يلقي بها حتى ولو كان في حضرة
 النساء مهما كان مرماها ، وكان الاستاذ حسبو يشغل
 وظيفة (عرضحالي) الحي . ويعتبر نفسه من أشهر رجال
 القانون ، وقد علق على باب غرفته لافتة كتب عليها بخط كبير
 «الاستاذ حسبو القط خير بشئون المحاكم الاهلية والشرعية
 والحسبية ، وجميع القوانين على اختلاف أنواعها ، ووكيل
 محام سابقا) وقد اتخذ له مكتبا على رأس الزقاق عند حارة
 السطوح حيث يجلس في الطريق بجانب الحائط الى ترابيزة
 خشب قد لوثها الحبر ، وعليها مخبرة نحاسية مستطيلة
 يضع في قلبها عدة أقلام من البسط وبعض بقايا من أقلام
 الرصاص وفي طرفها فجوة بداخلها قطعة من القماش صمقه
 انغمست في الحبر الاحمر الذي يميل الى السواد ، وبجانبيها
 بعض العرائض البيضاء وهو يعتز جدا بهذه المحبرة ، ويصر
 على أنها المحبرة التي كان نابليون يوقع منها أوامره اليومية
 الى جيشه أيام احتلاله القاهرة المعز ، ثم آلت من بعده الى قائده
 العظيم كليبر ، ثم اغتصبها بعض الفرنجة الذين استوطنوا
 مصر بعد جلاء الفرنسيين ، ثم انتهت في النهاية الى جده
 الثاني . أي جد الاستاذ حسبو الذي كان يشغل وظيفة
 مهمندار السلطنة العثمانية ، وظلت في حوزته الى أن ورثها
 هو . . . وكان يجلس الى مكتبه هذا طوال اليوم ومن حوله
 بعض النسوة يستشرنه في شئونهن وحل مشاكلهن ، وهو
 يصرف لهن الامور بدرايته الواسعة في حل المشاكل العائلية
 أو تعقيدها حسب مافيه صالح موكلته من حيث الطلاق والنفقة

وكان للاستاذ حسبو وظيفة أخرى أهم بكثير من هذا كله وهي كتابة
خطابات الغرام للعشاق والمحبين، وقد برع في هذا براعة فائقة حتى
اشتهر بين أهل الهوى من سكان الحى بأن خطابا واحدا
يدبجه يراع الاستاذ حسبو في العشق والهيام، يلين الحجر
ويذيب الحديد، ويجعل الحبيب القاسى يخر راكعا عند قدمي
المحب من أول سطر... ولذلك فهو كل ليلة وفي وقت معين
بعد صلاة العشاء، لابد أن يكون في غرفته حيث توافيه بعض
بنات الحى، أو بعض شبانه، هذا يكتب للمحبوب يستجدي
اللقاء ويرجو الوفاء ولو مرة عند سلاّم السبيل... وتلك
تصف لزوجها الغائب كيف أضناها الشوق، وقتلها الجوى
وطال بها البعاد. وهذه الحبيبة تصف للمحبوب كيف كانت
الاشواق ولذة العناق وفرحة القلب عنديما وافاها الحبيب في
الظلام عند السرجة، وكان الاستاذ حسبو يعتز ببراعته هذه
ولا يسمح لاحد أن يعارضه فيها أو يقلل من شأنها بأن يغير
لفظا أو يسأل عن معنى، وقد مرت به يوما وكان
لا يزال جالسا الى مكتبه على ناصية الحارة، فاستمهلنى حتى
يذهب معى الى البيت، وكان يقرأ خطابا غراميا على خدام
جميلة كلفته بكتابته لمن تحب، وراح الاستاذ حسبو يقرأ
والفتاة تنصت اليه، وهو يقول بصوت مسموع: « أبعث
اليك مع الليل سلامى... وابشك مع الفجر هيامى... وارسل
اليك مع الضباح كتاب غرامى... كتبتة وانا على الجمر اتقلب
وفى نار الغرام اتعذب... وفى بحر الشوق غارقة... والى
طلعتك البهية وامقة... »

وهنا استوقفته الفتاة وسألته قائلة:

— وامقه يعنى ايه ياأستاذ؟

فتار الاستاذ حسبو لهذه المقاطعة وغضب، وكاد يمزق
الخطاب، لولا ان الفتاة استرضته وقدمت له القروش الخمسة
التي هي ثمن الخطاب الغرامى الذى يكتبه، وعندها هدأت
ثأثرته وعلت ثغره ابتسامة عريضة وهو يتناول الخمسة
قروش من يدها ويخرج لها الخطاب ثانية كما أخرج معه

كتاباً قديماً أصفر الصفحات كتب على غلافه السميكة « ذو حة
 الاشواق في رسائل العشاق » . مؤلفه أمير المحبين . وحبير
 العاشقين . واه المغرمين ، سيدنا عبد الله بن القيروان .
 الشيرازى . طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه ونفع المحبين .
 بذكره . . وبعد أن راجع الفهرس قليلاً فتح الكتاب على
 صفحة بعينها كتب على رأسها (بين الاحبة والاحباب ، فى
 رسائل الهجر والعتاب) وراح يقرأ قليلاً فى هذا الباب حتى
 وصل الى كلمة وامق ومن ثم راح يشرحها للفتاة قائلاً :
 - وامق بمعنى عاشق ، اى مشتقة من العشق ، كما يشتق
 العاشق من المعشوق والله أعلم .
 وطبعاً لم نفهم جميعاً شيئاً من هذا التفسير ، لأننا ولا الفتاة
 ولا الاستاذ حسبوا نفسه .

أما الغرفة الثانية فكانت تقع عن يمين الداخل ، خلف
 الخوخة مباشرة . ذات باب نظيف يميل لونه الى البياض .
 تتوسطه طاقة زجاجية ذات أضلاع مختلفة الألوان ، وتمتاز
 هذه الغرفة عن غيرها بسرير كبير قام فى وسطها كالتختروان
 تحليه ملاءة محلاوى ذات مربعات بيضاء وحمراء و « ناموسية »
 من التل البعبى انعقدت فى قلبه فغدت كالقبة المعلقة فى الهواء
 والسريير عال للغاية بحيث لا يمكنك أن تبلغ سطحه الا
 بوساطة سلم دائرى وضع أمامه ، وحليت درجاته الثلاث
 بالقطيفة الخضراء الباهتة ، وحول كل درجة منها برقع من
 القطيفة الحمراء الباهتة أيضاً . تنسدل منه عدة شراريب
 ملاءة ذات ألوان متعددة ، ويقابل السرير (بريه) كبير متعدد
 الادراج تعلوه رخامة كبيرة زرقاء تحطمت بعض جوانبها
 ويتوسطها شمعدان نحاسى صدىء لم يستعمل منذ سنوات
 وقد امتلأ قلبه بعلب الثقاب الفارغة وبعض الابر والدبابيس
 وقطع كثيرة من الفاسوخ والجاوى وعين العفريت وبذور
 الكسبره والشيخ . وقد تلوث هذا كله بساتل الشمع مما
 يدل على قدمه . حتى غدا منظره قدراً مشوهاً ، وبجوار
 الشمعدان قلة زجاجية بيضاء عليها باقة من الورد الصناعى

يلبت أوراقها وتآكلت أسلاكها وحول عنق القلة عدة خيوط
حريرية رقيقة . علقت بها حلقات نحاسية وحجاب مغلف
تغليفا جيدا ، وبجوار القلة كوز حمام نحاسي تزينه نقوش
عربية قديمة ووضعت عليه قطعة من اللوف وصابونة «ممسكة»
ثم مكحلة ذات مرود نحاسي .

كانت تقطن هذه الغرفة الست لوحظ عبد السلام الدراملى
صاحبة البيت ، وهى امرأة فى منتصف العقد الثالث ، ذات
جمال أخاذ وقوام سمهرى مشوق تستهويك رؤيته وتطربك
طلعته ، وكأنها كانت تعرف ذلك فى نفسها فراحت تتعهد
جمالها وشبابها بالرعاية والعناية الفائقة فحينما تراها . .
ترى وجها يفيض بشرا ويزينه جبين وضاح أسدنت عليه
«قصة» من الشعر الفاحم يتوسطها «فرق» صغير كالهلال
الوليد ، وفوق هذا كله عقدت منديلها المطرز بخرج النجف
وزهور القرنفل ، وتدلّت أطرافه مع «المقصوص» الطويل على
اليمين عند الاذن التى يزينها قرط ذهبى كبير على هيئة نصف
دائرة ، حتى لتكاد تبلغ الكتف وتلمس الصدر ، ويغطي هذا
جميعه ملاءة لف حريرية رقيقة الملمس عرفت كيف تحكمها
وتضغط نسجها الرقيق على قوامها الفارع المشقوق بحيث
تلوح كنوزه لعينيك من بعيد أشبه بالنور الذى يتلأأ من
مكان سحيق فى الليل .

وكنت قد رأيته أول مارأيته على ناصية الزقاق عند
(مكتب) الاستاذ حسبو الذى كان قد أرشدنى الى الغرفة
وتعاقد معى على ايجارها نيابة عنها، ولذلك قدمنى اليها قائلاً:
- حضرتة الشيخ فراج الساكن الجديد فألقت على نظرة
من عينيها الجميلتين وقالت وهى تلوك: بين شديها لبانة
كبيرة تجيد فرقعتها اجادة تامة :

- أهلا وسهلا ، وبتشتغل ايه ؟

فأجاب الاستاذ حسبو على الفور قائلاً :

- مجاور فى الازهر .

فأخرجتنى هذه الاجابة واردت أن أصحح لها هذا الوضع
ولكنها سبقتنى قائلة وهى تمد لى يدها وتصافحنى :

— يعنى فقى •

وآلمنى منها هذا التعبير ، واحمر له وجهى خجلا ، وهممت أن أقول لها شيئا ، بيد أنها كانت قد سحبتنى من يدى التى كانت لاتزال فى يدها وسارت بى فى الطريق الى البيت • وفى الطريق أردت أن أنتهز هذه الفرصة لاصحح لها الوضع وأفهمها بأننى لست (فقى) كما ظنت ولست مجاورافى الازهر وانما أنا فى تجهيزية دار العلوم ، واننى بعد سنوات سأكون مدرسا فى إحدى المدارس الحكومية ، ولكنى لم أقل لها شيئا من هذا كله • لأنها كانت قد شغلت عنى حينما باللبانة التى تفرقها بين شذقيها ، وحينما بأحاديثها المتقطعة مع كل من يقابلها من سكان الحارة وحينما آخر بضحكاتها الصاخبة التى توزعها ذات اليمين وذات الشمال ، الى أن بلغنا البيت ••• فدلقت هى الى غرفتها وذهبت أنا الى الطاقة الصغيرة التى خلف الباب الصغير وتناولت مفتاح غرفتى الحديدى الكبير وفتحت باب غرفتى التى كانت تجاور غرفة الست لواظت مباشرة ، ولكن من الداخل فى نهاية الدهليز ، وأشعلت المصباح لانه كان يتعذر على الرؤية من كثرة الظلمة التى تكتنف مسكنى ليلا ونهارا ، ونزعت الكاكولة وعلقتها على المسمار فى الحائط وبينما أنا أنزع العمامة واضعها فى السفط الصغير الذى أعدته لها وغلفته بورق سميك حتى لا تنفذ اليه الصراصير ، اذا بى فجأة أرى الست لواظت من خلفى واقفة على الباب تتأمل محتويات الغرفة بعين فاحصة وتنظر الى الحصير القش الذى أنام عليه ومن فوقه (الحرام) الصوف القديم متكوما عليه كالكلب الاجرب النائم ، وقدر المش الذى تجمد من الرطوبة فعافته الديدان الصغيرة وخرجت هائمة تسبح على جدرانه ، وبعض لقيمات المرحرح التى انتشرت على الحشية وبقيت من فطورى ••• وما أن رأيته تتأمل هذا كله وتنفحصه بعينها حتى شعرت بالعرق يتصبب من جبينى وخجلت أكثر عندما رأيته تنظر الى والى جلبابى الذى بدت ثقبه عارية بعد أن نزعت الكاكولة ، وأحسست من فسط الخزى بأننى فى حاجة الى من يواسينى ، ولما لم أجده سوى

نظراتها التي تكاد تحرقني قلت لها مواسيا نفسي :
 - لا تؤاخذيني ، فهذه هي حياة الفقير
 فقالت ضاحكة وهي تنصرف وترد الباب خلفها :
 - علشان تبقى تقرأ لنا (ربيع) .

وحزت في نفسي هذه السخرية ، وأحسست بضحكاتها الصافية التي اختلط رنينها بوسوسة الحلي في معصمها وهي تغلق الباب ، كأنها فحيح الافاعي الصغيرة ينساب في أذني. فارتعدت وجلست القرفصاء متهاككا على نفسي ، ثم راحت الذكريات المريرة تمر سراعاً بخاطري .

ومرت بعد ذلك أيام أخرى حمدت الله في كثير ، لأنني لم ار الست لواحظ ثانية ، فهي كثيرا ما كنت تنغيب عن البيت ولا تعود اليه الا بعد أن أكون قد استغرقت في النوم ، أما الاستاذ حسبو فكانت أراه كل يوم على ناصية الزقاق ، وأنا عائد من المدرسة فأتحدث اليه قليلا ثم انصرف الى غرفتي وأشعل المصباح ، ثم اغرق بين كتب النحو والصرف ، وما شابهها الى أن يقبل الليل ويعود الاستاذ حسبو الى غرفته وتبدأ بعض النسوة والفتيات يتوافدن عليه وتعلو ضحكاتهن وتعطر أنغامها أرجاء الدهليز المظلم وتنفذ رائحتها الى أذني في غرفتي فأعرف أن الاستاذ حسبو قد جاء وان صلاة العشاء قد حانت فأخرج الى الحوض في الدهليز وهو عبارة عن نصف برميل قديم تعلوه حنفية صغيرة لا ينساب منها الماء الا بمقدار فأتوضأ وأصلي العشاء ثم أغلق باب الغرفة وأقرأ الفاتحة وآية الكرسي سبع مرات ، كما كان يفعل أبي رحمه الله ، ثم أنام ، الى أن حدث ذات ليلة ، وكان الشيخ زناقي طيب الله ثراه قد حتم علينا في المدرسة أن نحفظ الفية ابن مالك حفظا جيدا مجودا ونفهمها فهما دقيقا ، كما كان يقول رحمه الله ، على أن يكون ذلك كله في خمسة عشر يوما ، لذلك أغلقت الباب على في تلك الليلة وجلست أمام المصباح أبديء وأعيد وأتلو بصوت مسموع كعادتي كلما أردت أن أحفظ شيئا .
 وأنا أهتز أمام المصباح .

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

بواحدة كلمة والقول عم وكلمة بها كلام قد يؤم
وبينا أنا كذلك أهتز يمينا وشمالا وأغمض عيني حيناً ،
وأفتحهما على بعض الأبيات حيناً آخر ، إذا بالاستاذ حسبو
يدق الباب على مستأذنا في الدخول ، وقد بدا عليه الإرهاق
والتعب الشديد ، وفي يده كتاب دوحة الأشواق ، وبعض
العرائض البيضاء وطلب مني أن أنقل له من الكتاب على الورق
أربعة خطابات عينها لي ، لأن اشغاله كثيرة جداً في هذه الليلة
والزبائن لا ترحم ، وليس من الميسور تأجيل هذه الرسائل
إلى الغد ، وضايقني هذا في أول الأمر لأنه سيحول بيني وبين
طلاسم الالفية اللعينة وحل رموزها ، ولكنه رجاني في الحاج
ثم ألقى إلى بالكتاب والورق وانصرف وجلست أنا أنقل له على
الورق الرسائل الأربع .

كانت الرسالة الأولى من زوجة إلى زوجها الغائب والرسالة
الثانية كانت لا تختلف كثيراً عن الأولى ، وإن كانت من خطيب
إلى خطيبته ، أما الخطاب الثالث فكان من عاشق مفتون إلى
عشييقته . وقد أخرجني كثيراً ما تضمنته هذه الرسالة من
عبارات خارجة ، وأوصاف جارحة ، حتى فكرت في تمزيقها
ولكني كنت قد فرغت من كتابة الرسائل جميعاً ، فاستغفرت
الله ، وأخذتها وذهبت إلى غرفة الاستاذ حسبو وفتحت بابها
فوجدتها غاصة بالنسوة والفتيات ، يضحكن ويتحدثن . .
والاستاذ حسبو بينهن يجلس على الأرض فوق قروة من
الصفوف وأمامه طبلية عليها مصباح تعلوه برنيطة قد تحطم
تصف زجاجها وبجوارها المحبرة ذات الأقلام البسط التي
كان نابليون يوقع بها أوامره اليومية ، وقد انهمك الاستاذ
حسبو في الكتابة والنسوة من حوله جالسات على الأرض
ينظرن إليه تارة ويتحدثن فيما بينهن حيناً وإلى حيناً آخر
ولكنه لا يجيب ولا ينظر إليهن ، وما أن أبصرن بي عند الباب
حتى فوجئن واكتنفهن ذعر شديد كما شعرت أنا بكثير من
الخجل وهممت أن أرجع ولكن الاستاذ حسبو قدمني إليهن
هدون أن يرفع عينيه عن الورق وقال :

فضيلة الاستاذ الشيخ فراج مجاور في الأزهر .

فغاضبني منه هذا القول ، كما غاضبني في المرة الاولى وارادت
 أن تصحح له الوضع للمرة العشرين بعد الالف ولكن احذني
 النسوة قد انفجرت ضاحكة وهي تقول :
 - والنبي سألتك الفاتحة يا أستاذ وفجأة دوت عاصفة من
 الضحكات الانثوية الصاخبة امتلأت بها الحجرة حتى كادت
 تطبق على المصباح الزجاجي وتخنق ذبالتة ، فتصيب العرق
 من وجهي وتصاعدت انفاسي ولم تهدأ هذه العاصفة الا بعد
 أن دق الاستاذ حسبو بقلمه البسط على الطاولة عدة دقات
 متواليات ، ومد لي يده فأعطيته الكتاب والرسائل ، وبعض
 العرائض البيضاء التي بقيت ، ثم قفلت راجعا اتعثر في
 خطواتي ، وأنا أقطع فراغ الدهليز ، بيد ان الاستاذ حسبو
 كان قد لحق بي واستوقفني وقال وهو يدس في يدي شيئا
 في الظلام ويطبق أصابعي عليه :
 - على ما قسم .

ولما خلوت الى نفسي فتحت يدي فوجدت بها أربعة قروش
 كاملة ، وما أن رأيت ذلك وتأملتته وتأكدت منه حتى تبدل
 حال فجأة وشعرت بغبطة لاحت لها تغمرني وتفيض على كيالي
 كما شعرت فجأة أيضا بأني جائع ، وان رائحة السمك المقلي
 تنفذ الى خياشيمي لذينة شهية ، كما تنفذ اليها كل يوم عند
 ما أمر على (سماك الملوك) في باب الخلق عند عودتي من
 المدرسة ، ودون أن أفكر وجدتنني في الطريق بالقبقاب أقطع
 في سرعة خارقة الزقاق ثم الحارة الى أن بلغت باب الخلق ،
 فاشتريت بالقروش الاربعة جميعا سمكا مقليا طازجا حلوا
 المنظر لذيد الرائحة ، ثم عدت سريعا أيضا الى غرفتي ، وما
 أن جلست أمام المصباح ورأيت أمامي تلك الكومة الكبيرة
 من السمك الصغير حتى انقضضت عليها ألتهمها في سرعة
 كما يلتهم الجائع شيئا في الظلام ، دون أن تعترضني شوكة
 ثم أفرغت نصف القلة في جوفي واستلقيت على الحصنيسير
 ناعم البال هادئ النفس ، أحملق بعينين سعيدتين في سماء
 حجرتي كما يحلق العصفور الطروب في سماء الربيع ، وما
 أن قرأت الفاتحة وآية الكرسي وزدت عليهما في هذه الليلة

السعيدة قراءة سورة (الفلق) وكررت «ومن شر حاسد اذا حسد» مرات حتى استغرقت في نوم عميق لذيذ كذلك الذي يستشعره المريض بعد أن يبل من مرضه ، بيد أن هذه السعادة والأسفاه ، لم تدم سوى ساعات النوم فقط ، فقد وصلت الى في الصباح رسالة من خالي تشير الى أن أمي مريضة مرضا خطيرا ، وان الاسطى هنداوى حلاق صحة المركز اشار بضرورة نقلها الى المستشفى ، وقد نزل هذا النبأ على كالصاعقة ، فأسقط في يدي وأظلمت الدنيا في عيني ، وقضيت يوما لايعلم الا الله كيف قضيته ، ولما تشاورت في الامر مع الاستاذ حسبو كان الرجل معي كريما نبيلاً الى أقصى حدود النبل والكرم فقد أقرضني خمسين قرشا واشار على بضرورة احضارها الى القاهرة ، وادخالها مستشفى قصر العيني ، ولما أفهمته أن هذا ليس في مقدوري وانني لا أعرف هذا المستشفى ، ولم اسمع عنه سوى ما يلاقيه المريض فيه من عنت وقسوة وسوء معاملة ، أقهرني بأنه سيتكفل بهذا كله وبماله من نفوذ سيعمل على راحتها وشفائها ولقد بر الاستاذ حسبو بما وعد ودخلت أمي مستشفى قصر العيني وهي بين الحياة والموت ، أكلها المرض أكلا ، فذهب شبابها وغاض لونها وذوى جمالها وغدت في سوء حال لاينذر الا بالفاجعة ، وانا أتصور كل شيء الا أن تموت أمي ، لذلك كنت كالمجنون ، لأذهب الى حجرتي الا لأخرج منها ، ولا أذهب الى المدرسة الا لأذرف الدمع ، ولا تقودني قدماى الى المستشفى الا لاطوف حول جدرانه متطلعا الى السماء بالدعاء حيناً وقراءة القرآن حيناً راجيا من الله أن يشفى أمي وان لايجرمنى منها وظلمت كذلك الى أن امتدت لي فجأة يد الله التي تأبى الا أن تمتد الى البائسين من عباده في أخرج المواقف وأشدّها ظلما وظلاما ، فتنقذهم وترد اليهم حياتهم ، فشفيت أمي وخرجت في صحة وعافية ، ولما أرادت أن تعود الى القرية أبيت عليها ذلك حتى لا ترجع ثانية الى زوجة خالي فتذيقها من جديد تلك الالوان المتعددة من المحن فتمرض مرة أخرى وعاشت معي في الحجرة تجوع لتطعمنى ، وأشبع لاطعمها

ولكن للجوع رائحة يشمها البعض ، وقد شم الاستاذ حسبو رائحة الجوع تتصاعد من حجرتنا يوما بعد يوم ، فأشفق الرجل علينا وعرض على أمي عرضا رفضته أنا في اول الامر ثم عدت فقبلته في آخر الامر ، فقد اتفق لها الاستاذ حسبو مع بعض الكوئين في باب الخلق ، على أن يحضروا لها بعض الملابس لغسلها وتنظيفها ورتق ما يحتاج منها الى الرتق نظير بعض القروش ، وقد أفدنا من ذلك فعلا واستطعنا به ، أنا وأمي أن نفتح في سماء حجرتنا المظلمة طاقة صغيرة يطل علينا منها الرغيف اذا ما تطلعنا اليه ، ولم يقف الامر عند هذا ، بل اتسعت تلك الطاقة بعد ذلك اتساعا كبيرا ، فقد توطدت علاقتي بالاستاذ حسبو ، واتخذ مني مساعدا له وكاتما لاسراره وصديقا يطمئن اليه في ملهمات الامور ، وكان أن قسمنا العمل بيننا ، فاختص هو بالنشئون القانونية وقضايا الزواج والطلاق والنفقة ، وكتابة المظالم ورفعها الى أولى الامر وانفردت أنا بتحرير الخطابات الغرامية التي يحيلها علي الاستاذ حسبو يوميا نظير أجرنا اتفقنا عليه وهو قرش عن كل رسالة ، ولما درست كتاب دوحه الاشواق دراسة وافية وتفهمته وفرقت بين خطابات الحب والهيام ، وخطابات الهجر والخصام ، رحت أكتبها من تلقاء نفسي ودون الرجوع الى الاستاذ حسبو الا اذا تعقدت بعض الامور واحتاج حل اشكالاتها الى الاستاذ ، وشيئا فشيئا قمت مقام الاستاذ حسبو في حل المشاكل ايضا ، فما كان علي العاشق الا أن يقص علي قصته ويطلعني علي خفايا نفسه حتى اعرف نوع الخطاب الذي يريد فأكتبه اليه وكثيرا ما كنت أزيد علي بعض الخطابات التي أنقلها ، أشياء من عندي ليس لها أصل في الكتاب مما حبيب في الاستاذ حسبو وجعله ينتظر لي مستقبلا طيبا ، وكان هذا فعلا فاتحة خير كثير لي ، فقد تبدل حالي عن ذي قبل وبدأ القرش يعرف طريقه الى يدي ، أو يدي هي التي بدأت تعرف طريقها اليه ، فاشتريت جلبابا جديدا وجوربا غير الذي تاكل ، وأرسلت بالكاكولة الى الكواء فنظفها واعاد اليها بهجتها ، كما كثر ترددي علي سماك الملوك في باب الخلق

«فلا يكاد أسبوع يمر دون أن أذهب إليه واستجلب منه سمكا
 كثيرا لي ولأمي ، كما عرفت قدمي طريقها الى بعض المطاعم
 الأخرى ، عرفت مطعم الأمراء الذي يبيع الفول الشهي
 والطعمية ذات الألوان الذهبية البراقة ، كما عرفت (طرشجي)
 الذوات في باب الخلق ، وعم خليل بائع البسبوسة والشيخة
 خضرة بائعة الفجل والجرجير والبصل الأخضر التي تجلس
 عند سلم السبيل ، كما بدأت أمي تعطر لي سماء الحجارة
 بين الحين والحين بأريج اللحم الذي يتصاعد عطره من الاناء
 أثناء انضاجه على النار ، فمرة أكلة شهيّة من الكوارع ومرة
 أكلة لذيذة من لحم الرأس ، ومرة دجاجة سميّة تطهيتها لي
 وتضعها أمامي حمراء وردية اللون تتضوع مسكاً ، كما يتضوع
 أريج الزهر في الخمائل ، كما اننا نظمنا الحجارة ، فقد
 اشترت أمي سريراً ومقعدين وكرسيّاً صغيراً نرتدي ثيابنا
 أمامها كما اشترت لها ثوباً جديداً وشيشياً وملاءة لف ترتديها
 عند الخروج وهكذا يسر الله لنا الحال ، وادخل الفرحة على
 قلبي ، ولا سيما بعد أن رضيت أمي عن هذه الحياة الجديدة
 وزايلها المرض الذي كانت تشكو منه دائماً واستعادت شياها
 الغض ، وجمالها الذي كان قد فارقها بعد أن مات أبي ، وعاد
 البشر الى محياها وراحت الضحكة الصافية التي لا تصدر الا
 عن القلب المهاني ، تشق طريقها الى شفيتها اللتين توردتا
 كما راحت تقف بين الحين والحين أمام المرأة تمشط شعرها
 وتردد بعض الاغانى الريفية كما كانت تفعل تماماً أيام أبي
 رحمه الله ، كما توطدت علاقتها بالسبت لوحظ حتى انهما
 أصبحتا لا تفترقان ولا تخرجان الا معاً لزيارة السيدة زينب
 والسيدة نفيسة والتبرك بالحسن والحسين والطواف حول
 قبر أم هاشم والسيدة سكينة والشيخ أبو السعود .. كما
 راح الاستاذ حسبو يرينا الكثير من عطفه ويسهر في حجرتنا
 أحياناً فنشرب الشاي الذي تصنعه لنا أمي ونكتب بعض
 الرسائل الغرامية دون أن تظن أمي الى ما نفعل وكثيراً ما كانت
 تسألنا عما نكتب فيفهمها الاستاذ بأنها بعض الشؤون القضاية
 تطلب نفقة أو وفاء عدة أو غير ذلك ، فكانت تحزن لهم

الخلافات بين الناس وتدعو الله في خشوع أن يحل الوثام محل
 الخصام بين الناس اجمعين ، فيبتسم الاستاذ حسبو وابتسم
 أنا من سذاجة النساء وصفاء قلوبهن ، أما أنا فقد رتبت حياتي
 الجديدة ونظمتها تنظيما مريحا للغاية ، فقد خصصت الوقت
 من المغرب الى صلاة العشاء في كتابة خطابات الاستاذ حسبو
 ومن صلاة العشاء الى منتصف الليل في الدرس والتحصيل
 ولما قرب موعد الامتحان امتد بي السهر الى ما بعد ذلك بكثير
 وفي بعض الاحيان الى الصباح وقد أثابني الله على ما بذلت من
 جهد اذ نلت تجهيزية دار العلوم بتفوق في ذلك العام ، وان
 أنس لا أنس ما حييت تلك الليلة التي ظهرت فيها النتيجة التي
 كنت أنتظرها واجف القلب نافذ الصبر يقتلني الشوق الى
 النجاح ، ولذلك ما أن ظهرت النتيجة وعرفت انني ثالث
 الناجحين حتى كادت الفرحة تفقدني صوابي وتخرجني عما
 ألفت من وقار ، وما جبلت عليه من ريث واثارة ، وانطلقت في
 الطريق أركض كطفل وأكاد من فرط ما غمرني من سعادة
 وهناء أطيروا في السماء ولما لم أجد أمي في البيت، ضايقتني ذلك
 ورحت أنتظرها على أحر من الجمر ، لازف اليها البشري ..
 وكأنها قد أحست بما ينتظرني من سعادة في هذه الليلة
 فأرادت أن تضيف اليها سعادة أخرى فأعدت لي دجاجة سمينة
 وطبقا من الارز الشهى الذي تجيد صنعه فلم أنتظرها حتى
 تعود ، ورحت من فرحتي التهم الدجاجة التهاما ، وأمزق لحمها
 تمزيقا وألعق عظمها لعقا شهيا لذيذا ، وقد انستني الفرحة
 بالنجاح وبالدجاجة كل شيء فلم أبق لامي منها شيئا ، وقد
 ألمني هذا كثيرا بعد ما فطنت اليه ، حتى أنني جلست أفكر
 في عذر يبيح لي عندها هذا الذي فعلت فلم أجد سوى أن أسرع
 قبل أن تجيء الى سماك الملوك واشتري لها رطلا من السمك
 المقل لتتعشى به ، ولا سيما انها تحب السمك كثيرا وتفضله
 على غيره من الطعام، فسوف يسعدني هذا كثيرا كما اسعدتني
 هي بالدجاجة، بيد انني لم أكد أخرج من البيت وأدفع الباب
 خلفي حتى رأيت أمي مقبلة من بعيد في الظلام ومعها الست
 لوحظ تسرعان الخطى فاخفتيت عند السرجة حتى لا تراني..

أمي فتحول بيني وبين ما أريد أن أسعدها به في هذه الليلة
المباركة التي أفاء الله علينا فيها خيرا كثيرا وفضلا كبيرا ونعمة
سابقة ، لذلك أمنت في الاختفاء بجوار حائط السرجة ..
وظلمت كذلك الى أن أقبلتا على الباب وفتحناه ودلفت منه
الست لواحظ تخب في ملاءتها الحريرية السوداء ، أما أمي
فقد تريشت في الدخول ووقفت أمام الباب في الليل تتلفت
حولها في حذر كمن يريد ان يخفي شيئا في الظلام فأدهشني
ذلك وأمنت في الاختفاء حتى أرى ما تصنع ، فاذا بها تدس
يدها في جيبها وتخرج منديلا وتزيل به شيئا كان على الشفتين .

فهرس

- ١ ... « خيوط لا ترى »
- ٢ ... عند ما يأتى الربيع ...
- ٣ ... رمان الجنائين ...
- ٤ ... أغلى من العين ...
- ٥ ... الام جيزابيل ...
- ٦ ... حمار جحا ...
- ٧ ... ميرفت هانم ...
- ٨ ... الشيخ على ...
- ٩ ... همس الصمت ...
- ١٠ ... عند ما نحب النساء ...
- ١١ ... الثعبان الابيض ...
- ١٢ ... صالح الامن ...
- ١٣ ... مكر ...
- ١٤ ... ربيع الجسد ...
- ١٥ ... نساء فى الليل ...
- ١٦ ... آثار على الشفاه ...

كتب المؤلف

- ١ ... الضباب
مطبعة الاهرام مايو ١٩٤٢
- ٢ ... هتاف الجماهير
لجنة النشر للجامعيين أكتوبر ١٩٤٥
- ٣ ... نساء فى حياتى
دار جريدة المصرى نوفمبر ١٩٥٠
- ٤ ... أرض الخطايا
لجنة النشر للجامعيين ديسمبر ١٩٥١
- ٥ ... يوم الثلاثاء
نادى القصة أكتوبر ١٩٥٢
- ٦ ... آثار على الشفاه
نادى القصة سبتمبر ١٩٥٣

الكتاب التالى

غراميات ومحاکمات

مجموعة قصصية مستمدة من قضايا « الرجل
والمرأة » التى فصل فيها القضاء المصرى ، وترافع
فيها كبار رجال القانون .

نادى القصة

طه حسين • توفيق الحكيم • محمود تيمور • فريد أبو حديد •
عزيز أباظه • حسين فوزى • بنت الشاطىء • سهر القلماوى •
احسان عبد القدوس • يوسف جوهر • امين يوسف غراب •
نجيب محفوظ • عبد الحليم عبد الله • عبد الحميد جودة السحار •
محمود البدوى • على احمد باكثير • صلاح ذهني • يوسف
السباعى •

يقدم

على أحمد باكثير

- فى -

الشارع الأحمر

الكتاب الذهبى العدد السابع عشر
يصدر فى أكتوبر - الثمن ١٠ قروش

الكتاب الذهبى

العدد السادس عشر سبتمبر ١٩٥٣
يصدره نادى القصة
١٥ ميدان التحرير
١٨ شارع محمد سعيد
تليفون : ٢٠٨٨٦ - ٢٠٨٨٧ - ٢٠٨٨٨

الاشتراكات :

مصر ١٢٠ قرشا عن سنة - ٦٠ قرشا عن نصف سنة
الخارج ١٨٠ قرشا عن سنة - ٩٠ قرشا عن نصف سنة .

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

رئيس التحرير المسئول: سعد الكفراوى خليل

الكتاب الذهبى

النظارة السوداء - وا اسلاماء - يوم الثلاثاء - سر الشاطىء
جاء الخريف - خان الخليلي - وراء الستار - بعد الغروب -
شجرة الحكم - ازهار الشوك - شفاه غليظة - شجرة البؤس -
هياكل فى الريف .

تطلب من دار « روز اليوسف » ١٨ شارع محمد سعيد

(تليفون : ٢٠٨٨٨)

مذكرات الشهر

فقيه القصة

كانت العربية تنساب بي في طريق المقابر الموصل الى القلعة متجهة الى مقر عملي بالمتحف الحربى • والطريق موحش صامت ونسمات الصباح الرطبة تلفح وجهى وقد شرد بصرى خلال النافذة وأخذت تتوالى عليه شواهد القبور وقياب المدافن وصحف الصباح ملقاء في أرض العربية وقد شرد عنها البصر والذهن في جولتهما بين المقابر •

وعلى غير ارادة انقل البصر فجأة من شروده في النافذة الى أرض العربية في لحظة خاطفة •• وثبت في ذهول على بضغ كلمات في احدى الصحف الملقاة على الأرض •• كان بها «وفاة صلاح ذهني» ورفعت الجريدة بيد وجله خائفة •• وأخذت أرقب الصورة في صمت ووجوم وكنت أعرف من حديث الاطباء مدى بأسهم من علاجه •• ولكنى كنت أمل في رحمة الله • وكنت أرجو ان تعلم قدرته عجز الطب وأحسست بغيام يخيم على عيني •• وأنا أكره البكاء •• وأعلم أن الموت هو الحق الوحيد في هذه الدنيا •• وحاولت أن أتجلد وأتماسك وأن أبدد سحب الدموع وأعيدها الى ما بقيها •• ولكن طوفان الدمع كان أقوى من سد ارادتي وبكيت صلاح •• وحيدا بين المقابر •• ثم واصلت السير حتى بلغت مكتبي وأخذت أتشاغل بفض الخطابات •• وكان أول ما وقع عليه بصرى تذكرة بريد من لندن جاء فيها

«أبعد اليك من فراش المرض بالمستشفى بنحياتي لك ولكل أعضاء نادى القصة»

أخوك - صلاح ذهني

ومره اخرى عاد الدمع بتساقط على الحروف المترافضة أمام عيني

وانى أحس بعجز عن - رثاءه ••• فقد غلب انهيارى بفقد قدرتى على الكتابة عنه ولست أجد ما أقوله عنه الا ما سبق أن قلته في تقديم كتابه جاء الخريف : « ان صاحبي فنان أصيل • وان به من صفاء النفس والذهن والمشاعر ما يجبره على أن يكون كما كان وانه عاشق للادب والموسيقى وكل أنواع الفنون وانه ان لم يكن كاتباً لاضحى موسيقياً أو رساماً أو مثالا •• ناجحاً » رحمه الله وأجزل ثوابه •

يوسف السباعي

